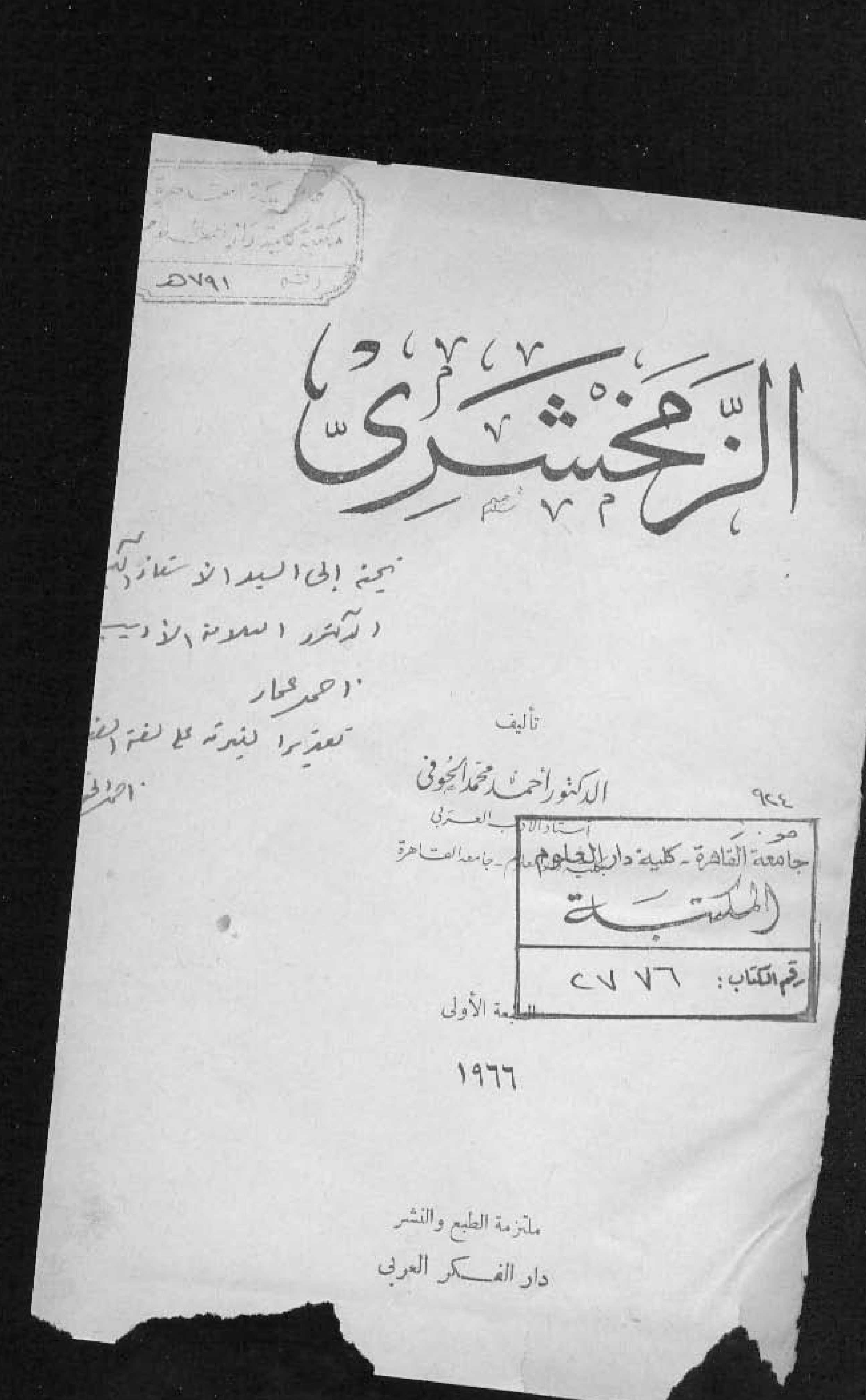


الزمخشري

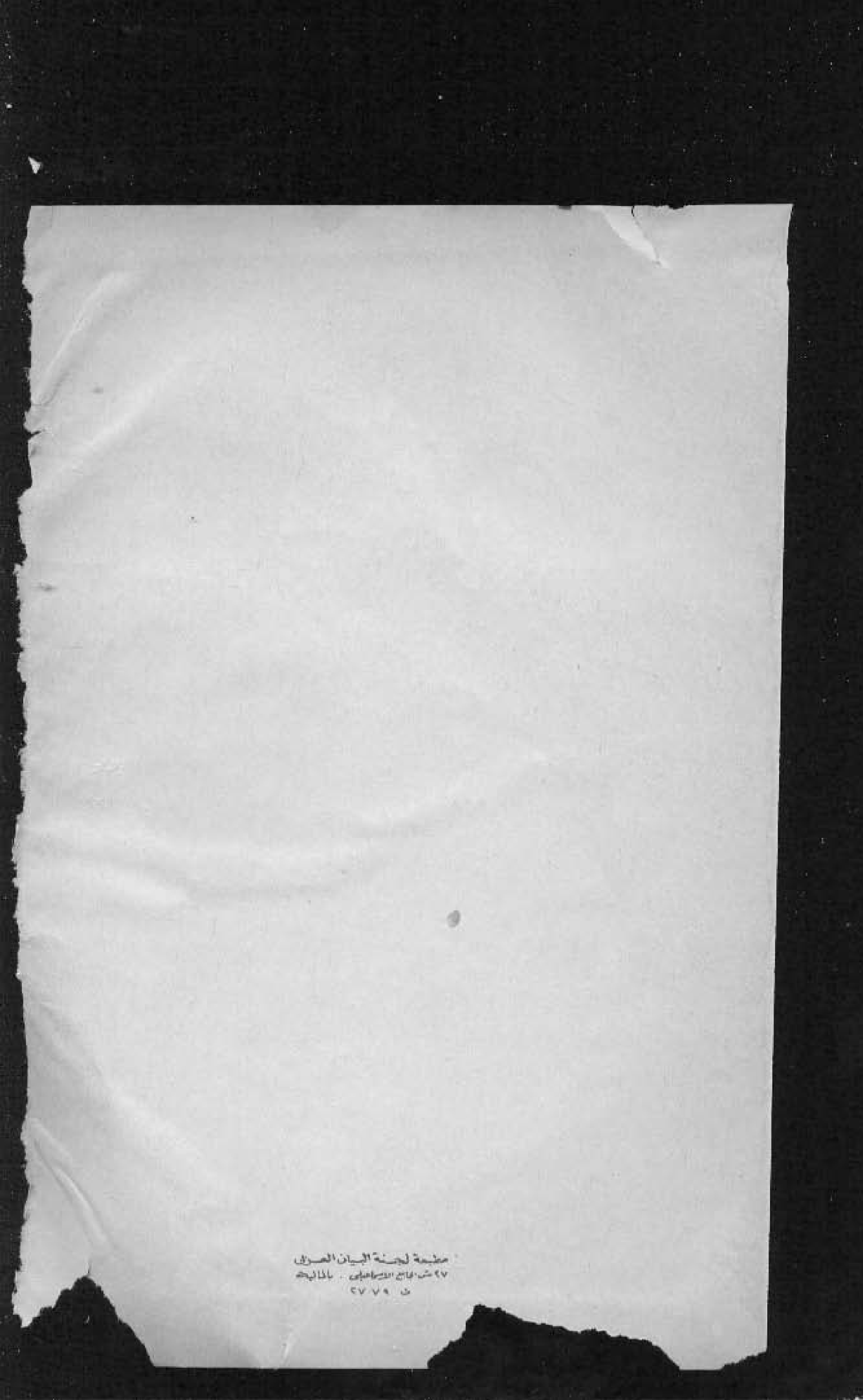
تأليف

الدكتور أحمد محمد الحوفي
أستاذ الأدب العربي
بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٦٦

ملتزمة الطبع والنشر
دار الفكر العربي



مطبعة لجنة البيان العربي
٩٧ ش الحاج الاسماعيلي . بالمالية
ت ٢٧٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ... وبعد .

فإن الأمة العربية ما كادت تفيق من خورَها حتى تلفتت إلى ماضيها المشرق ، فبصُرَت به أعظم ماض تفاخر بمثله أمة ، ووجدت فيه أنفس تراث يخايل بشبهه خلف ، فأيقنت أنها لا تستطيع أن تبدل حاضرها ، ولا أن تحقق آمالها فى مستقبلها ، إلا بالتأسى بماضيها العظيم ، فجعلت تستحيي هذا الماضى ، وتبتعث مفاخره ، وتجلّى عظمته ، وتدْرُس أبطالها وعظماءها وعلماءها وأدباءها ومفكريها دراسة واعية موحية .

ولأمر ما نَعُدُّ من العرب أعلاما من أعصار شتى ، ومواطن متباعدة ، وثقافات متعددة ، لأنهم جميعاً عرب ، امتزجوا بالعروبة دينا ولغة وثقافة وإنتاجا وتاريخا وحضارة ، حتى إن كثيراً منهم يمتون إلى أصول غير عربية ، ولكنهم نسوها أو ذكروها على أنها أطياف من ماض سحيق ، لطول العهد بينها وبينهم ، ولسلطان العروبة الغلاب على بيئاتهم ، إذ كانت العربية ينبوع الشريعة ، ولغة الثقافة أحقاباً متوالية ، لا تنازعها لغة من لغات الأمم التى نشر العرب عليها ظلالهم .

بهذا التصور كتبت عن الطبرى من قبل ، وبالتصور نفسه أكتب عن الزمخشرى اليوم .

ومن حق الزمخشرى أن يخص بدراسة مفصلة متكاملة تكشف عن

عصره وحياته وأساتذته وتلاميذه ومؤلفاته ، وتفوقه وابتداعه ، فقد كان في الصدارة بين علماء عصره ، وكان إماما في أفانين من المعرفة ، وخلف في كل منها آثاراً بقى منها كثير ، واحتجب منها كثير ، ولعله يسفر بعد طوال احتجاب ، وإن مابقى من آثاره لكفيل بتقديره ، والتنويه به ، والاحتفاء بذكراه .

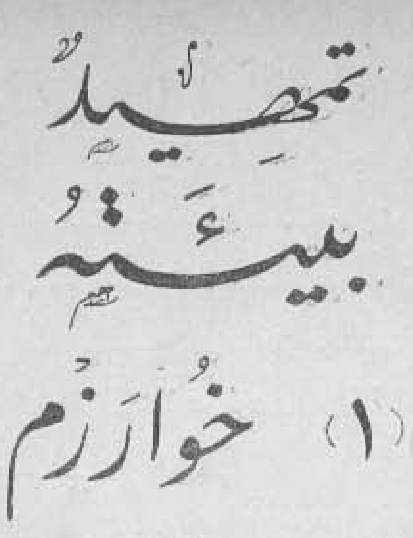
وقد رجعت إلى ما كتبه القدماء عنه ، وقرأت مؤلفاته مطبوعة ومخطوطة ، لأستنبط منها أحداث حياته ، ومعالم شخصيته ، وخصائصه الفكرية والفنية ، ومثلت بنماذج من كتبه لتكون كالإشارة التى تدل على معالم الطريق الطويل .

ولست أنسى أن أنوه بالدراسة التى قام بها الدكتور مصطفى الجوينى فى كتابه (منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن) وبالفصل الذى كتبه الدكتور شوقى ضيف عن الزمخشرى فى كتابه (البلاغة تاريخ وتطور) .

وإنى لأرجو أن يمنح الله دراستى هذه من السداد والتوفيق ما يجعلها جديرة بما قصد منها وأريدت له ؟

أحمد محمد الحوفى .

القاهرة فى | المحرم ١٣٨٦
| ابريل ١٩٦٦



هنالك على حِفافَىْ نهر جيحون فى آسيا الوسطى كانت ولايات خمس هى الصُّغْد وعاصمتاها بخارى وسمرقند ، وفى غربى الصغد خوارزم التى تسمى اليوم خيوه أو كيوه ، وصغانيان ، وفرغانة ، والشاش المسماة الآن طشقند .

وقد فتح العرب الإقليم سنة ٩٣ هـ (٧١٢م) بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلى [١] .

ولم يلبث هذا الإقليم بعد الفتح أن صار مركزا من مراكز الثقافة العربية والإسلامية ، ومشرقا لكثير من كبار العلماء كالزمخشرى والرازى والسكاكى والمطرزى .

وحسبنا من وصف خوارزم وما جاورها أن نذكر ما قاله ثلاثة من الرحالة شاهدوها بأعينهم وأقاموا بها زمنا .

فالمقدسى رحل إلى إقليم المشرق ـ وكانت تُطْلَق هذه التسمية على إقليم خراسان وما وراء النهر ـ فى عهد الدولة السامانية التى حكمت من ٢٦١ إلى ٣٨٩ هـ (٨٧٤ ــ ٩٩٨ م) فوصفه بقوله : « إنه أجل الأقاليم ، وأكثرها أجلة وعلماء ، وهو معدن الخير ، ومستقر العلم ، وركن الإسلام المحكم ، وحصنه الأعظم ، ملكه خير الملوك ، وجنده خير الجنود ، فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك . وقد قال محمد بن عبد الله لدعاته : « عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلَد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٨/٨٣ .

ولم تتوزعها النِّحل ، ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومنا كب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب ، وأصوات هائلة ولغات نخمة»... وأهل خراسان أشد الناس تفقها ، وبالحق تمسكا ، وهم بالخير والشر أعلم ، وإلى إقليم العرب ورسومهم أقرب ، وإقليمهم أكثر أجلة وعقلاء ، مع العلم الكثير ، والحفظ العجيب ، والمال المديد ، والرأى الرشيد ، به مَرْو التى قامت بها الدنيا ، وبَلْخ وإليها المنتهى ، ونيسابور فلا تنسى .

وهو أكثر الأقاليم علما وفقها ، وبه يهود كثيرة ، ونصارى قليلة ، وأولاد على رضى الله عنه فيه على غاية الرفعة ، ولا ترى به هاشميا إلا غريبا ، ومذاهبهم مستقيمة ، غير أن الخوارج بسجستان ونواحى هَراة كثيرة ، وللمعتزلة بنيسابور ظهور بلا غلبة ، وللشيعة والكرامية بها جَلَبة ، والغلبة فى الإقليم لأصحاب أبى حنيفة إلا فى كُورة الشَّاش وطُوس ونَسا وأبِيَوَرْد فإنهم شفعوية (شافعية) ولهم جلبة بهراة وسِجِسْتان وسَرَخْس .

ورسومهم تخالف رسوم أقاليم العرب فى أكثر الأشياء ، فللمؤذنين سرير قدام المنبر يؤذنون عليه بتطريب وألحان ، ويذكّرون بلا دفاتر — من غير كتب يقرءون فيها — وبنيسابور رسوم حسنة ، منها مجالس المظالم فى كل يوم أحد وأربعاء بحضرة صاحب الجيش أو وزيره ... وألسنتهم مختلفة ، أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم ، غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ، وفيه رخاوة ، وأهل طوس ونَسا أحسن لسانا ... وبهذا الإقليم عصبيات بين الشيعة والكرّامية وبين الشافعية والحنفية ، وقد يهراق فى هذه العصبيات الدماء ، ويدخل بينهم السلطان . ولهم مجالس عشيات جُمَع شهر رمضان للمناظرة بين يدى السلطان ، فيبدأ هو فيسأل مسألة ثم يتكلمون عنها ... إلى أن يقول : وأقل إمام فى الفقه والأدب والقرآن لقيته له تلميذ خوارزمى قد تقدم ونفذ فى فنه واستقام »[1] .

(١) أحسن التقاسيم ٢٨٤ وما بعدها .

والذى يسترعى النظر من هذا الوصف :

١ — كثرة العلماء ، وتقدير الحكام لهم .

٢ — الكلف بالحفظ .

٣ — إجلال نسل على بن أبى طالب ، وكثرة الشيعة .

٤ — كثرة المعتزلة بنيسابور خاصة .

٥ — العصبية بين الشيعة والكرّامية ، وبين الشافعية والحنفية .

٦ — الكلف بالمناظرات :

وجاء فى وصف ياقوت لإقليم خوارزم أنه موفور الخيرات ، كثير الثمرات ، جميل المناظر ، وقال إن أهله كرام الأخلاق ، وإن لم يكونوا من ذوى الظرف والكياسة . وزار ياقوت عاصمة خوارزم (الجرجانية) سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) فوصفها بأنه لم ير مدينة أعظم منها ولا أكثر أموالا ولا أحسن أحوالا[1] .

ويقول فى موضع آخر إنه زار إقليم خوارزم سنة ٦١٦ هـ فلم ير ولاية أعمر منه ، فإنه — على رداءة أرضه وكثرة سبخها وتزوزها — متصل العمارة ، متقارب القرى ، كثير البيوت المفردة والقصور فى صحاريها ، وقلما يقع النظر فى رساتيقه — ضياعه ومزارعه — على موضع لا عمران منه ، هذا إلى كثرة الأشجار والخيرات . وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين ، ويندر أن تكون قرية بغير سوق ، والأمن هناك شامل والطمأنينة تامة[2] .

ووصفها ابن بَطُّوطة بعد عصر الزمخشرى — فى رحلته التى بدأها من المغرب إلى المشرق سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٤ م) واستغرقت ٢٧ عاما — بقوله « لم أر فى بلاد

(١) معجم البلدان ٢/٧٩ .

(٢) معجم البلدان ٣/٤٧٤ .

الدنيا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوسا ، ولا أحب فى الغرباء . ولهم عادة جميلة فى الصلاة لم أرها لغيرهم ، وهى أن المؤذنين فى مساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة ، فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة ، وفى كل مسجد دِرّة معلقة برسم ذلك ، ويغرم خمسة دنانير تنفق فى مصالح المسجد ، أو لإطعام الفقراء والمساكين ، ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة من قديم الزمان[1] » .

ومن البديهى أن وصف ابن بطوطة — وإن كان بعد عصر الزمخشرى — ينبىء عن أخلاق أصيلة قديمة العهد ، لأن السجايا الحميدة لا تكتسب سريعا بعد تجرد وخلاء ، ولأنه يذكر أن عادتهم فى ضرب المتخلف عن صلاة الجماعة قديمة منذ زمان بعيد .

وفى إقليم خوارزم عدة مدن ، منها الجُرْجانيّة وزَمَخْشَر وخُوارَزْم ، وزمخشر إحدى قرى خوارزم القريبة منها ، ويظهر أن كلا منهما امتدت فتداخلتا ، لأن القفطى يقول : سمعت بعض التجار يقول إنها قد دخلت فى جملة المدينة ، وإن العمارة لما كثرت وصلت إليها وشملتها ، فصارت من جملة محالها[2] .

وإلى زمخشر هذه نسب جار الله محمود بن عمر ، فقيل الزمخشرى ، وهذه النسبة حين تذكر لا تنصرف إلا إليه .

والبرد شديد جدا هناك ، حتى إن الثلج كثيرا ما يؤثر فى الأطراف فتسقط ، ويذكر ابن خلكان أنه شاهد خلقا كثيرا ممن سقطت أطرافهم فى خوارزم بسبب البرد ، ويعلق على هذا بأنه من الخطأ أن يستبعده من لا يعرفه[3] .

ويذكر ياقوت أنه رأى نهر جَيْحُون — وعرضه ميل — وهو جامد ، والقوافل والعجول الموقرة ذاهبة وآيبة على جليده[4] .

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ١/٢٩٨ .
(٢) إنباه الرواة ٣/٢٦٥ .
(٣) وفيات الأعيان ٤/٢٥٥ .
(٤) معجم البلدان ٤/٤٧٤ .

وكثيرا ما ردد ابن بَطُّوطة آلامه من برد الإقليم ، حتى إنه كان يتوضأ بالماء الحار بقربة من النار ، فما تقطر من الماء قطرة إلا جمدت لحينها ، وإذا غسل وجهه بالماء ووصل الماء إلى لحيته جمد ، فيسقط منها شبه الثلج ، والماء الذى ينزل من الأنف يجمد على الشارب[1] .

ويقول إن نهر جيحون يجمد فى أوان البرد ، ويسلك الناس عليه ، وتبقى مدة جموده خمسة أشهر[2] . ويقول إن السلطان علاء الدين طرمشيرين — سلطان ماوراء النهر — أعطانى سبع مئة[3] دينار دراهم وفروة سمُّور تساوى مئة دينار طلبتها منه لأجل البرد ، وأعطانى فرسين وجملين ، ولما أردت وداعه أدركته فى طريقه إلى الصيد ، وكان اليوم شديد البرد جدا ، فوالله ما قدرت على أن أنطق بكلمة ، لشدة البرد ، ففهم ذلك وضحك ، وأعطانى يده وانصرفت[4] .

(٢) الحياة السياسية

خضعت تلك البلاد للحكم العربى مدة ، ثم آل الأمر فيها إلى ثلاث دول متتابعة .

أولاها الدولة السامانية من سنة ٢٦١ إلى ٣٨٩هـ (٨٧٤ — ٩٩٩م) وقد نشأ السامانيون فى بَلْخ واتخذوا بُخارى عاصمة لهم ، وكانوا فى عصرهم الذهبى أصحاب النفوذ والسلطان بالمشرق كله ، ثم تقلص ظلهم فشمل خراسان وماوراء النهر وحدها . وإذا كانوا قد جدوا فى تشجيع الأدب الإيرانى ، وكانت الفارسية لغتهم الرسمية فى أكثر سنوات ملكهم ، فإنهم جمعوا فى قصورهم كتاب العربية كما جمعوا كتاب الفارسية ، واجتذبت عاصمتهم بخارى كثيرا من العلماء

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ١/٢٩٤ .
(٢) مهذب الرحلة ١/٢٩٨ .
(٣) هكذا آثرت كلمة مئة ومركباتها .
(٤) مهذب الرحلة ١/٣٠٩ .

والشعراء ، وكانوا حماة لأهل السنة — إلا فى نحو أربعين سنة من القرن العاشر الميلادى — ففى عهدهم ألف كتاب فى العقائد باللغة العربية لوقاية الشعب من الرافضة ، ثم ترجم إلى الفارسية ، وترجم تفسير الطبرى إلى الفارسية ، كما ألف بها تفسير آخر ، وأفتى الناس بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية[1] .

ثم قضى محمود بن سبكتكين الغزنوى على دولتهم سنة ٣٨٩هـ[2] .

وثانيتها الدولة السلجوقية العظمى[3] من سنة ٤٢٩ إلى ٥٥٢هـ (١٠٣٧ — ١١٥٧م) التى امتلكت خوارزم سنة ٤٣٤ هـ ثم خراسان وبلاد الرىّ وأصبهان وأذربيجان ، وكان نفوذ البويهيين قد انحسر عن بغداد ، فتقدم طغرلبك إليها ودخلها بغير حرب سنة ٤٤٧ هـ ، وقبض على آخر سلاطين بنى بويه ، ومن هذا التاريخ قامت الدولة بالعراق وماوراءه .

وهى تنقسم إلى خمسة بيوت ، يهمنا منها البيت الأول ، وملوكه هم السلاجقة العظام الذين ملكوا خراسان والرى والجبل والعراق والجزيرة وفارس والأهواز، وقد قامت من سنة ٤٢٩ إلى ٥٢٢هـ (١٠٣٧ — ١١٢٨م) وعاصر الزمخشرى من ملوكها :

١ — عضد الدين أبو شجاع ألب أرسلان — ٤٥٥ — ٤٦٥هـ

٢ — جلال الدين أبو الفتح ملكشاه — ٤٦٥ — ٤٨٥هـ

٣ — ناصر الدين محمود — ٤٨٥ — ٤٨٧هـ

٤ — ركن الدين أبو المظفر بركيا روق — ٤٨٧ — ٤٩٨هـ

٥ — ركن الدين ملكشاه الثانى — ٤٩٨ — ٤٩٨هـ

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٨ بارتولد .

(٢) وفيات الأعيان ٤/٢٤٥ .

(٣) الدولة العباسية ٤١٢ للخضرى . وكانت للسلاجقة دول غيرها أقل منها شأناً .

٦ — غياث الدين أبو شجاع محمد — ٤٩٨ — ٥١١

٧ — معز الدين أبو الحارث سنجر — ٥١١ — ٥٢٢

ثم انقضت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم .

ويرتبط تاريخ هذه الدولة باسم وزيرها العظيم نظام الملك الذى استوزره ألب أرسلان ، واستعان به فى إدارة ملكه ، ثم استوزره ابنه جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ، فقام بالتدبير والإصلاح خير قيام ، وبفضله اتسع نفوذ جلال الدين، فخطب له من حدود الصين شرقا إلى آخر الشام غربا ، وازدهرت الآداب والفنون ، وازدانت المدن بالمدارس والمستشفيات . وكان جلال الدين سلطانا عادلا شجاعا متدينا ، وكان وزيره عالما جوادا مشغوفا بالعلم معظما للعلماء ، وهو الذى أمر بألا يلعن الأشعرية والرافضة على المنابر ، إذ كان الوزير عميد الملك الكندرى قد زين للسلطان طغرلبك لعن الرافضة ، فأمر بذلك ، فأضاف إليهم الأشعرية ، ففارق كثير من العلماء بلادهم ، مثل إمام الحرمين وأبى القاسم القشيرى ، ولم يكتف نظام الملك بإلغاء ذلك ، بل أعاد العلماء إلى أوطانهم[1] .

ثم قتل الوزير سنة ٤٨٥ هـ ، ومات السلطان بعده بنحو شهر ، فأفلت شمس آل سلجوق ، ونشبت الفتن بين كبارهم ، وحكموا السيوف فيما بينهم ، فكانت النتيجة سقوط دولتهم ، وقيام الدولة الخوارزمية .

أما الدولة الثالثة التى حكمت خوارزم فهى الدولة الخوارزمية التى نشأت إمارة (أتابكية) فى خوارزم ، وجعلت تتقوى وتتوسع ، على حين أن الدولة السلجوقية تضعف وتضيق ، فلما سقط السلاجقة خلفهم الخوارزميون ، وضموا تحت لوائهم الأقاليم التى كان يحكمها السلاجقة .

(١) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٦ ، ٧١ .

وهذه الدولة تنتسب إلى نوشتكين أحد الأتراك فى بلاط ملكشاه السلجوقى .

أما مؤسسها الحقيقى فهو ابنه محمد [١] الذى عينه أحد قواد السلطان بركيا روق السلجوقى (٤٨٧ — ٤٩٨ هـ) حاكما على إقليم خوارزم ، ولقبه خوارزم شاه . وقد جعلت هذه الدولة الناشئة تمتد وتقوى منذ أتسز بن محمد بن نوشتكين ، ثم تصارع سنجر السلجوقى وأتسز صراعا استمر حتى توفى اتسز سنة ٥٥١ هـ (١١٥٦م) وتوفى سنجر بعده بعام ، وكانت وفاة سنجر نهاية للسلاجقة فى فارس وخراسان ، فلم يجد الخوارزميون بعده من يعوق طموحهم أو يحتجز اتساعهم ، فاستطاع إيل أرسلان بن أتسز أن يبسط سلطانه على غربى خراسان . ثم امتدت الدولة غربا فى عهد تكش خوارزم شاه ، وصار لها نفوذ على أمراء العراق ، واستعان الخليفة العباسى الناصر لدين الله بتكش على طغرلبك آخر السلاجقة فى بغداد ، فرحب تكش بهذه الفرصة المواتية ، والتقى جيشه بالجيش السلجوقى عند الرى سنة ٥٩٠ (١١٩٣م) وانجلت المعركة عن انتصار تكش ، وعن قتل طغرلبك .

وحينئذ بسطت الدولة الخوارزمية سلطتها على الأقاليم العراقية التى كانت للسلاجقة ، فاحتل تكش همذان عاصمة سلاجقة العراق سنة ٥٩٠ هـ واحتل أصفهان والرى . ثم حارب دولة (الخطا) شرقا ، واستولى على إحدى مدنهم المهمة وهى بخارى سنة ٥٩٤ (١١٩٧ م) . وفى عهد ابنه علاء الدين محمد تم اقتطاع مدينتى بلخ وهراة من الدولة الغورية سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) كما نجح فى هزيمة دولة (الخطا) سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) فاستولى على بلاد ما وراء النهر ، ثم مد نفوذه إلى إقليم كرمان وإقليم مكران وإلى الأقاليم التى غربى نهر السند ، وبهذا طوق غزنة عاصمة الدولة الغورية ، واحتلها سنة ٦١٢هـ (١٢١٥م).

(١) الدولة الخوارزمية والمغول ١٩ وسلاجقة إيران والعراق ١١٨.

كان الخوارزميون يتطلعون إلى تكوين دولة إسلامية عظيمة ترث الدويلات الإسلامية والإمارات المتناثرة المفككة ، وقد تم لهم النصر على السلاجقة سنة ٥٩٠ هـ فسيطروا على العراق العجمى ، وحكموه من قبل الخليفة العباسى ، وطالبوا الخليفة بأن يحل اسمهم فى خطبة الجمعة محل أسلافهم السلاجقة ، وأن ينقش اسمهم إلى جوار اسم الخليفة على النقود ، ثم طلب تكش من الخليفة الناصر أن يعيد دار السلطنة فى بغداد إلى ما كانت عليه أيام السلاجقة فلم يستجب الناصر لهذه المطالب .

فلما تولى علاء الدين محمد العرش بعد أبيه تكش أعد العدة لغزو بغداد [١] سنة ٦١٤ (١٢١٧) فتأهب الناصر لصده ، وساعدته عوامل عدة على النجاة من هذا الغزو ، وفى الوقت نفسه كان سيل المغول يكتسح ما أمامه .

وإذاً فقد خلف الخوارزميون السلاجقة على فارس وخراسان والعراق ، وخلفوا الغوريين ، واستولوا على بلاد ما وراء النهر .

أما عاصمتهم فكانت تارة مرو — عاصمة خراسان — وتارة سمرقند — عاصمة بلاد ماوراء النهر — وحيناً أصفهان كبرى مدن العراق العجمى .

وامتد حكم هذه الدولة من سنه ٤٩١ إلى ٦٢٨ هـ (١٠٩٧— ١٢٣٠ م) ، وقد فاجأها المغول فى عهد ملكها علاء محمد شاه ففر منهم ومات سنة ٦١٧ هـ . وفى السنة نفسها هجموا على خوارزم ، فتولى الدفاع بعده ابنه جلال الدين منكبرتى ، وقاومهم فى بسالة وبطولة إلى أن لقيهم فى قلة من رجاله ، فلما أيقن أنه لابد من أن يقتل أو يؤسر ألقى بنفسه من مرتفع على شاطىء نهر السند ، وهو على صهوة جواده لينجو فيلقاهم من جديد ، فضرب بهذا الصنيع مثلا رائعاً للبطولة والفداء ، ومازال يقاومهم بعد ذلك حتى انتهت دولته سنة ٦٢٨ هـ [٢] .

(١) لهذا الغزو أسباب منها أن علاء الدين اعتنق المذهب الشيعى واجتهد فى إسقاط الخلافة العباسية من بغداد وإقامة خلافة علوية مكانها .

(٢) سيرة جلال الدين منكبرتى ١٦٠ .

كان الوزراء فى الدولة الخوارزمية ينالون من السلاطين أعظم التقدير ، فيجلسونهم عن أيمانهم فى المحافل العامة ، وكان الوزير الذى يلقب بنظام الملك لايقف لمن يدخل عليه وهو فى دست الوزارة مهما تكن مكانته، إجلالا المنصب لأنه قائم مقام السلطان .[١]

وكثيرا ما عهدوا بحكم الأقاليم أو المدن إلى حكام أطلقوا على كل منهم لقب وزير[٢] ، فلما قوى نفوذ الأتراك صار الوزراء أكثر حرية ،فاستأثروا بثروات الأقاليم ، وتمردوا على السلاطين .

أما سلاطين الدولة فهم ثمانية[٣]، وأما السلاطين الذين عاصرهم الزمخشرى فهم :

١ — نوشتكين من ٤٧٠ إلى ٤٩٠ هـ (١٠٧٧ — ١٠٩٦ م)

٢ — قطب الدين محمد « ٤٩٠ — ٥٢١ هـ (١٠٩٦ — ١١٢٧ م)

٣ — أتسز « ٥٢١ — ٥٥١ هـ (١١٢٧ — ١١٥٦ م)

ومن هذا يتبين أن الزمخشرى عاصر تأسيس الدولة ، وأدرك ثلاث عشرة سنة من عهد أتسز ، لأن الزمخشرى عاش فيما بين سنة ٤٦٧ و٥٣٨ هـ ،فلم يدرك سقوط آل سلجوق وقيام الخوارزميين مقامهم ، إذ كانت نهاية السلاجقة سنة ٥٥٢ هـ .

(١) سيرة جلال الدين منكبرتى ١٨٦ .
(٢) المرجع السابق ٢٤٠ ، ٢٤٧ .
(٣) الدولة العباسية ٤٥١ الخضرى ، وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ١ ، والدولة الخوارزمية والمغول ٢٧٣ .

(٣) الحياة الثقافية

ما كادت أقاليم خراسان وخوارزم وما وراء النهر وغيرها تخضع للحكم العربى حتى جعلت تستعرب، وتكاثرت فيها بذور اللغة العربية والأدب والعلوم الإسلامية ، وسرعان ما نبتت وبسقت فروعها ، وأينعت ثمارها .

فلا غرابة فى أن كثر العلماء والمؤلفون والأدباء فى خوارزم ، لأنها بيئة كثيرة الخيرات ، ومنتجع الوافدين الذين يطمئنون إلى طيب المقام ، ولأن أهليها أقبلوا على الإسلام بشغف ، ونشطوا أيما نشاط فى تعلم اللغة العربية لغة القرآن والحديث ، وهما مصدرا الشريعة ومنبعاها ، فلما كانت النهضة العلمية والأدبية فى العصر العباسى ازدادوا ركضا فى ميادين الثقافة العربية .

وكان نشاطهم العلمى والأدبى مقرونا بالغيرة على الإسلام ، والحرص على تعاليمه ، والحفاظ عليه من أعدائه المحيطين بهم .

ثم إن المدارس كانت كثيرة فى الإقليم ، وكان العلماء والمؤلفون والمدرسون جادين فى التعليم والتثقيف والتأليف ، وكانت المكتبات العامة عديدة ، والحكام حراصاً على تشجيع الحركة الفكرية ، كلفين بتقريب الشعراء إليهم ، ليضيفوا إلى ملكهم هيبة وجمالا ، ولينافسوا سلفهم وجيرانهم من السلاجقة وغيرهم فى الجاه وحسن الأحدوثة وبعد الصيت .

ولأهل خوارزم اتجاه فى التفكير اشتهروا به ، فقد وصفهم المقدسى بأنهم أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب ، وقال إننى قلما لقيت إماما فى الفقه والقرآن والأدب ليس له تلميذ من خوارزم[١] .

(١) أحسن التقاسيم ٢٨٤ .

(أ) في خوارزم

وإذا أردنا أن نختص خوارزم وحدها بالنظرة السريعة وجدناها تموج بالعلماء والأدباء، منذ عاش هنالك أخلاط من الفرس والعرب والترك، ومنذ أقامت الدولة الخوارزمية ملكها على أنقاض السلاجقة في فارس والعراق وخوارزم، وعلى أنقاض الدولة الغورية في غَزْنة، وامتلكت ماوراء النهر، فورثت ثقافات هؤلاء جميعا.

ولقد شجع الخوارزميون الأدباء والعلماء، فازدانت دولتهم بكثير منهم، ويذكر النسوى — وهو الكاتب المؤرخ الذي خالطهم وعمل في دولتهم — أن سلاطينهم عمروا قصورهم بالشعراء والكتاب والعلماء من فرس وعرب، وقربوهم إليهم، وأغدقوا عليهم، كما فتحوا المدارس، وشجعوا الوعاظ، على الرغم من أن بعضهم مثل السلطان محمد بن تكش كان تركيا قليل المعرفة باللغة العربية [1].

ويذكر أن الدولة كان لها ديوان إنشاء وعَرْض، وأن هذا الديوان كان أرفع رتبة من ديوان الطُّغراء عند السلاجقة، وكان له رئيس ويتبعه كتاب يلقب كل منهم بنائب [2].

أما إنتاج هؤلاء الأدباء والعلماء فإنه كان بالعربية وبالفارسية، فمن الذين أنتجوا بالفارسية زين الدين أبو إبراهيم إسماعيل بن حسن الجرجاني — عاش في ظلالهم من سنة ٥٠٤ إلى ٥٣١هـ — وألف كتابا في الطب سماه ذخيرة خوارزم شاه، ومنهم رشيد الدين محمد عبد الملك البلخي الملقب بالوطواط المتوفى بخوارزم

(١) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ٥١، ٢٠٤، ٢٠٨.
(٢) المرجع السابق ٥٧، ١٩٤، ٢٥١.

سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) كان رفيقا وصديقا للسلطان أتسز، وكان شاعر البلاط في عهده، وفي عهد إيل أرسلان وابنه علاء الدين تكش، وهو مؤلف كتاب (حدائق السحر في دقائق الشعر) وهو من تلاميذ أبي سعد آدم بن أحمد الهروي [1].

ومنهم محمد بن قيس الذي كان في عهد علاء الدين خوارزم شاه، وألف كتاب (المعجم في معايير أشعار العجم) لأبي المظفر خوارزم شاه.

وبعضهم برع في الإنتاج بالعربية والفارسية مثل الوطواط، الذي كان أفضل زمانه في النظم والنثر، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب وأسرار النحو والأدب، وكان ينشيء في حالة واحدة بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر، ويمليهما معا. وله ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية، ومؤلفات أخرى، ومن رسائله ما كتبه لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري:

لقد حاز جار الله — دام جماله — فضائلَ فيها لايُشَقُّ غبارُهُ
تجدد رَسْمُ الفضل بعد اندثاره بآثار جار الله فالله جاره

ثم أتبع البيتين رسالة نثرية، يثني فيها على الزمخشري، ويود أن يكون من تلاميذه [2].

ومن هؤلاء نصرة الدين حمزة بن محمد بن عمر، كان يحفظ سقط الزند لأبي العلاء المعري، واليميني للعتبي، والملخص لفخر الدين الرازي، والإشارات لابن سينا، وله بالعربية والفارسية أشعار مدونة، وأما ترسله فالسحر الحلال والعذب الزلال [3].

(١) معجم الأدباء ١/١٠٣ و ١٩/٢٩.
(٢) معجم الأدباء ١٩/٢٩.
(٣) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ١٨٧.

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن حيدر بن على الخوارزمى (ولد سنة ٥٥٩) ، له من التصانيف كتاب ديوان الأنبياء ؛ وكتاب شرح كليلة بالفارسية ، وكتاب الوسائل إلى الرسائل (من نثره) وديوان شعر بالفارسية ، وكتاب الخطب فى دعوات ختم القرآن ، سماه يقيمة اليتيمة ، وكتاب الطرفة فى النحو بالفارسية وغيرها (١) .

ومنهم محمد النَّسَوى — نسبة إلى مدينة نَسا بخراسان — الذى كان كاتب الإنشاء للسلطان جلال الدين منكبرتى . ثم وزيرا له فى مدينة نسا ، وهو مؤلف أدق كتاب فى سيرة جلال الدين .

وكان ثمة علماء وأدباء تفوقوا فى الإنتاج بالعربية مثل أبى بكر محمد بن العباس الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) وهو شاعر ناثر عالم ، كان يحاضر بأخبار العرب وأيامها وأشعارها ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر (٢) .

ومثل أبى سعيد الشبيبى القارس الأديب ، كان فى أيام شبابه بخوارزم يقول شعرا جاسيا ، فلما عاشر الناس ، ولقى الأدباء لطف طبعه ، ورق شعره ، وقد اختص بالدولة السامانية والدولة البويهية فسمى صاحب الجيشين وشيخ الدولتين (٣) .

ومثل أبى محمد عبد الله بن إبراهيم الزّقاشى من أبناء الوزراء بمدينة خوارزم ، وكان مثل كشاجم كاتبا شاعراً منجما (٤) .

ومثل أبى الحسين أحمد بن محمد السّهيلى الخوارزمى (المتوفى سنة ٤١٨ هـ ١٠٢٧ م) كان من أجلة خوارزم ، وبيته بيت رياسة ووزارة وكرم ومروءة ،

---

(١) معجم الأدباء ١٥/٢ ، وسلم الوصول ٣٢/١ .
(٢) يتيمة الدهر ١١٤/٤ .
(٣) يتيمة الدهر ١٥٤/٤ .
(٤) اليتيمة ١٥٧/٤ .

وكان يجمع بين آلات الرياسة وأدوات الوزارة ويضرب فى العلوم والآداب بالسهام الفائزة ، وله كتاب الروضة السُّهيلية فى الأوصاف والتشبيهات ، وبمشورته صنف الحسن بن الحارث الحَسُّونى فى المذهب كتاب السُّهيلى يذكر فيه المذهبين مذهب الشافعى والحنفى . خرج من خوارزم سنة ٤٠٤ إلى بغداد وتوطنها ، وترك وزارة خوارزم شاه أبى العباس مأمون خوفا من شره (١) .

ومثل الإمام أبى عبد الله محمد بن أحمد الحوفى (حوالى ٤٤٤ هـ) من تلامذة الشيخ أبى حامد الإسفراينى ، تفقه عليه ببغداد ، وبيته بيت كبير ، قال صاحب الكافى فى تاريخ خوارزم إن بيته معمور بالعلماء منذ نحو مئتين وخمسين سنة ، وأطال فى ترجمته (٢) .

ومثل أبى القاسم محمود بن عبد العزيز العارضى الخوارزمى الملقب بشمس الدين (٥٢١ هـ — ١١٢٧ م) كان من أفضل الناس فى عصره فى علم اللغة والأدب ، وتخطى إلى الفلسفة فصار مفتونا بها ، وكان يطالع الفقه ويناظر فى مسائل الخلاف ، سمع الحديث من أبى نصر القشيرى وغيره ، وأملى طرفا منه وشرحه .

وكان الزمخشرى يدعوه الجاحظ الثانى ، لكثرة حفظه وفصاحة لفظه .

أقام مدة بخوارزم مكرما فى خدمة خوارزم شاه ، ثم ارتحل إلى مرو ، فمات بها (٣) .

ومثل أبى على الحسن بن المظفر الشاعر المصنف الذى كان مؤدب أهل خوارزم فى عصره ومخرجهم وشاعرهم ومقدمهم ، وهو شيخ أبى القاسم الزمخشرى قبل أبى مُضَر ، ومن مصنفاته التى رآها ياقوت : تهذيب ديوان الأدب ، تهذيب

---

(١) معجم الأدباء ٣١/٥ .
(٢) طبقات الشافعية ٤٨/٣ .
(٣) معجم الأدباء ١٢٦/١٩ .

إصلاح المنطق ، ديوان شعره ، ديوان رسائله، زيادات أخبار خوارزم[١] .

ومثل أبي الحسن على بن عراق الصّنّارى (المتوفى سنة ٥٣٩هـ — ١١٤٤م - بمُذانة وهى قرية من قرى خوارزم) كان نحويا لغويا عروضيا فقيهاً مفسراً مذكوراً ، درس بخوارزم وبخارى ، وصنف كتاب شماريخ الدرر فى تفسير القرآن[٢] .

ويكفى للدلالة على كثرة العلماء وتقديرهم ماذكره النسوى فى سيرة السلطان محمد بن تكش ، وهو أنه سير إلى خوارزم برهان الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز البخارى المعروف بصدر جهان ، رئيس الحنفية ببخارى وخطيبها المقدم ، وكان فى جملة من يعيش فى ظل برهان الدين وإدارة سلفه ما يقارب ستة آلاف فقيه ، وكان كريما يقصده العلماء والفضلاء[٣] .

وقد سارت طريقة التأليف فى خوارزم على غرار الطريقة فى البلاد العربية ، ففى النحو والصرف والعروض لم تخرج عماسنه المؤلفون فى العراق والشام ومصر والأندلس، وفى اللغة سلكت الاتجاهين المعروفين، وهما تأليف المعاجم على ترتيب الألفاظ كما نجد فى أساس البلاغة للزمخشرى ، أو تأليف المعاجم على حسب المعانى كما نجد فى قسم الأسماء من (مقدمة الأدب) للزمخشرى .

وأما فى البلاغة فقد تميز الخوارزميون بما تميزبه المشارقة بعامة ، وهو التأثر بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، على حين أن أهل العراق والشام ومصر والأندلسيين والمغاربة تأثروا بالمذهب الأدبى .

وإذا كان مذهب المشارقة قد اتضح عند الزمخشرى والرازى والمطرزى

(١) معجم الأدباء ١٦١/٩ .
(٢) معجم الأدباء ٦٣/١٤ .
(٣) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ٦٨ .

والسكاكى وأشباههم ، فإنه كان أقدم منهم ، إذ برزت معالمه فى كتابَىْ أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ، وهو متكلم على مذهب الأشعرى ، ولكنه يمتاز بنزوعه الأدبى وذوقه المرهف عن الذين خلفوه ، فصيروا البلاغة علما جافا تعوزه نفحة الأدب ورفيف الجمال .

ويظهر أن طول ممارستهم للفلسفة والعلوم العقلية جعلهم يحفلون بدراسة البيان والمعانى أكثر مما يحفلون بدراسة الألفاظ وفنون البديع .

وقد تنبه ابن خلدون إلى عناية المشارقة بالبيان والمعانى فقال :[١] « والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق فى الشرح والتعليم أكثر من غيره ، وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة ، وسببه — والله أعلم — أنه كمالى فى العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد فى العمران ، والمشرق أوفر عمرانا من المغرب كما ذكرناه ، أو نقول لعناية العجم — وهم معظم أهل المشرق — كتفسير الزمخشرى ، وهو كله مبنى على هذا الفن، وهو أصله، وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة ، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، وفرعوا له ألقابا ، وعدوا أبوابا ، ونوعوا أنواعا ، وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ ، وأن علم البديع سهل المأخذ ، وصعبت عليهم مآخذ البلاغة — يريد علم المعانى — والبيان لدقة أنظارهما ، وغموض معانيهما ، فتجافوا عنهما » .

والمشارقة أصحاب السبق إلى تقسيم علوم البلاغة إلى بيان ومعان وبديع .

ولأهل خوارزم بخاصة الفضل فى هذا المجال منذ الزمخشرى والسكاكى[٢] إلى اليوم .

(١) مقدمة ابن خلدون ١٢١٥ .
(٢) السكاكى : أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر ، من أهل خوارزم ، علامة فى العربية والمعانى والبيان والأدب والعروض والشعر ، متكلم فقيه . ولد سنة ٥٥٤ هـ وتوفى سنة ٦٢٦ هـ وصنف مفتاح العلوم فى اثنى عشر علماً (معجم الأدباء ٥٨/٢٠) .

وعلى الرغم من أن السبكى من أصحاب المذهب الأدبى فى دراسة البلاغة فقد أشار بفضل المشارقة ، وتهيج نهجهم ، وهذا واضح فى قوله : « وأما أهل المشرق الذين لهم اليد الطولى فى العلوم ولاسيما العقلية والمنطق ، فاستوفوا هممهم الشامخة فى تحصيله ، واستولوا بجدهم على جملته وتفصيله ، ووردوا مناهل هذا العلم فصدروا عنها بملء سَجْلهم . وكيف لا ؟ وقد جلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ، فلذلك عمروا منه كل دارس ، وعمروا من حصونه المشيدة ما رقد عنه الحارس ، وبلغوا عنان السماء فى طلبه [(١)] » .

وهكذا كانت خوارزم ثرية بعلمائها وأدبائها قبل الزمخشرى وبعده ، فلما اجتاحها التتار سنة ٦١٨ هـ (١٢٢٠ م) دمروها ، وبددوا كثيرا من نفائسها وذخائرها ، لكن الحياة العلمية والأدبية لم تنقطع .

ثم تناوبتها الأحداث ، حتى امتلكتها دول أخرى فأسدلت الأستار على ماض مشرق وتراث عظيم .

المعتزلة

كانت العراق وفارس وخراسان وما جاورها من البلاد الفارسية ، ملأى بالشيعة [(٢)] ، وكان المعتزلة كثرة فى هذه الأقاليم ، وكانوا الأكثرين فى كل إقليم يحكمه الشيعة ، ولهذا انتشر مذهبهم بالعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر ، وعلا صوتهم منذ قامت الدولة البويهية سنة ٣٣٢ (٩٤٣م) ذلك أن الناس فى تلك البلاد كانوا على مذهب السنة والجماعة ، فلما آل الحكم إلى بنى بويه — وهم من غلاة الشيعة — ناصروا التشيع وآزروا الشيعة ، وفى سنة ٣٥٢هـ أمر معز الدولة الناس أن يحتفلوا فى العاشر من المحرم بذكرى قتل الحسين ،

(١) عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح ١/٥ .
(٢) راجع أدب السياسة فى العصر الأموى للمؤلف ٣٤ .

فأغلقت الحوانيت ، وخرجت النساء مسودات الوجوه منشورات الشعور ، يلطمن وجوههن على شهيد كربلاء .

وفى الثامن عشر من ذى الحجة أمر بإظهار الزينة فى البلاد ليلا ونهاراً احتفالا بعيد الغدير [(١)] . وكان من أنصارهم الكبار الصاحب بن عباد الذى تولى الوزارة لفخر الدين البويهى من ٣٦٧ إلى ٣٨٥ هـ ، فقرب المعتزلة وآثرهم بالمناصب العالية [(٢)] .

ثم ذاع الاعتزال واستقر بالمشرق ، حتى لقد كان أكثر الشيعة ، فى بلاد العجم معتزلة ، وأكثر فقهائهم على الاعتزال ، وكثيراً ماوقعت المشاحنات بين العامة بسبب ذلك [(٣)] .

وهم كثير ، منهم بالقرب من خوارزم أبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخى ، المعروف بالكعْبِى (٢٧٣ — ٣١٩ هـ) كان من كبار المعتزلة ودعاتهم ، وانتهت رياستهم إليه وإلى أبى على الجبائى وأبى بكر بن الإخشيد ، كما ذكر ابن حزم فى كتابه الفصل . دخل (نَسَف) فأكرمه أهلها إلا الحافظ عبد المؤمن ابن خلف .

(١) الغدير : غدير خم ، وهو موضع بين مكة والمدينة على ثلاثة أميال من الجحفة ، به ماء كثير وحوله شجر كبير ، يروى الشيعة عن البراء بن عازب أنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فنزلنا بغدير خم ، فأمر بتنظيف مكان بين الأشجار الملتفة بالغدير استعداداً لإقامة الصلاة ، ثم نادوا الصلاة جامعة ، فصلينا الظهر . ثم أخذ النبى بيد على ابن أبى طالب فقال : ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قلنا : بلى ، فقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار . ألا هل بلغت ؟ قالها ثلاثاً .

والشيعة يتخذون من هذا اليوم عيداً . وأول من اتخذه معز الدولة البويهى ، ثم جعله الفاطميون عيداً فى مصر منذ سنة ٣٦٢ هـ حينما قدم المعز إليها (الملل والنحل ١/١٤٤) .

(٢) معجم الأدباء ٦/٢٢٥ .

(٣) أحسن التقاسيم ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤٣٩ .

وهو صاحب فرقة من من المعتزلة سماها ابن النديم [١] الباخية ، وسماها الشهرستانى الكعبية . [٢]

وقد وصفه أبو حيان التوحيدى بقوله : ناهيك به عالما وراويا وثقة [٣] .
والمؤرخون متفقون على أن نجم المعتزلة بدأ يأفل منذ تولى الخليفة المتوكل سنة ٢٣٢ ﻫ (٨٤٦ م) لأنه اضطهدهم ، وعزل قضاتهم ، وصادر أملاكهم ، وسجن كثيراً من رجالهم ، فضعف شأنهم ، وسخر الناس بهم ، كقول أبى العتاهية فى الشماتة بأحمد بن أبى دُؤاد لما عزله المتوكل وصادر ضياعه :

لو كنت فى الرأى منسوباً إلى رَشَدٍ وكان عزمك عزماً فيـــه توفيقُ
لـكان فى الفقه شُغْلٌ لو قنِعْتَ به عن أن تقول كلامُ الله مخـــلوق
ماذا عليك وأصـلُ الدين يجمعهم ما كان فى الفرع لولا الجهل والموق [٤]

ويقول ابن خلـكان إنهم انقمعوا منذ تولى المتوكل، فلما ظهر أبو الحسن الأشعرى سنة ٣٣٣ ﻫ ازدادوا انقماعا ، لأنه كان معتزليا فانشق على المعتزلة ، وفند كثيراً من آرائهم ، والتزم حدا وسطا بين السنية والمعتزلة ، فلم يكن يعول على المنقول وحده كأهل السنة ، ولا على العقل وحده كالمعتزلة ، حتى ليعبر أبو بكر الصيرفى عن هذا بأنهم كانوا قد رفعوا رءوسهم ، فلما أظهر الله الأشعرى حجرهم فى أقماع السمسم [٥] .

ولـكن خوارزم مع هذا كله كانت تموج بالاعتزال ، حتى لينذر أن نجد خوارزميا ليس معتزلياً ، فإن كان غير معتزلى وأراد أن ينفى الاعتزال عن

(١) لسان الميزان ٣/٢٥٥ .
(٢) الملل والنحل ١/٧٣ .
(٣) البصائر والذخائر ١/١٤٣.
(٤) تاريخ الطبرى ١١/٤٦ ، الموق : الحمق .
(٥) وفيات الأعيان ٢/٤٤٧ .

نفسه أكد نفيه ، كما نجد فى وصف ياقوت للقاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمى : « سألته عن مولده فقال : مولدى سنة خمس وخمسين وخمس مئة . وحضرت فى منزله بخوارزم فرأيت منه صدرا يملأ الصدر [١] ، ذا بهجة سنية وأخلاق هنية ، وبشر طليق ، ولسان ذليق ، فملأ قلبى وصدرى . . . . ورأيته شيخا بهى المنظر ، حسن الشَّيبة كبيرها . . . . وقلت له : ما مذهبك ؟ فقال حنفىٌّ ، ولـكن لست خوارزميا ، لست خوارزميا يكررها ، إنما اشتغلت ببخارى ، فأرى رأى أهلها ، نفى عن نفسه أن يكون معتزليا » [٢] .

وقد جعل الزمخشرى اعتزال الخوارزميين أعظم فضائلهم [٣] ، وهو صادق فى هذا الحـكم ، لأن الاعتزال شاع بينهم ، حتى إن عوامهم يدينون بأن القرآن مخلوق [٤] .

القضـاء

كانت الغلبة فى خوارزم لمذهب أبى حنيفة ، وكان لـكن مدينة قاض يفصل بين الناس وفق الشريعة الإسلامية ، فإن كانت المدينة كبيرة وبها مذاهب متعددة عين الخوارزميون قضاة بعدد المذاهب ، وهؤلاء القضاة كانوا يقومون أيضاً بتدريس العلوم الدينية فى المساجد والمدارس [٥] .

وذكر ابن بطوطة فى وصفه لأمير خوارزم (قُطلو دُمُور) [٦] أن من

(١) يريد رياسة وتقدماً يملأ القلب .
(٢) معجم الأدباء ١٦/٢٣٨ .
(٣) ربيع الأبرار للزمخشرى الباب التاسع مخطوط .
(٤) أحسن التقاسيم ٣٩٥ ، ٤١٥ .
(٥) سيرة جلال الدين منكبرتى ٧٧ .
(٦) ضبطها بضم القاف وسكون الطاء وضم اللام ، وضم الدال والميم ، وقال : إن معنى الكلمة الأولى المبارك ومعنى الثانية الحديد ، فاسمه إذاً الحديد المبارك ، وقال : إنه ابن خالة السلطان المعظم أوزبك وأكبر أمرائه وواليه على خراسان .

عاداته أن يأتى القاضى كل يوم إلى مجلسه ومعه الفقهاء وكتابه ، ويجلس فى مقابلة أحد الأفراد الكبراء ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم ، ويتحاكم الناس إليهم ، فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضى ، وما كان من سواها حكم فيه أولئك الأمراء . وأحكامهم مضبوطة عادلة لأنهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة[1] .

ب — فى الإقليم كله

لكن خوارزم لم تكن فى عزلة عن الحياة العلمية والأدبية فى المنطقة كلها ، ولا سيما الأقاليم المصاقبة لها ، إذ كانت هذه المنطقة موحدة الحكم فى عهد العرب البويهيين والسامانيين والسلاجقة ، وكانت تياراتها الثقافية تجرى هنا وهناك بين مجتمع من الفرس والعرب والترك[2] .

وإنه ليسترعى الانتباه أن الإقليم الذى كان فارسيا واستعرب خرّج مئات من الشعراء والكتاب واللغويين والنحاة والفقهاء والمفسرين والمحدثين .

وإذا كان البويهيون قد ذاع صيتهم بتقدير العلماء والأدباء فإن السامانيين كانوا مثلهم ، فكان نوح بن منصور السامانى يقدر العلماء ، ويؤثر استخدامهم فى شئون الدولة ، ولما سمع بشهرة الصاحب بن عباد وزير آل بويه كتب إليه يستدعيه إلى بخارى ليفوض إليه وزارته وتدبير مملكته ، فاعتذر الصاحب بأنه يحتاج إلى أربع مئة جمل لنقل كتبه .

واشتهر وزيران من وزرائهم بشغفهما بالأدب والعلم ، أحدهما أبو الفضل

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ١/٣٠٠ .
(٢) كثر العرب هناك منذ الفتح ، وكثر الترك وعظم نفوذهم منذ عهد المعتصم ، ثم توالت هجراتهم وكان السلاجقة من ثمار بعضها .

ابن عبيد الله البَلْعَمِى الذى كان وزيرا لمنصور بن نوح السامانى ، وهو الذى ترجم تاريخ الطبرى إلى اللغة الفارسية ، والآخر أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى ، الذى كان وزيراً للملك السابق ، وكان يكرم قصاده ويعين مؤمليه[1] ، فشجع هذان الوزيران العلم والأدب فى بخارى كما شجعهما أبو الفضل بن العميد والصاحب بن عباد فى الرى ، فكان فى قصر الصاحب بأصبهان والرى وجرجان عشرات من ذوى العلم والأدب ، مثل أبى الحسين السلامى وأبى بكر الخوارزمى وأبى طالب المأمونى وأبى الحسن البديهى وأبى سعيد الرستمى وأبى القاسم الزعفرانى وأبى العباس الضبى وأبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى وبنى المنجم وأبى الفضل الهمذانى وغيرهم[2] ، وقصده كثير من الأدباء من جهات شتى .

ثم كان السلاجقة أعظم رعاية للعلوم والآداب ، بفضل الوزير نظام الملك الذى وزر لألب أرسلان (٤٥٥ — ٤٦٥ هـ) ولابنه أبى الفتح ملكشاه (٤٦٥ — ٤٨٥) ، وهو عالم دَرَس الحديث وعلوم السنة فى طوس ، وكان ينقب عن الممتازين منهم ، ويبنى لهم مدارس ليتعلموا بها ، ويقف عليها الأوقاف ، وينشئ فى كل منها مكتبة ، ويرتب للعلماء ما يكفيهم حتى يفرغوا للتعليم ونشر الثقافة بين الناس ، ولما كثرت الأموال فى خزانة الدولة خصص فيها لأرباب العلوم حقوقا لا تؤخر ، وصير هذه الحقوق ثابتة لهم وميراثا لأبنائهم[3] ، وإليه تنسب المدارس النظامية التى أنشأها فى أمصار شتى لتعليم الحديث .

ويذكر العماد الأصفهانى أن الآباء كانوا يترددون بأبنائهم النجباء على

(١) معجم الأدباء ١٧/١٥٧ .
(٢) يتيمة الدهر ٣/٣٢ .
(٣) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٦ ، ٧١ وتاريخ آل سلجوق ٥٤ .

مجلسه ، لأنه كان يتفرس فى وجوههم ، فيرشح كلا منهم للمنصب الذى يلائم رشده وكفايته واستعداده (١) .

المكتبات

ولا شك أن رعاية الثقافة تقتضى عناية بالكتب والمكتبات على النحو الذى نجده فى وصف ياقوت لمدينة مرو وتقديره لكتبها التى انتفع بها فى مؤلفاته « فيها عشر خزائن للوقف ، لم أر فى الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها خزانتان فى الجامع، إحداهما يقال لها العزيزية، فيها اثنا عشر ألف مجلد، والأخرى يقال لها الكمالية .

وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلى منها مئتا مجلد أكثرها بدون رهن . . . . .

وقد أنسانى حبها كل بلد ، وألهانى عن الصحب والولد ، وأكثر فوائد هذا الكتاب ـ معجم البلدان ـ وغيره فهى من تلك الخزائن (٢) » .

ووصفها فى رسالة إلى القاضى أبى الحسن الشَّيْبانى وزير حلب ، وجاء فى وصفه قوله : « كان المقامُ بمرو الشاهجان المفسر عندهم بنفس السلطان ، فوجدت بها من كتب العلوم والآداب ما شغلنى عن الأهل والوطن ، فظفرت منها بضالتى المنشودة ، فأقبلت عليها إقبال النهم الحريص » .

ووصف فى هذه الرسالة إقليم خراسان بأنه مورق الأرجاء، رائق الأنحاء ، ذو رياض أريضة ، وجملة أمره أنه نموذج الجنة بلا مَيْن، فيه ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين (٣) .

(١) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٦ ، ٧١ ، وتاريخ آل سلجوق ٥٤ العماد الأصفهانى .
(٢) معجم البلدان مدينة مرو .
(٣) وفيات الأعيان ٢/٢١٣ .

وكان نوح بن منصور السامانى كلفا بالكتب حريصاً على اقتنائها ، فجمع مكتبة كبيرة حوت أهم المؤلفات فى كل علم من الأدب والشعر والتاريخ والطب والفلسفة ، ذكرها ابن سينا فى حديثه عن نشأته ،وقال إنه استفاد منها ، وإن بعض كتبها نادر الوجود .

ولو حاولت أن أرسم صورة كاملة للحياة الثقافية هناك لطال المقال واتسع المجال ، فلتكن لمحات سريعات .

علماء الحديث والفقه

من المحدثين البخارى — نسبة إلى بخارى — المتوفى سنة ٢٥٦ هـ (٨٦٩م) وهو إمام مدونى الحديث ، ومسلم بن الحجاج النيسابورى ـ نسبة إلى نيسابور ـ المتوفى سنة ٢٦١هـ صاحب صحيح مسلم ، وكل منهما قد وصل إلى العراق والحجاز والشام ومصر ليجمع الأحاديث بسندها ، ويميز صحيحها من زائفها .

ومن الفقهاء المجتهدين أبو بكر محمد بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة ٣١٦هـ (٩٢٨ م) الذى وصفه الذهبى بأنه كان مجتهداً لا يقلد أحدا ، وأبو حاتم محمد بن حبان التميمى السمرقندى المتوفى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥) الذى حكى عن نفسه أنه أخذ عن ألف شيخ بين الشاش — طشقند — والإسكندرية ، وهو مرجع كثير من المحدثين فى حكمه على رجال الحديث بالجرح والتعديل .

كما كان بالإقليم من كبار الشافعية محمد بن على القفّال الشاشى المتوفى سنة ٣٦٥هـ (٩٧٥ م) وهو الذى نشر مذهب الشافعى هناك ، وكان معتزليا ، وله كتب فى الفقه والأصول ، وأبو بكر بن فُورك الأصفهانى الأصولى المتكلم المتوفى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) وهو ناصر مذهب الأشعرى ، وقد اضطهده أهل الرى لكثرة المعتزلة بها ، فطلبه أهل نيسابور ، وبنوا له مدرسة يعلم فيها ، وله مؤلفات

تبلغ نحو المئة، وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي الحافظ المتوفى سنة ٤٥٨ (١٠٦٥م) — نسبة إلى بَيْهَق بالقرب من نيسابور — ومؤلفاته كثيرة حتى قالوا إنها نحو ألف جزء، ومنها السنن الكبير والسنن الصغير ودلائل النبوة ومناقب الشافعي ومناقب ابن حنبل.

وكان بالإقليم من علماء الحنفية أبو منصور الماتريدي — نسبة إلى ماتريد وهي محلة بسمرقند — المتوفى سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤م) وهو في علم الكلام عند الحنفية مثل الأشعري عند الشافعية، وله كتاب التوحيد وأوهام المعتزلة، ومآخذ الشرائع في الفقه، والجدل في أصول الفقه وغيرها، وأبو الليث نصر بن محمد السمرقندي الملقب بإمام الهدى المتوفى سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م)[1].

وهكذا نجد في كتب الحديث والفقه كثيراً من العلماء منسوبين إلى مدنهم، مثل النيسابوري والفرغاني والهَرَوي — نسبة إلى هَرَاة — والزمخشري والبيهقي والخوارزمي والترمزي والبلخي والسمرقندي والشاشي والفارابي والمَرْوَزي — نسبة إلى مَرْو بزيادة الزاي، ويقال أيضا المروروزي نسبة إلى مرو الروز — والرازي — نسبة إلى الري — والصاغاني.

علماء اللغة والأدب

كذلك ازدهر الإقليم بكثير من العلماء الكبار الذين ألفوا في اللغة والأدب، منهم علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦م) وهو فقيه ومفسر ومؤرخ وشاعر مُتقِن وكاتب مُترَسِّل، وناقد بصير، ومن مؤلفاته (الوساطة بين المتنبي وخصومه).

ومنهم أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري — من هَراة — المتوفى سنة ٣٧٠ هـ

(1) ظهر الإسلام ١/٢٦٢ — ٢٦٥.

(٩٨٠ م) مؤلف كتاب التهذيب الذي يعد أصلا من أصول المعاجم اللغوية، وقد اعتمد عليه وعلى المحكم لابن سيده ابن منظور في معجمه لسان العرب.

ومنهم أبو عمرو أحمد بن محمد الزُّوزَني المتوفى سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) — نسبة إلى زُوزن بضم الزاي وفتحها، وهي بلدة بين نيسابور وهراة، وله شرح القصائد السبع.

ومنهم أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري المتوفى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) أصله من أصبهان وسكن نيسابور، وسمع من كبار علمائها، وله من المؤلفات كتاب الشامل، وكتاب الغاية، وكتاب قراءة أبي عمرو، وكتاب غرائب القرآن، وكتاب وقوف القرآن وغيرها[1].

ومنهم إسماعيل بن حماد الجوهري — من فاراب — المتوفى سنة ٣٩٨هـ (١٠٠٧م) مؤلف كتاب الصحاح وهو من أمهات المعاجم العربية.

ومنهم بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ وهو كاتب وشاعر، وقد اشتهر بسرعة الحفظ وسرعة التحبير، وله المقامات المعروفة باسمه التي حاكاها الحريري فيما بعد[2].

ومنهم أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩هـ (١٠٢٧م) كان كاتباً وكان عالماً باللغة والأدب، وهو مؤلف كتاب فقه اللغة على الطريقة الموضوعية، إذ جمع في كل موضوع الكلمات المتصلة به، ومؤلف يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ترجم فيه لأدباء القرن الرابع، وذكر نماذج من أدبهم، ومما قيل فيهم، وقسمه حسب الأقاليم والأمصار، وله كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب وغيرها.

(1) معجم الأدباء ٣/١٢.

(2) معجم الأدباء ٢/١٦١، ويتيمة الدهر ٤/١٦٧.

وأبو الحسن على بن الحسن الباخرزى السنخى — باخرز من نواحى نيسابور — المتوفى سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) وهو مؤلف دمية القصر فى شعراء العصر، جعله تذييلا على يتيمة الدهر للثعالبى [١].

ومنهم عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨م) وهو مؤلف كتابَىْ دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

ومنهم أبو الفضل أحمد بن محمد الميدانى النيسابورى – الميدان محلة من محال نيسابور كان يسكنها فنسب إليها — المتوفى سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) وهو مؤلف مجمع الأمثال، والسامى فى الأسامى، والنموذج فى النحو، وشرح المفضليات [٢].

ومنهم آدم بن أحمد بن أسد الهروى أبو سعد النحوى اللغوى المتوفى سنة ٥٣٦ هـ — ١١٤١ م، من أهل هراة وسكن بلخ، كان أديباً فاضلا عالماً بأصول اللغة صائباً، ورد بغداد سنة ٥٢٠ فاجتمع إليه أهل العلم وقرأوا عليه الحديث والأدب، ومن تلاميذه رشيد الدين محمد بن عبد الجليل الملقب بالوطواط كاتب الإنشاء لخوارزم شاه، وكان يكاتبه ويخضع له ويقر بفضله [٣].

الفلاسفة

نشطت الفلسفة بالإقليم نشاطا كبيرا يرجع إلى ثلاثة من حاملى لوائها، أولهم — حسب الترتيب الزمنى — أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكعبى المتوفى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م)، وهو من بلخ، وكان واسع المعرفة بعلم الكلام، وإماما من أئمة المعتزلة، وله مذهب خاص وأتباع يقال لهم الكعبية [٤].

(١) معجم الأدباء ١٣/٣٣.
(٢) معجم الأدباء ٥/٤٥.
(٣) معجم الأدباء ١/١٠١.
(٤) الملل والنحل ١/٧٣.

وثانيهم أبو زيد أحمد بن سهل البلخى المتوفى سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٣ م) وكان صديقا للكعبى [١]، وقد جمع بين العلوم الشرعية والأدب والفلسفة، وله مؤلفات كثيرة تبلغ نحو السبعين، منها كتاب أقسام العلوم، وكتاب شرائع الأديان، وكتاب السياسة، وكتاب أسماء الله وصفاته، وكتاب صناعة الشعر، ورسالة حدود الفلسفة، وكتاب أخلاق الأمم، وكتاب نظم القرآن.

وقد قال أبو حامد القاضى فى وصف كتابه نظم القرآن: لم أر كتابا فى القرآن مثل كتاب أبى زيد البلخى.

وقال أبو حيان التوحيدى: «أبو زيد البلخى يقال له بالعراق جاحظ خراسان» وقال أيضاً فى كتاب تقريظ الجاحظ: «الذى أقول وأعتقد وآخذ به أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم.... لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم، أحدهم (وذكر الجاحظ) والثانى (وذكر أبا حنيفة الدينورى) والثالث أبو زيد أحمد ابن سهل البلخى، فإنه لم يتقدم له شبيه فى الأعصر الأول، ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر، ومن تصفح كلامه فى كتاب أقسام العلوم، وفى كتاب أخلاق الأمم، وفى كتاب نظم القرآن.... علم أنه بحر البحور، وأنه عالم العلماء، وما رُئى فى الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواه [٢]».

أما الثالث فهو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٦ م) وقد درس الفلسفة اليونانية منذ الصغر، ثم درس الطب، وقرأ من الكتب ما لم يقع للكثير من الناس قط، ومازال كتابه القانون فى الطب يدرس

(١) هو أبو القاسم البلخى الذى سبق الحديث عنه فى الاعتزال بخوارزم.
(٢) معجم الأدباء ٣/٦٤ — ٨٦

فى جامعات أوروبا إلى القرن التاسع عشر[1] ، ومازال كتبه الشفاء ، والنجاة ، والإشارات مصدراً لدراسة الفلسفة الإسلامية .

كذلك قد درس الفلسفة وتصدى للرد على الفلاسفة دفاعاً عن الإسلام أبو حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٨م) وهو من مدينة طُوس ، ودرس بالمدّرسة النظامية ببغداد ، وله مؤلفات كثيرة منها : تهافت الفلاسفة ، وكتاب فضائح الباطنة ، وكتاب المنقذ من الضلال ، وكتاب إحياء علوم الدين .

المتصوفة

وكان بالإقليم تصوف ومتصوفة ، منهم أبو عبد الله محمد بن منازل النيسابورى المتوفى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤٠ م) وأبو العباس بن القاسم بن مهدى المتوفى سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) وهو من أهل مَرْو ، وأول من تكلم عندهم فى حقائق الأحوال[2] .

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٧٦ بارتولد .
(٢) ظهر الإسلام ١ / ٢٦٥

الفصل الأول



اسمه محمود بن عمر بن أحمد، ولم أجد فى نسبه ذكراً وثيقاً لأحد بعد هذا الجد، وكنيته أبو القاسم ، غلبت عليه النسبة إلى بلده الذى ولد به ونشأ فيه ، فقيل الزمخشرى ، وكان قد جاور بمكة زماناً وأقّب نفسه بجار الله ، فصار هذا اللقب علماً عليه[1] .

ولد بزَمَخشر فى السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧ هـ[2] (١٠٧٤م) ، وليس بين الذين أرخوا له خلاف فى سنة وفاته ، كما أنه متفقون أيضا على سنة ميلاده ، إلا أن ابن كثير ذكر أنه توفى سنة ٥٣٨ هـ عن ست وسبعين سنة[3] ، ومعنى هذا أن ميلاده كان فى سنة ٤٦٢هـ ، لكن إجماعهم على أن المولد كان سنة ٤٦٧، وقول ابن العماد الحنبلى إنه توفى سنة ٥٣٨ بعد أن عاش ٧١ سنة[4] يجعلنا نستبعد ما ذكره ابن كثير .

وكان مولده فى عهد السلطان مَلِكشاه السلجوقى ووزيره نظام الملك ، وهو من أزهى الفترات التى نهضت فيها الآداب والعلوم .

نشأ بزمخشر ودرس بها، ثم رحل إلى بخارى ليطلب العلم فى مطلع حياته[5] ،

(١) مرآة الجنان ٣/٢٦٩ ، ومعجم الأدباء ١٩/١٢٦
(٢) وفيات الأعيان ٤/٢٥٩ ، وشذرات الذهب ٤/١٢١ [وبه أن المولد كان فى ٢٧ رجب] وإنباه الرواة ٣/٢٦٨ ، وتاريخ أبى الفدا ٣/١٦
(٣) البداية والنهاية ١٢/٢١٩
(٤) شذرات الذهب ٤/١٢١
(٥) وفيات الأعيان ٤/٢٥٥

لأنها كانت منذ عهد السامانيين «مثابة المجد، وكعبة الملك، ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر» (١).

كان الزمخشري في مطالع حياته طموحا، يأمل أن يتبوأ المكانة التي تكافئ علمه وأدبه وذكاءه، وأن ينال من المال ما يكفل له رغد الحياة، كما نال غيره ممن هم دونه مقدرة وكفاية، وكانت الدولة الخوارزمية ماتزال في نشأتها ولاية تابعة للسلاجقة، فصوّب الزمخشري نظره إلى الدولة الكبيرة التي يتولى شئونها نظام الملك، ومدحه بقصيدة (٢) صور فيها ضيق نفسه، وبرمه بعلمه وكفايته وفضله، ما لم تبوئه المكان الرفيع الذي يستحقه، وجهر بأنه من الظلم أن يظفر المتخلفون بما يجب أن يناله الأكفاء المتقدمون وحدهم، وسخط على الزمن الذي جاد على الأراذل بحقوق الأماثل، ثم عزى نفسه عن هذه المفارقات بأن كثيراً من القبيحات أجيادهن حالية، على حين أن كثيراً من الحسان عواطل الأجياد.

ونلاحظ أنه في مدحه الممزوج بالشكوى نوه بعلمه وأدبه، وجعلهما صلة قربى بينه وبين نظام الملك، وعرّض بتقصيره في رعايته على ما بينهما من هذه القرابة، مع أن غيره ممن لاقرابة بينهم وبينه كانوا يرعون حقوقه، وختم القصيدة باعتداد مقرون بتحدى نظام الملك أن يجد له نظيراً في جميع من يرى، وبتهديده بالرحيل عن خوارزم كلها إذا لم يسعفه بما يأمل، وبلوم خفي على أن آماله في الوزير كانت عظيمة فذهبت سُدًى، لأن الأراذل ظفروا بما لم يظفر به، ثم طالبه صراحة بأن يأمر له بما يحقق آماله. من هذه القصيدة قوله (٣):

خليليّ هل تُجْدِي عليّ فضائلي … إذا أنا لم أُرْفَعْ على كل جاهل؟
ومن لي بحقي بعد ما وفّرتْ على … أراذلها الدنيا حقوقَ الأماثل؟

(١) يتيمة الدهر ٤/٣٢
(٢) ديوان الزمخشري ٩٥
(٣) الديوان ٩٤

كذا الدهر كم شوهاء في الحلي جيدها … وكم جيدِ حسناء القلائد عاطل
ومما شجاني أن غرّ مناقبي … تغنّى بها الركبانُ بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي … وسارت مسير النيّرات رسائلي
وكم من أمالٍ لي وكم من مُصَنَّفٍ … أصاب بها ذهني مَحزّ المفاصل
ولي في دقيق النحو والنقد منطق … إذا قلته لم أُبْقِ قولاً لقائل
غنيٌّ من الآداب لكنني إذا … نظرتُ فما في الكف غيرُ الأنامل
فياليتني أصبحت مستغنياً ولم … أكن فخر خُورَزْمٍ ورأس الأفاضل
ويا ليتني مُرْضٍ صديقٍ ومُسخِطٌ … عدوي وأني في فهاهة باقل
وما حقٌّ مثلي أن يكون مُضَيَّعاً … وقد عَظُمتْ عند الوزير وسائلي
وأعظمها أني نَسِيبُ نِصابه … إذا عُرِضَتْ أنسابُ هذى القبائل
وقد كان يَرْعى الناسُ حقي قبله … على عدم القُربى وبُعْدِ الوصائل
أحظيَ منقوصٌ ولستُ بناقص … وكم كاملٍ حظًّا وليس بكامل
فلا ترضَ ياصدر الكفاة بأن ترى … أعاليَ قومٍ أُلحقوا بأسافل
ولا تجعلوني مثل همزة واصلٍ … فيُسْقِطَني حذفٌ ولا راء واصل (١)
فكل امرئ آماله عدد الحصا … وهات نظيري في جميع المحافل
لئن كان أمري في خوارزم ما أرى … فإن رحالي في ظهور الرواحل
وكم قلت ألقى في وزارتك المُنى … وأدركُ وحدي ما ارتجى كل آمل
ولم أدر أن الأرذلين يرونَ ما … تمنوا وأني لست أحظى بطائل
فوقّع إلى هذا الزمان فإنه … غلامك يحمِلْني كبعض الأراذل

(١) أي لاتهملني كما يهمل المتكلم همزة الوصل وكما أسقط واصل بن عطاء الراء من كلامه

لكن الزمخشري لم يظفر من نظام الملك بما أراد، فماذا عسى أن يكون السبب أو الأسباب في هذا الإخفاق؟

قد يرجع إخفاقه إلى أن نظام الملك سُنّيّ تعلم الحديث وعلّمه وأملاه، وافتتح المدارس لتعليم الشريعة على مذهب أهل السنة، ولكن الزمخشري معتزلي مكاشف باعتزاله مشهور به.

وقد يرجع أيضاً إلى أنه في مدائحه ومطالبه كان يمزج طلبه بألوان من التنويه بنفسه، والمباهاة بعلمه وأدبه، والتعريض بغيره، ولوم نظام الملك على تقصيره وتغاضيه عنه، وكان كالآمر الذي يتوقع أنه لا بد من أن يطاع.

وحينئذ اجتمع اليأس من المقام بخوارزم، حيث لا منصب ولا مال، والعزم على الرحيل عن الوطن الذي ولد به وربي فيه، وكان صراع نفسي صوره في قوله[1]:

أحبُّ بلاد الله شرقاً ومغرباً ... إليّ التي فيها غُذيت وليدا
ولكن تُواسي بالكرامة غيرُها ... وهذي أرى فيها الهوان عتيدا
وما منزل الإذلال للحر منزلاً ... وإن كان عيش الحر فيه رغيدا
سأرحل عنها ثم لست براجع ... وأضرب مرمىً في البلاد بعيدا
فلا كنتُ إن خيّمتُ فيها ابن حرة ... ولا عشتُ بين الصالحين حميدا

فإلى أين يتجه؟

لقد اتجه إلى إقليم آخر من أقاليم الدولة السلجوقية هو خراسان، فاتصل ببعض رجال الدولة هناك، ومدحهم، منهم مجير الدولة أبو الفتح علي بن الحسين الأردستاني نائب تاج الدولة على ديوان الإنشاء في عهد السلطان أبي الفتح ملكشاه، وكاتب الرسائل المشهور في ذلك العصر، وقد مدحه، وتطلع إلى أن يقرأ كتابيه (شرح أبيات سيبويه) و (الأنموذج) فقال[2]:

(١) الديوان ٣٧ .
(٢) الديوان ٢٣ .

فعندي مجير الدولة المستجار لي ... مداواة أدواء وأسْوُ جرائح
نطاسيُّ آمال مِراضٍ وجابرٌ ... لكسر مَهيضات الخطوب الفوادح
فليت رحالي أُلقِيَتْ بفنائه ... فأرتعَ في نَعْمائه غير نازح
ويقدحَ زَنْداً وارياً من مناقبي ... إذا صلَدَتْ كل الزناد لقادح
وفي شرح أبيات (الكتاب) لبعض ما ... يرى في صفاتي مُجْمَلاً أيُّ شارح
و(أنموذجاً) أنفذْتُ منه يضمه ... رجائي أرى فيه وجوه المناجح
أراقب من عين الوزير اطّلاعةً ... عليه وحسبي منه لمحةُ لامح
جميعُ ثياب الدهر يَبْلَى جديدها ... ويَبْقى على الأيام ثوب المدائح

ونلاحظ أنه صور نفسه سقيما جريحا مهيض الجناح، وبيد مجير الدولة برؤه وردُّ القوة إليه، وأنه يتمنى أن يلحقه بعمل عنده ليبلو كفايته التي لا مثيل لها، وهو إذ يقدم كتابيه في النحو وهما شرح أبيات كتاب سيبويه والأنموذج[1] شاهدين على علمه يشرئب إلى نظرة من الممدوح راعية، أو إلى لمحة حانية. وله في مدحه قصيدة أخرى[2].

ومدح في خراسان مؤيد الملك عُبَيْد الله بن نظام الملك، وكان رئيس ديوان الإنشاء أيام السلطان أبي الفتح ملكشاه، وكان بليغا في الشعر والنثر، ومتفوقا على إخوته، وردد في مدحه أمله في منصب كبير يلائم كفاءته كقوله[3]:

إليك عبيد الله أُنْهِي شكايتي ... نكاية دهر يَنْتَحِي بِصِياله
بحقك فازجره ومُرْه لينتهي ... فأمرك أمضى من مواضي نباله

(١) سأعرض لهما في مؤلفاته .
(٢) إنباه الرواة ٣/٢٦٧ .
(٣) ديوان الزمخشري ٩٧ .

فأنت الذى الديوانُ طوعٌ لحكمه ... وذلك طـوقٌ فى رقاب رجاله

وأنت الذى إن قال شيئاً يريده ... فما فيهمُ من ينثنى عن مقاله

وكرر مدائحه له(1).

ولكنه لم يجد فى خراسان مبتغاه، ولم تكن حاله بها خيراً من حاله فى خوارزم، فسئم البقاء، وارتحل إلى أصفهان عاصمة السلاجقة، وكان ملكها محمد بن أبى الفتح ملكشاه مشهورا بالعدل وحسن السيرة والشجاعة، وهو الذى قضى على الباطنية، وملك حصونهم، وخرب ديارهم، ومحا آثارهم(2)، وهنالك مدحه الزمخشرى بالعدل والسؤدد ونصرة الحق وحماية الإسلام فى قوله(3):

محمد بن أبى الفتح الذى تركَتْ ... أوصافُه لُكْنةً فى كل مِنْطِيق

ابن السلاطين من أبناء سلجوق ... وابن الغَطارِف منهم والغَرانيق(4)

لله من عادل من حَقِّ سيرته ... ونَصْرِهِ الحقَّ أن يُدْعَى بفاروق

مستوجبٌ من جموع الشرك مَبْغَضةً ... محبَّبٌ فى بنى الإسلام مرموق

ومرت سنوات بعد حكم أبى الفتح ملكشاه (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) وإذا بالزمخشرى يمدح السابع من ملوك السلاجقة، وهو معز الدين سنجر (٥١١ـ٥٢٢ هـ) بقصيدة(5) تبدو ضحولة عواطفها، واعتمادها على محاكاة القدماء فى معانيهم، والجنوح فيها إلى المبالغة:

سماه كل الناس كعبة سُؤْدُدٍ ... أهل الحوائج منهمُ حُجّاجُها

(1) الديوان ٢٢، ٣٥، ٨٩، ١٠٦

(2) الكامل لابن الأثير ١٠/١٨٥

(3) ديوان الزمخشرى ٨٦

(4) الغطارف: جمع غطريف وهو السيد. الغرانيق: جمع غرنيق أو غرنوق وهو الشاب الأبيض الجميل.

(5) الديوان: ٢٠.

وكأنما السلطان سنجر كعبة ... للملك مُنْتَجَبُ(1) الملوك رِتاجها

ركبَ السياسة وهى أصعبُ مركبٍ ... فتطامنتْ لركوبه أرْتاجها

ألِفَتْه دونهمُ فما إلجامُها ... إلا على يده ولا إسراجها

لو أنه ركب النجومَ لما نَبَتْ ... أفرادها عنه ولا أزواجها

جَمُّ الحَيَا للعِدا طلقٌ إذا ... ضيفانه نزلت به أفواجها

يجرى إليهم سَيْبُهُ بأنامل ... مثل البحار تلاطمت أمواجها

إلى أن يقول:

تَبغِى الحقيقةَ فى أمورك كلها ... إن الحقيقةَ واضحٌ منهاجها

لو أن عدلك شُبْتَه بمياهها ... لارتدّ كالعذب الفراتِ أُجاجها

على أنه اتصل بخوارزم شاه محمد بن نوشتكين (٤٩٠ — ٥٢١ هـ) ومدحه، وأشار فى كتابه (مقدمة الأدب) برعاية ابنه أتسز (٥٢١ ـ ٥٥١ هـ) للعلماء والأدباء، لأنه أمر بنسخ هذا الكتاب لخزانته.

ثم رجع إلى نفسه فى مَرْضته التى مرضها سنة ٥١٢ هـ ووصفها بأنها ناهكة(2) ومنذرة، فعاهد الله إن من عليه بالصحة ألا يطأ عتبة سلطان، ولا متصل بخدمة سلطان، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن مديحهم، وأن يعف عن التطلع إلى عطياتهم والأمل فى مناصبهم، وأن يعكف على التأليف والتدريس(3).

فلما شفاه الله شخص إلى بغداد، وناظر بها وسمع من علمائها(4) الذين سيجىء ذكرهم.

(1) لقب للوزير.

(2) الناهكة: الشديدة.

(3) مقامات الزمخشرى ٥

(4) تاريخ أبى الفدا ٣/١٦

وما لبث أن أحسّ بسمو نفسه ، وبتخلصها من أوهاق المطامع ، فاتجه إلى مكة مشوقا راجيا الصفح من ربه عما فرط منه ، معتزما أن يقيم بها مترددا على بيت الله ، إلى أن يحم القضاء ، فناجى نفسه فى الطريق بقوله(١) :

يا من يسافر فى البلاد منقباً ... إنى إلى البلد الحرام مسافر
إن هاجر الإنسان عن أوطانه ... فالله أولى من إليه يهاجر
وتجارة الأبرار تلك ومن يبع ... بالدين دنياه فنعم التاجر
خرّبتُ هذا العمر غيرَ بقية ... فلعلنى لك يا بقيةُ عامر
فى طاعة الجبار أبذل طاقتى ... فلعلنى فيها لكسرى جابر
سأروح بين وفود مكة وافداً ... حتى إذا صدروا فما أنا صادر
بفناء بيت الله أضرب قُبّتى ... حتى يُحلَّ بى الضريحَ القابرُ
ألقى العصا بين الحطيم وزمزم ... لا يطّبينى إخوةٌ وعشائر
ضيفاً لمولىً لا يُخلّ بضيفه ... ويبذل أقصى ما تمنى الزائر
حسبى جوار الله حسبى وحده ... عن كل مفخرة يعدّ الفاخر
سأقيم ثَمّ وثَمّ تُدفَنُ أعظمى ... ولسوف يبعثنى هناك الحاشر

وهناك فى مكة كان الأمير أبو الحسن على بن حمزة بن وهّاس الشريف الحَسَنى ، وكان ذا فضل غزير ، وله تصانيف مفيدة ، وقريحة فى النظم والنثر مجيدة(٢) . فرحب بالزمخشرى ، وعرف قدره ، ورفع شأنه ، وأقبل على الاستفادة منه ، كما استفاد منه الزمخشرى(٣) .

(١) ديوان الزمخشرى ٤٢ .
(٢) معجم الأدباء ١٤/٨٥ .
(٣) إنباه الرواة ٣/٢٨٦ ، ومعجم الأدباء ١٤/٨٥ .

ولقد اطمأنت نفس الزمخشرى إلى الإقامة فى مكة ، وإلى التردد المستمر على بيت الله الحرام ، وإلى تكريم الأمير ابن وهّاس ، فمدح الأمير(١) مدحا ينبىء عن صدق العاطفة والمحبة والشكران ، كقوله :

فتى هو حالٍ بالمعالى بأسرها ... وقد حَليتْ منه المعالى بأوحدا
نجيبٌ نمته من ذُؤابة هاشم ... نقيّاتُ أعراقٍ أطابته مولدا
ولو شاء لم يعتدّ مَحتِدَ هاشم ... نِصَاباً كفاه بالنبوة محتدا
وتقرأ من سيماه فى قسماته ... شهادة حق أنه سِبطُ أحمدا
هو الحر ما أصْدَى إلى بيض معشرى ... فأبصره إلا نَقَعْتُ به الصدى
ولى منه نُصْحُ الجيْبِ والعقدة التى ... أبت أن يرى الراءون أوثق مَعقدا
ولولا ابنُ وهّاس وسابقُ فضله ... رَعَيْتُ هشيماً واستقيتُ مُصرَّدا

وكان ابن وهاس يمدح الزمخشرى ، فمن مدحه قوله(٢) :

وكم للإمام الفرد عندى من يدٍ ... وهاتيك مما قد أطاب وأكثرا
أخى العزمة البيضاء والهمة التى ... أنافت بها ، علّامة العصر والورى
جميع قرى الدنيا سوى القرية التى ... تبوّأها داراً فداءٌ زمخشرا
وأحْرِ بأن تُزْهَى زمخشرُ بامرئٍ ... إذا عُدّ فى أُسْد الشرى زَمَخَ الشرا(٣)
فلولاه ما طنّ البلادُ بذكرها ... ولا طار فيها مُنجداً ومُغوّرا
فليس ثناها بالعراق وأهله ... بأعرفَ منه بالحجاز وأشهرا

وفى أيام مقامه بالحجاز زار همدان ، ومدح آل زَرِير ، فقال فى إحدى قصائده(٤) :

(١) ديوان الزمخشرى ٢٧ ، ٧٤ ، والنجوم الزاهرة ٥/٢٧٤ .
(٢) معجم البلدان ٤/٤٠٠ ، وإنباه الرواة ٣/١٦٨ ، والقاموس المحيط مادة زمخشر .
(٣) الشرا : مأسدة . زمخ : تكبر . (٤) ديوان الزمخشرى ١١٥ .

كم قلتُ في خُوَرزَم عند ترحّلي ... لركائبي سيرى إلى همْدانا

لو لم أقل سيرى إلى همدان ما ... همدَتْ بنا في سيرها همَدانا[١]

وبنو زُرَيرٍ ما تُنزرُ ثيابهم ... إلا على الهضبات من ثهلانا

وطوف في جزيرة العرب ، لأنه يقول : وطئت كل تُربة في أرض العرب، فوجدت (تُربة) أطيب الترب ، وهي واد على مسيرة أربع ليال من الطائف ، ورأيت ناساً من أهلها[٢] .

ولكنه بعد أن أقام بمكة نحو سنتين شاقه وطنه ، فرحل إليه ، ثم لام نفسه أشد اللوم ، وبكى أحر بكاء ، وصور هذا في عدة قصائد منها قوله[٣] :

بكاء على أيام مكة إن بي ... إليها حنين النيب فاقدة البكرِ

تذكرت أيامي بها فكأنني ... قد اختلفتْ زُرقُ الأسنة في صدري

أبيت على الصخر المبارك باكياً ... كما أنّت الخنساء تبكي على صخر

وقوله[٤] :

أأبتاع بالفوز الشقاوةَ خاسراً ... وأستبدل الدنيا الدنيّة بالأخرى ؟

إذا خطرت بالبال ذكرى إناختي ... على حرم الله استفزّتنيَ الذكرى

وأدعو إلى السلوان قلباً جوابُه ... لداعيه مُهراقٌ من المقلة العبْرى

وما عُذرُ مطروحٍ بمكة رحلَه ... على غير بؤس لا يجوع ولا يَعْرى

فما فرّ عنها يبتغي بدلاً لها ... وربّك لا عُذراً وربك لا عذرا

(١) ليس في أساس البلاغة ولا في القاموس معنى يلائم وضع همد في البيت ، لأن أهمد بمعنى أقام وبمعنى أسرع ، والمراد هنا الإسراع ، فيكون الصواب أهمد إهماداً لا همد همداناً .

(٢) أساس البلاغة مادة ترب .

(٣) الديوان ٤١

(٤) الديوان ٤١

فلم يكن بد من العزم على العودة إلى مكة ، فقيل له : قد زجّيتَ أكثر عمرك هناك ، فما الموجب؟ قال: القلب الذي لا أجده هناثم أجده هناك[١] . ومعنى هذا أنه لم يكن يجد طمأنينة القلب، وصفاء النفس، ولذة العبادة إلا في مكة .

ها هو ذا ينطلق إلى مكة ، وفي طريقه إليها يعرج على الشام ، فيمدح تاج الملوك بوري طغتكين صاحب دمشق ، ولم يكن هذا المدح للزلفى أو لا ستدرار عطاء ، بل كان خالصاً لوجه الله ، لأن بوري كان معروفا بكراهيته للباطنية ، حتى إنه قتل منهم ستة آلاف ، وكان قد حمى المسلمين من الصليبين ، إذ جمع العرب والتركان لصدهم عن دمشق وهزمهم سنة ٥٢٣ هـ[٢] (١١٢٨ م) .

والراجح أنه أقام بالشام مدة ، لأنه مدح شمس الملك الذي خلف أباه سنة ٥٢٦ هـ[٣] .

وفي السنة نفسها سلك الطريق إلى مكة فبلغها ، وقضى بها ثلاث سنوات، لقي فيها من ابن وهّاس ما كان يلقاه من قبل من حفاوة وتعظيم ، وكان ابن وهّاس يوافقه في مذهبه ، فشجعه على تأليف تفسيره الكشاف[٤] ، فحُقّ له أن يمدح ابن وهاس بقوله[٥] :

بمكة آخيتُ الشريف وفتيةً ... تُواليه من آل النبي غطارفا[٦]

يتابع إن نُوظِرتُ رَدْءاً لشاغب ... وينهض إن ذُوكِرتُ رِدءاً مكانفا

متى أقبل العلّامة انتفضوا له ... وحيّوه ، حيّا الله تلك المعارفا

(١) إنباه الرواه ٣/٢٦٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٣٤ ، ٢٤٣ .

(٣) ديوان الزمخشري ٧٩ .

(٤) مقدمة الكشاف وديوان الزمخشري ٢٧،٧٤ .

(٥) ديوان الزمخشري ٧٩ .

(٦) غطارف : جمع غطريف وهو السيد الشريف .

وكان ابن وقّاس لجنبى فارشاً   كما تفعل الأم الحفية لاحفا
وتمّ لى الكشاف ثمّ ببلدة   بها هبط التنزيل للحق كاشفا
على باب أجياد بنى لى منزلاً   كركن شمام بالصفا متواصفا[1]
وأنفق فى إتمامه من تلاده   ثقيلات وزن فى البلاد خفائفا

ولم يكن غريبا أن يقول فى قصيدة أخرى[2] :

زأرتَ وراء دين الحق زأرا   وقد نبحتْ كلاب المغربىّ
ومن يغضب لدين الله يجمع   مراضيه إلى الأجر السنىّ
وليس الجبر والتشبيه إلا   بقية إرث دين جاهلىّ
فقم بالعدل والتوحيد فيه   تُقمْ يابن النبى هُدَى النبى

وحينئذ يبدو أنه اطمأن وهدأ ، وصور فرحته فى قوله[3] :

أنا الجارُ جار الله ، مكة مركزى   ومضرب أوتادى ومَعْقِدُ أطنابى
وما كان إلا زورةً نهضتى إلى   بلاد بها أوطان رهطى وأحبابى
فلما قضت نفسى — ولله درُّها —   لُبانةَ دار زندُها غير خياب
كررتُ إلى بطحاء مكة راجعاً   كأنى أبو شبلَيْنِ كرّ إلى الغاب
فمَنْ يُلْقِ فى بعض القريّات رحله   فأم القرى مُلْقَى رحالى ومُنتابى
ومن كان فى بعض المحاريب راكعاً   فالكعبةُ البيت المحرَّم محرابى

ولكن هذا الرحالة النُّقَلَة اشتاق إلى وطنه ثانية ، فسافر إلى خوارزم ، وعرج على بغداد سنة ٥٣٣ هـ .

(١) شمام : جبل .
(٢) ديوان الزمخشرى ١١٦
(٣) الديوان ٥

ثم أقام بخوارزم إلى أن حم القضاء ليلة عرفة سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) بجُرْجانيّة — قصبة خوارزم على شاطئ نهر جيحون — بعد رجوعه من مكة[1] .

وقد زارا بن بطوطة خوارزم فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، وقال : « بخارج خوارزم قبر الإمام العلامة أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ، وعليه قبة[2] » .

(١) وفيات الأعيان ٤/٢٥٩ ، وشذرات الذهب ٤/١٢١ ، وإنباه الرواة ٣/٢٦٨ وهو يسمى جرجانية، كركانج . وتاريخ أبى الفدا ٣/١٦ .
(٢) مهذب رحلة ابن بطوطة ١/٢٩٨ .

الفصل الثاني

أساتذته

استقى الزمخشرى من ينابيع كثير من العلماء الذين عاصرهم ، كما نهل من مؤلفات سابقيه .

ولعل أعظم أساتذته آثاراً فى نفسه أبو مُضَرْ محمود بن جرير الضبى الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٧ هـ ، كان يلقب بفريد العصر ، ووحيد الدهر فى علم اللغة والنحو ، ويضرب به المثل فى أنواع الفضائل . وقد درس عليه الزمخشرى النحو والأدب .

أقام فى خوارزم مدة ، فانتفع الناس بعلومه ومكارم أخلاقه ، وأخذوا عنه علماً كثيراً ، وتخرج عليه جماعة من الأكابر فى النحو واللغة ، وهو الذى أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ، ونشره بها ، فاجتمع عليه الخلق لجلالته ، وتمذهبوا بمذهبه ، ومنهم أبو القاسم الزمخشرى [1] . وقد توسم أبو مضر فى تلميذه الذكاء والجد والجدارة بأن يخلفه ، فتعهده بعلمه ، ورعاه بماله ، يدل على هذا قول الزمخشرى لنظام الملك [2] :

إليك نظام الملك شكواى فاستمع ... إلى بثّ مجذوذ المعايش ضنكها
ولو لم ينل الضبىُّ عنى عراكها ... لنالت يد البلوى أديمى بعَرْكها

وكان الزمخشرى محباً لأستاذه أبى مضر ، وفيًّا له ، فلما مات سنة ٥٠٧ هـ رثاه بقوله [3] :

(١) معجم الأدباء ١٩/٢٢ وشذرات الذهب ٤/١١٩ ، ووفيات الأعيان ٤/٢٥٤ وبغية الوعاة ٣٨٨ . (٢) الديوان ٩١ . (٣) الديوان ٦٤ .

فقلت لطبعى هات كل ذخيرة ... فمن أجله ما زلت أدّخر الذخرا
وأبرز كريمات القوافى وغرّها ... فمنه استفدنا العلم والنظم والنثرا

ورثاه بقوله [1] :

وقائلة ما هذه الدُّرَرُ التى ... تَساقَطُ من عينيك سِمْطَين سمطين
فقلت لها : الدر الذى كان قد حشا ... أبو مُضَرٍ أذْنى تساقط من عينى

وعلق عليهما اليافعى بقوله : هذا مثل قول القاضى أبى بكر الأرّجانى :

ولم يبكنى إلا حديث فراقهم ... لما أسَرّته إلىّ أدمعى
هو ذلك الدر الذى أودعته ... فى مسمعى أجريته من مدمعى

ولا يدرى أيهما أخذ من الآخر ، لأنهما كانا متعاصرين [2] .

ثم رحل إلى بخارى ليستزيد من مناهل علمائها [3] ، وكانت ما تزال تابعة للدولة السامانية ، ولها صيت ذائع فى العلم ، حتى إن الثعالبى يقول : إنها كعبة طلاب العلم ، ومطلع نجوم أدباء الأرض [4] .

كذلك سمع الحديث من شيخ الإسلام أبى منصور نصر الحارثى ، ومن أبى سعد الشّقانى [5] ، ومن أبى الخطاب بن أبى البطر [6] .

(١) الديوان ٥٧ ، ووفيات الأعيان ٤/٢٥٨ ، ومعجم الأدباء ١٩/١٣٤ مع بعض تغيير ، وشذرات الذهب ٤/١٢٠ ، ومرآة الجنان ٣/٢٧٠ ، وإنباه الرواة ٣/٢٦٧ .
(٢) مرآة الجنان ٣/٢٧٠
(٣) وفيات الأعيان ٢/١٠٧ ، ومعجم الأدباء ١٩/١٢٧
(٤) يتيمة الدهر ٤/١٠١
(٥) معجم الأدباء ١٩ / ١٢٧ وبغية الوعاة ٣٨٨
لم أعثر على ترجمة للحارثى فى كتب الطبقات والتراجم ، وأما الشقانى بفتح الشين على المشهور وبكسرها على الصحيح فلم أجد فيمن يعرف بهذه النسبة من يكنى أبا سعد أو أبا سعيد ، بل وجدت من المشهورين بالحديث أبا الفضل العباس بن الشيخ أبى العباس أحمد بن محمد بن الشقانى الحسنوى من أهل نيسابور ، كان فقيها محدثاً أنفق عمره فى الكتابة ، وسماع الحديث ، وصحبة الأكابر ، ولزوم المجالس ، والطواف على المشايخ ، وإفادة الصبيان والشبان ، وكان أبوه من أفذاذ أئمة الأصول . توفى أبو الفضل سنة ٥٠٦ هـ (الأنساب للسمعانى ورقة ٣٣٦)
(٦) طبقات المفسرين ٤١ . لم أعثر له على ترجمة فى كتب التراجم والطبقات .

وقد أخذ الأدب عن أبي على الحسن بن المظفر النيسابورى[(١)]

ونجد فى تاريخه أنه اجتمع فى بغداد بالفقيه الحنفى الدامغانى[(٢)] وبالشريف ابن الشجرى[(٣)] . وقال القفطى[(٤)] إن الزمخشرى قدم علينا ببغداد سنة ٥٣٣هـ، ورأيته مرتين عند شيخنا أبى منصور بن الجواليقى[(٥)] قارئا عليه بعض كتب اللغة من فواتحها ومستجيزاً لها .

كذلك نجد فى تاريخه أنه قرأ فى مكة كتاب سيبويه على عبد الله بن طلحة اليابرى[(٦)] . فإذا صحت رواية القفطى أن الزمخشرى قرأ على الجواليقى بعض

---

(١) معجم الأدباء ١٩/١٢٧ . وكان الأصل (عن أبى الحسن على بن المظفر) ولكنى صوبته من المعجم نفسه ٩/١٩١ . والحسن هذا كاتب شاعر مؤلف . كان فى عصره مؤدب أهل خوارزم ومخرجهم وشاعرهم ومقدمهم ، وهو شيخ الزمخشرى قبل أبى مضر ، وله مؤلفات منها: تهذيب ديوان الأدب ، وتهذيب إصلاح المنطق ، ومحاسن من اسمه الحسن (وهذا يؤكد أن اسمه الحسن) وزيادات أخبار خوارزم ، وديوان شعر ، وديوان رسائل (معجم الادباء ٩/١٩٠)

(٢) وفيات الأعيان ٢/٢٥٥ . الدامغانى بفتح الميم بلد من بلاد قومس ، من علمائها فى الحديث قاضى القضاة أبو عبد الله محمد بن على الدامغانى ، ولى قضاء بغداد مدة ، وكان إليه القضاء والرياسة والتقدم ، وكان فقيهاً فاضلا ، توفى ببغداد سنة ٤٩٨ (الأنساب ورقة ٢١٩) وكان حنفى المذهب ، وقد ناظر الشيرازى [طبقات الشافعية ٣/١٠٠] .

(٣) نزهة الألبا ٤٧٠ . ابن الشجرى هو هبة الله بن على أبو السعادات ينتهى نسبه إلى على ابن أبى طالب ، كان فرد زمانه فى العلوم العربية ، وعلم النحو سبعين سنة ، توفى سنة ٥٤٢ هـ ، وله من المؤلفات : الأمالى ، والانتصار على ابن الخشاب ، والحماسة ضاهى به حماسة أبى تمام ، وشرح اللمع لابن جنى ، وكتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه ، وشرح التصريف الملوكى ، وغيرها [معجم الأدباء ١٩/٢٨٢] .

(٤) إنباه الرواة ٣/٢٧٠ .

(٥) هو موهوب بن أبى طاهر أحمد الجواليقى ، كان إماماً فى فنون الأدب ، وهو من مفاخر بغداد ، درس الأدب فى المدرسة النظامية بعد الخطيب التبريزى ، وكان فى اللغة أمثل منه فى النحو ، وكان متواضعاً من أهل السنة ، وله حسن التصانيف المفيدة التى انتشرت عنه ، مثل شرح أدب الكاتب ، والمعرب من الكلام الأعجمى ، والتكملة فيما يلحن فيه العامة ، أكمل به درة الغواص للحريرى ، ولد سنة ٤٤٦ هـ وتوفى ببغداد سنة ٥٣٩ هـ (وفيات الأعيان ٤/٤٢٤ ومعجم الأدباء ١٩/٢٠٥ وبغية الوعاة ٤٠١) .

(٦) بغية الوعاة ٢٨٤ وطبقات المفسرين ٣١ . هو نحوى أصولى فقيه توفى سنة ٥١٨هـ [بغية الوعاة ٢٨٤] .

كتب اللغة سنة ٥٣٣ هـ ليستجيزه كانت دليلا على أنه وهو فى السادسة والستين من عمره ، وقبل أن يودع الحياة بخمس سنوات ، لم يأنف أن يجلس جلسة الطالب المستزيد ، مع أنه بعد مرضه سنة ٥١٢ هـ زار بغداد وناظر بها[(١)] ، وألف كثيراً من كتبه .

---

(١) تاريخ أبى الفدا ٣/١٦

الفصل الثالث

تلاميذه

كان الزمخشرى صاديا إلى الثقافة يتردد على مناهلها، ويرتوى من رجالها، ثم كان له تلاميذ عطاش إلى منهله، يسرعون إليه فى كل بلد حله، فيستقون منه، ويجرون ما استقوه جداول تنقع غلة الناس.

يذكر القفطى[1] أنه دخل خراسان، وورد العراق، وما دخل بلدا إلا اجتمع الناس عليه، وتلمذوا له، واستفادوا منه. ويقول إنه أقام بخوارزم تضرب إليه أكباد الإبل، وتحط بفنائه رحال الرجال، وتحدى باسمه مطايا الآمال.

ويذكر ياقوت أنه قدم بغداد، فى طريقه إلى الحج فاجتمع الناس حوله ليسمعوا منه[2].

وهؤلاء التلاميذ كثير، منهم بزمخشر أبو عمرو عامر بن الحسن السمار، وبطبرستان أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويلى، وبأبيورد أبو المحاسن عبد الرحيم بن عبد الله البزاز، وبسمرقند أبو سعد أحمد بن محمود الشاتى، وغيرهم[3]. ومنهم بخوارزم أبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه، والموفق بن أحمد بن أبى سعيد المعروف بأخطب خوارزم، كان متمكنا فى العربية غزير العلم فقيها أديبا شاعرا[4]، ومنهم على بن محمد العمرانى الخوارزمى،

(١) إنباه الرواة ٣/٢٦٦
(٢) معجم الأدباء ١٩/١٢٨
(٣) الأنساب للسمعانى ٢٧٨
(٤) بغية الوعاة ٤٠١ والأنساب ٢٧٨

أبو الحسن الأديب، الملقب بحجة الأفاضل وفخر المشايخ، المتوفى حوالى سنة ٥٦٦ هـ، قرأ الأدب على الزمخشرى فصار أكبر أصحابه وأوفرهم حظا من غرائب آدابه، وجعل أيامه فى آخر عمره مقصورة على نشر العلم، وفزع الناس إليه فى حل المشكلات وشرح المعضلات، وكان مولعا بالسماع كتوبا، وهو مع علمه الغزير وفضله الكثير علم فى الدين والصلاح، وكان يذهب مذهب المعتزلة، وله تصانيف حسان منها: كتاب المواضع والبلدان، وكتاب تفسير القرآن، وكتاب اشتقاق الأسماء[1].

وتلمذ له محمد بن أبى القاسم بايجوك، أبو الفضل البقالى الخوارزمى الآدمى الملقب زين المشايخ (٥٦٢ هـ) النحوى الأديب، كان إماما فى الأدب، وحجة فى لسان العرب، أخذ اللغة وعلم الإعراب عن أبى القاسم الزمخشرى، وجلس بعده مكانه، وسمع الحديث منه ومن غيره، وله من التصانيف: مفتاح التنزيل، وتقويم اللسان فى النحو، والإعجاب فى الإعراب، والبداية فى المعانى والبيان، وكتاب منازل العرب، وشرح أسماء الله الحسنى، وغير ذلك[2].

وتلمذ له أبو يوسف يعقوب بن على بن محمد بن جعفر البلخى، أحد الأئمة فى النحو والأدب، أخذ عنه ولزمه[3].

ومن تلاميذه على بن عيسى بن حمزة بن وهّاس، من ولد سليمان بن حسن ابن على بن أبى طالب، كان شريفا جليلا هماما من أهل مكة وشرفائها وأمرائها، وكان ذا فضل غزير، وله تصانيف مفيدة، وقريحة فى النظم والنثر مجيدة، قرأ على الزمخشرى بمكة، وبرّز عليه، وصُرِفت أعنة طلب العلم إليه،

(١) معجم الأدباء ١٥/٦١ وبغية الوعاة ٣٥٠
(٢) معجم الأدباء ١٩/٥
(٣) معجم الأدباء ٢٠/٥٥

(توفى سنة نيف وخمسين وخمسمائة)[1] وهو الذى مدحه بأبيات منها :

وكم للإمام الفرد عندى من يد   وهاتيك مما قد أطاب وأكثرا[2]

ومنهم زينب بنت الشعرى التى أجازت ابن خلكان[3] .

وممن استجازوه محمد بن عبد الملك البلخى الذى ينتهى نسبه إلى عمر بن الخطاب المعروف برشيد الدين الوطواط ، كان أبرع معاصريه فى النظم والنثر ، وكان ينشىء فى وقت واحد بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر ، ويمليهما معا ، وكان شاعر البلاط وكاتب الإنشاء فى عهد السلطان الخوارزمى أتسز وفى عهد إيل أرسلان وابنه علاء الدين تكش ، وله مصنفات منها حدائق السحر فى دقائق الشعر[4] .

وحينما كان بمكة مجاورا كتب إليه الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفى من الإسكندرية يستجيزه فى مسموعاته ومصنفاته ، فرد عليه بما لا يشفى الغليل ، فلما كان العام الثانى كتب إليه رسالة أخرى مع الحجاج يستجيزه ، قال فى آخرها : « ولا يحوج — أدام الله توفيقه — إلى المراجعة ، فالمسافة بعيدة ، وقد كاتبته فى السنة الماضية ، فلم يجب بما يشفى الغليل ، وله فى ذلك الأجر الجزيل » . فرد عليه الزمخشرى فى تواضع وتهرب من الإجازة ، وقد ذكر ابن خلكان أكثر رسالة الزمخشرى ، وعقب عليها بقوله : ما أعلم هل أجازه ، بعد ذلك أو لا[5] ؟ .

وليس من شك فى أن تلاميذ كتبه كانوا كثرة ، وأن قراء مؤلفاته كانوا يقدرون علمه ، لأنه كان فى عصره كما قال القفطى علامة الأدب ، ونسابة

---

(١) معجم الأدباء ١٤/٨٥ ، وإنباه الرواة ٣/٢٦٨

(٢) معجم الأدباء ٤/٤٠٠

(٣) وفيات الأعيان ٤/٢٥٧

(٤) معجم الأدباء ١/١٠٣ ، ١٩/٢٩

(٥) وفيات الأعيان ٤/٢٥٦ ، وشذرات الذهب ٤/١٢٠ ، وبغية الوعاة ٣٨٨ ، ومعجم الأدباء ١٩/١٣٢

العرب ، وكان أعلم فضلاء العجم بالعربية فى زمانه ، وأكثرهم أنسا واطلاعا على كتبها ، وبه ختم فضلاؤهم[1] . من هؤلاء الأمير شبل الدولة أبو الهيجاء مقبل بن عطيه البكرى ، خَتَنُ نظام الملك ، فقد أرسل إليه هذه الأبيات :

هـــذا أديب فاضـــل   مثـــل الدرارى دُرَرُهْ

زمخشرىٌّ فاضـــــل   أنجبـــــه زمخشره

كالبحر إن لم أره   فقد أتانى خـــــبره

فرد عليه الزمخشرى بقوله :

شعره أمطر شِعْبى طُرَفاً   فاعتلى منه نبات الجسدِ

كيف لا يستأسد النبت إذا   بات مسقيًّا بنوء الأســد[2]

ومنهم منتجب الملك أبو جعفر محمد أحد كبراء دولة السلطان السلجوقى سنجر ، فقد بعث إليه رسالة وقصيدة وهو فى مكة ، من قصيدته قوله[3] :

إليك يهزنى الحب المطاعُ   ويسكرنى لرؤيتك النزاعُ

فهل لك يا شقيق النفس علم   بما أنبأتُ عنه واطلاع

وأنت لـكل مَنْقَبةٍ مُعانٍ   ومن دَرِّ العلوم لك ارتضاع

ولما كنتَ جار الله صارت   تسير بك الأماكن والبِقاع

تضىء بعلمك الدنيا فيضحى   له فى كل ناحيةٍ شـعاع

---

(١) إنباه الرواة ٣/٢٦٦ ، ٢٧٠ .

(٢) إنباه الرواة ٣/٢٧١ .

(٣) إنباه الرواة ٣/٢٧٢ .

الفصل الرابع

مؤلفاته

نشأ فى خوارزم ، وهى إقليم إسلامى كان جيرانه يتطلعون إلى امتلاكه ، ويودون أن يبدل أهله دينهم ، فهو يقول : « إن خوارزم ثغر من ثغور الإسلام ، قد اكتنفه أهل الشرك ، وأطافت به قبائل الترك ، فغزو أهله معهم دائم ، والقتال بينهم قائم ، قد أخلصوا فى ذلك نياتهم ، وأمحصوا عن طوياتهم ، وقد تكفل الله بنصرهم فى عامة الأوقات ، ومنحهم الغلبة فى كافة الوقعات ، ثم حصنه الله بجيحون ، بواد عَسِرِ المعبر ، بعيد المسالك ، غزير الماء ، كبير المهالك ، فلا يتوغلُه متوغل إلا خاطر بمهجته ، ولا سلك منافذه سالك إلا كان على يأس من سلامته »(1) .

وقد كان لهذا أثر عميق فى حماسة السكان وحماسة الزمخشرى للإسلام ، فهم يغارون على دينهم أن يمسه أذى أو عدوان ، وهم أيقاظ للدفاع عنه ، ولهذا جرد الزمخشرى قلمه للتأليف فى ميدان اللغة العربية والشريعة الإسلامية .

وكانت النهضة العلمية والأدبية التى بلغت أوجها فى القرن الرابع ما تزال قوية الدفع ، بعيدة الآثار ، وكانت الدول التى انفصلت من الحكم العربى كالدولة السامانية والدولة السلجوقية والدولة الخوارزمية تجد فى الازدهار

(1) ربيع الأبرار : الباب التاسع . مخطوط

العلمى والأدبى حياة لها وقوة وشهرة بحسن الأحدوثة بين الناس ، فقربت إليها العلماء ، وشجعت على التأليف والتعليم كما سبق فى تصوير الحياة الثقافية .

وكان الزمخشرى منذ صباه مشغوفا بالدرس والبحث ، وقد امتزج بالعلوم العربية والإسلامية امتزاجا شغل قلبه ، وامتلك نفسه وكان أعزب لا تصرفه عن التأليف، شواغل الآباء بالأسرة والأبناء .

لهذا كله فرغ للعلم ، فانهمرت عليه سحائب العلم ، ومنح الثقافة جهده ، فجادت عليه الثقافة بأوفر نصيب ، وحبس على التأليف نشاطه فكثرت مؤلفاته وتنوعت ، وخَلَدَ كثير منها إلى اليوم .

ويتضح من كلامه أنه كان يختص مؤلفاته بإعزازه وحبه ، حتى لقد اتخذ منها أبناءه البررة ، واستعاض بها عن النسل ، وفضلها على البنين والبنات، لأنها مبرأة من العقوق والمشاكسه ، فقال(1) :

بَنِىَّ فاعلم بناتُ فكرى ... حَصَانهم أمّة الدراسة(2)
أبنــاء صدقٍ لهم نفوسٌ ... وُصِفْن بالفضل والنفاسه
حُماةُ عرضى محصّنوه ... فى كَنَف الصون والحراسه
برٌّ صريحٌ بلا عقــوق ... خلق صحيح بلا شَكاسه
ما نَسْلُ قلبى كنسل صلبى ... من قاس رُدَّ له قياسه
كم بين ذى مسلك طهور ... وسالكٍ مَسلك الخساسه
مَنْ ساس أبنــاءه فإنَّا ... لهؤلاء البنين ساسه

(1) ديوان الزمخشرى ٢٦ .
(2) يريد أن أمهم العفيفة هي الدراسة .

وقد ذكر مؤلفاته أكثر الذين ترجموا له[1]، وسأذكرها مسلوكة فى مجموعات، متناسقة ثم أعرض لها بالتحليل فيما بعد :

(١) فى العلوم الدينية ورجالها

١ — الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل.

طبع أول مرة بالمطبعة البهية المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ فى مجلدين، وبهامشه كتاب (الانتصاف من الكشاف) لناصر الدين أحمد ابن محمد بن منصور الإسكندرى المالكى المشهور بابن المُنَيِّر، ثم طبع بعد ذلك.

٢ — رءوس المسائل (فى الفقه) غير معروف

٣ — معجم الحدود (فى الفقه) غير معروف .

٤ — المنهاج (فى الأصول) غير معروف .

٥ — ضالة الناشد والرائض فى علم الفرائض . غير معروف .

٦ — مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة . (الأصل لأبى سعيد الرازى إسماعيل . غير معروف) .

٧ — شقائق النعمان فى حقائق النعمان (فى مناقب أبى حنيفة) . غير معروف .

٨ — شافى العى (أو العيى) من كلام الشافعى . غير معروف .

---

(١) وفيات الأعيان ٤/٢٥٤ ، ومعجم الأدباء ١٩/١٣٤ ، وشذرات الذهب ٤/١١٩ وبغية الوعاة ٣٨٨ ، وإنباه الرواة ٣/٢٦٦ ، ولسان الميزان ٦/٤ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ٣/٤٨ .

٩ — رسالة فى حكمة الشهادة ، وأخرى فى نص العشرة ، ذكرهما جرجى زيدان ، وقال إنهما مخطوطان فى برلين .

(٢) فى اللغــة

١٠ — أساس البلاغة .

طبع فى مجلدين بمطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٣٤١ هـ — ١٩٢٢ م.

١١ — الفائق فى غريب الحديث .

طبع فى حيدر آباد فى مجلدين سنة ١٣١٤ ، وطبع فى ثلاثة مجلدات بمطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة ، بتحقيق الأستاذين على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم من سنة ١٣٦٤ هـ — ١٣٦٧ هـ (١٩٤٥ — ١٩٤٨ م) .

١٢ — الجبال والأمكنة والمياه .

طبع فى ليدن سنة ١٨٨٥ م فى مجلد واحد عدد صفحاته ١٦٩ . مضافاً إليها فهارس فى ٣٢ صفحة وترجمة إلى اللاتينية فى ٣١ صفحة .

١٣ — أعجب العجب فى شرح لامية العرب .

طبع الطبعة الأولى بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية

وطبع الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ فى ٦٦ صفحة من القطع المتوسط.

١٤ — شرح مقامات الزمخشرى .

طبع الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٣١٢ هـ ، والطبعة الثانية بمطبعة التوفيق بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ فى ٢٣٨ صفحة من القطع المتوسط .

١٥ — المستقصى فى أمثال العرب .

يحتوى على ٣٤٦١ مثلا ، طبع الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند سنة ١٣٨١ هـ ١٩٦٢ م فى مجلدين كبيرين .

١٦ — جواهر اللغة . غير معروف.

وجاء فى أسماء مؤلفاته كتاب الأسماء ، وأرجح أنه جزء من مقدمة الأدب، لأن القسم الأول فى الأسماء ، والقسم الرابع فى تصريف الأسماء

١٧ — متشابه أسامى الرواة. غير معروف . ولعله المقصود بقول ابن حجر العسقلانى رأيت له مصنفاً فى المشتبه فى مجلد واحد، وفيه فوائد جليلة.

١٨ — صميم العربية . غير معروف .

١٩ — معجم عربى فارسى . نشره فتز شتاين . ليبزج سنة ١٨٤٣[1] .

(٣) فى النحو

٢٠ — المفصل .

ترجم إلى الألمانية وطبع سنة ١٨٧٣ ، وطبع فى كريستيانا سنة ١٨٧٩ م ، وطبع مع شرح موفق الدين يعيش بن على بن يعيش فى ليبسيك سنة ١٨٨٢م ، وبإدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة فى عشرة أجزاء .

٢١ — الأنموذج .

وهو مقتضب من المفصل ، طبع أول مرة بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ فى ٢٣ صفحة ملحقاً بكتاب (نزهة الطرف فى علم الصرف) لأبى الفضل أحمد بن محمد الميدانى ، وبعده كتاب (قواعد الإعراب) لجمال الدين أبى محمد عبد الله بن يوسف بن هشام ، وطبع بمصر سنة ١٢٩٨ هـ .

٢٢ — شرح أبيات كتاب سيبويه .

غير معروف . وليس شرحاً لكتاب سيبويه كما فى بعض المراجع ، لأن الزمخشرى نفسه ذكر اسم كتابه كذلك[2].

٢٣ — المحاجاة بالمسائل النحوية أو الأحاجى النحوية.

---

(١) تاريخ الأدب فى إيران ٤٥٩ .

(٢) ديوان الزمخشرى ٢٣ .

مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٨ ش نحو ، ١١٦ مجاميع ، وهو فى ٢٧ ورقة فى مخطوطة الشنقيطى و ٢٥ فى المجاميع .

وهذا الكتاب ألغاز ومسائل نحوية يقصد بها المعاياة والأفاكيه .

٢٤ — مقدمة الأدب .

أكثره فى النحو ، طبع القسم الأول والثانى منه فى مجلد واحد فى مدينة ليبسيك سنة ١٨٤٣ م وطبع الباقى سنة ١٨٥٠م ، وبدار الكتب القسم الثانى والثالث والرابع والخامس فى مخطوط ٢٧٢ لغة فى ٢٢٠ ورقة (٤٤٠ صفحة) وبين سطور القسمين الأول والثانى ترجمة فارسية للكتاب .

٢٥ — نكت الأعراب فى غريب الإعراب (فى غريب إعراب القرآن) غير معروف .

٢٦ — الأمالى فى النحو . غير معروف .

٢٧ — المفرد والمركب أو والمؤلف . غير معروف .

٢٨ — شرح بعض مشكلات المفصل . غير معروف .

(٤) فى العروض

٢٩ — القسطاس . ذكر جرجى زيدان أنه مخطوط فى برلين وليدن .

(٥) فى الأدب

٣٠ — نوابغ الكلم .

حكم قصار متوالية ، طبعت الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤م) فى ٥٠ صفحة من القطع الصغير ، وطبعت طبعة أخرى بمصر سنة ١٩٢٧ م وطبعت فى باريس مع ترجمة إلى الفرنسية سنة ١٨٧٦ م بتحقيق س. كاربيير مينارد ، وطبعت فى إستانبول وبيروت.

٣١ — مقامات الزمخشرى .

خمسون مقامة فى النصح والإرشاد ، موجهة كلها إلى نفسه ، ولكل منها عنوان . وقد شرحها بقلمه ، وطبعت مع شرحه لها [رقم ١٤ فى مؤلفاته]

٣٢ — أطواق الذهب .

مئة مقالة فى المواعظ والنصائح والحكم ومكارم الأخلاق ، كل منها فى بضعة أسطر ، وليست معنونة. ترجم إلى الألمانية ، وطبع مع الأصل فى فينا سنة ١٨٣٥م وفى ستتجارت سنة ١٨٦٣ م، وترجم إلى الفرنسية وطبع فى باريس سنه ١٨٧٦ م ، وطبع بشرح الشيخ يوسف أفندى الأسير ، الطبعة الثالثة ببيروت سنة ١٣١٤ ﻫ فى ١١٢ صفحة من القطع المتوسط ، وطبع بشرح الميرزا يوسف خان بن اعتصام الملك بعنوان (قلائد الأدب فى شرح أطواق الذهب) بمطبعة التمدن بمصر فى ١٥٤ صفحة من القطع المتوسط سنة ١٣٢١ ﻫ

٣٣ — ديوان الزمخشرى .

مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٩ أدب فى ١١٩ ورقة (٢٣٨ صفحة) من القطع الكبير .

٣٤ — القصيدة البعوضية وأخرى فى مسائل الغزالى . مخطوط فى برلين .

٣٥ — ربيع الأبرار ونصوص الأخيار .

مختارات شتى من الأدب والتاريخ والعلوم ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٥ أدب فى ٤٠٢ ورقة (٨٠٤ صفحة)، وله مختصرات كثيرة ، وطبع بالقاهرة .

٣٦ — النصائح الصغار والبوالغ الكبار .

ذكر بعض مؤرخى الزمخشرى أن له كتابين أحدهما النصائح الكبار، وقال جرجى زيدان إنه مطبوع بالقاهرة ، والآخر النصائح الصغار ، وقال جرجى زيدان إنه مخطوط فى برلين وفى المتحف البريطانى .

ولكنى وجدت الكتاب بهذا الاسم (النصائح الصغار والبوالغ الكبار) مخطوطاً بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٣٤٧٨ز مع نوابغ الكلم ، فى ١٦ ورقة ، وفى نهاية الكتاب فصل به مئة حكمة للإمام على بن أبى طالب .

٣٧ — نزهة المستأنس. مخطوط فى أيا صوفيا

٣٨ — ديوان الرسائل. غير معروف

٣٩ — ديوان خطب . غير معروف

٤٠ — ديوان التمثيل . غير معروف

٤١ — تسلية الضرير . غير معروف

٤٢ — رسالة الأسرار . غير معروف

٤٣ — الرسالة الناصحة . غير معروف

٤٤ — سوائر الأمثال . غير معروف

٤٥ — رسالة المسأمة. غير معروف

(٦)

٤٦ — عقل الكل . غير معروف

٤٧ — كتاب الأجناس . غير معروف

وربما كان الكتابان الأخيران فى المنطق .

الفصل الخامس

معالم شخصيته

تطلق الشخصية على مجموعة الصفات الجسمية والعقلية والخلقية التي يتصف بها الإنسان، سواء أكانت حسنة أم قبيحة.

وكثيرا ما يتميز إنسان من غيره بالطابع العام لهذه الصفات.

وهذه الشخصية لها مصدران: الفطرة، والتربية، فهي إذن موهوبة ومكتسبة، ولكن الفطرية أقوى.

وليس معنى هذا أن نغض من أثر التربية، لأنا لو اعتمدنا على الهبات الفطرية وحدها لصرنا ضحايا الظروف، ولفقدت التربية آثارها في بناء العظماء من رجال العلم والأدب والدين والفن.

ولهذه الشخصية عناصر أساسية تقوم عليها: منها الذكاء، والجاذبية، والمشاركة الوجدانية، والشجاعة، والحكمة، والتفاؤل، والتواضع، وقوة البيان، والثقة بالنفس والاعتماد عليها، واعتدال المزاج، والمظهر العام للجسم وحسن الهندام [1].

فهل نستطيع تصوير الرجل على حقيقته، ونكشف عن معالم شخصيته، فيتبين منها المحمود وغير المحمود؟ لأنه إنسان تغلب قوته ضعفه آنا، ويغلب ضعفه قوته آنا آخر، ولأنه من الخطأ أن يتكلف مؤرخ لشخص أن يضفي

(١) راجع في علم النفس ٣ / ٢٧٠.

عليه هالة من الجلال والكمال، فإذا اعترضه عيب تغاضى عنه، أو تلمس له دفاعا قائما على التعمل ومجافاة الحق، فإن هذا نهج متحيز ينكره البحث العلمي المنصف.

فلننتقل الآن إلى إبراز المعالم العامة التي نعرفها من شخصية الزمخشري.

(١) صفاته الجسدية

لم أجد فيما كتب عنه شيئا يمت إلى صفاته الجسدية من قرب ولا من بعد، لأن كتاب التراجم القدماء كانوا كثيرا ما يتجاوزون هذه الأوصاف، إذ كانت في نظرهم غير وثيقة الصلة بالشخصية التي يترجمون لها.

والشيء الوحيد الذي عرض له كثير من مؤرخيه أنه كان أعرج يمشي في رجل من خشب، لأن رجله قطعت في سفرة من أسفاره كما سيجيء.

ولعله قصد نفسه بقوله « كم رأيت من أعرج، في درج المعالي أعرج، ومن صحيح القدم، ليس له في الخير قدم » [1].

(٢) شغفه بالثقافة

كان الزمخشري ذكيا ومشغوفا بالثقافة، تبشر مخايله بمستقبل واعد، حتى لقد أعجب أستاذه أبو مضر بذكائه وجده، فتعهده برعايته وتوجيهه، وساعده بماله مؤملا أن يخلفه.

وكانت بيئته الخاصة والعامة مذكية لهذا الشغف، فدرس في زمخشر أول مادرس، ثم شخص إلى بخارى لينهل من مناهلها، ثم زار بغداد والشام ومكة،

(١) نوابغ الكلم ١٤ أعرج الثانية: أرقى وأصعد.

وسمع من بعض العلماء ، وقرأ كثيرا من الكتب ، وبلغ من كلفه بالثقافة أنه وهو فى السادسة والستين ـ كما ذكر القفطى [١] ـ قرأ بعض كتب اللغة على أبى منصور الجواليقى مستجيزاً لها .

ومن السهل أن نعرف من أسماء أساتذته ومن مؤلفاته أنه درس اللغة ، والنحو ، والعروض ، والأدب ، والبلاغة ، والتفسير ، والقراءات ، والحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والمنطق ، دراسة المتذوق المتعمق ، ولهذا اعتز بدراساته ومؤلفاته ، وافتخر بها فى قوله [٢] :

تراني فى علـــــم المنزّل عالماً ... وما أنا فى علم الأحاديث راسفا
فللسُّنةِ البيضاء فىَّ مناجحٌ ... ويَبْغى كتابُ الله منى المعارفا
وما أنا مِن عِلم الديانات عاطلاً ... فأحْسَنُ حَلْى لم يزَل لى شانفا
وما لِلغاتِ العرب مِثلى مُقَوِّمٌ ... أبَى كل نَدْب متقن أن يُخالفا
وبى يستفيد النُّحو من أن يسوسه ... نُهىً لم يجدها الذائقون حصائفا
وعلما المعانى والبيان كلاهما ... أزُفُّ إلى الخطاب منه وصائفا
وعلم القوافى والأعاريض شاهدٌ ... بفُسحة خطوى فيه إذ كنت زاحفا
أقرَّتْ بى الآداب أصلاً لها ومَن ... رأى مَشْرَفيّاتٍ جَحَدْن المشارفا
وديوان منظومى يُريك بدائعاً ... وديوانُ مَنثورى يُريك طرائفا

ويظهر من مؤلفاته أنه لم يستوعب أكثر ثقافة عصره فحسب ، بل ساهم فى حقولها بشجرات شهيات الثمرات ، وقد سبقت هذه المؤلفات التى نستطيع منها تقسيم ثقافته إلى عدة مناح : فناحية دينية تتمثل فى تفسيره (الكشاف) بما

(١) إنباه الرواة ٣/٢٧٠ .
(٢) ديوان الزمخشرى ٧٨ .

تضمن من مسائل شتى ، منها علم الكلام ، والفقه ، وتتمثل فى مؤلفاته التسعة ، وجانب لغوى تمثله مؤلفاته العشرة ، واتجاه أدبى يتضح فى كتبه الستة عشر ، وإحاطة بالنحو تنبىء عنها تسعة كتب ، ومساهمة فى العروض بكتاب واحد ، وكتابان لم يصلا إلينا ، ولم أستطع معرفة موضوعهما ، لعلهما أو لعل أحدهما فى المنطق .

على أنه كان يتقن اللغة الفارسية ، فقد ألف معجما بالفارسية والعربية طبع فى ليبزج سنة ١٨٤٣ م كما أن القسم الأول والثانى من كتابه (مقدمة الأدب) وهما فى الأسماء والأفعال باللغة العربية واللغة الفارسية

وهذه الكتب السبعة والأربعون التى منها الكبير ومنها الصغير خير شاهد بالصدق على أن الزمخشرى كان متنوع الثقافة ، وأنه وهب الدين والعلم واللغة والأدب جهوده وحياته ، هبة الباذل المكلف الراغب فى مضاعفة البذل والسخاء .

على أنه لم يكن مثل بعض المؤلفين جماعا للمعارف ، لاجهد له إلا التنسيق أو الاختيار ، بل كان حر الفكر ، وكان صاحب كثير من الآراء المبتكرة ، كما سيتجلى من تحليل كتبه .

وكان إلى ذكائه وسعة اطلاعه قوى الحجة ، قديرا على استنباط المعانى ، بارعا فى الجدل ، حتى لقد طبق تفسيره وتأويله للقرآن الكريم على مذهب المعتزلة تطبيقا لم يسبق إليه على هذه الصورة الكاملة ، ولم يجىء بعده من صنع صنعه .

(٣) اعتزاله

كانت خوارزم ـ كما سبق ـ تموج بالاعتزال ، وتعج بالمعتزلة ، وقد ولد الزمخشرى بها ، ونشأ فى ربوعها ، ودرس دراسته الأولى على علمائها ، وكان

« أبو مضر » أحبَّ أساتذته إلى قلبه ، وأعظمهم تأثيرا فى عقله ، وهو معتزلى كما تقدم .

وكان الزمخشرى بطبعه كلفا بحرية الرأى ، ميالا إلى عمق الفكر وتقليب وجهات النظر، وإلى المناقشة والجدل ، فهو يقول [1] :

« لاتقنع بالرواية عن فلان وفلان ، وامش فى دينك تحت راية السلطان [2] ، فما الأسد المحتجب فى عرينه أعز من الرجل المحتج على قرينه ، وما العنز الجرباء تحت الشمال البليل أذل من المقلد بين يدى صاحب الدليل ، وجامع الروايات المحوية ، ولا حجة عنده مقوية ، أوقر ظهره بالحطب ، واعتقل زَنْده بلا سبب.

لم أر فرسَىْ رهان مثل الحق والبرهان ، لله درّهما متخاصمين ، ولاعدمتهما متناصرين . . من شدّ يَدَيْه بغرْزها فقد اعتز بعزها ، ومن زل عنهما فهو من الذلة أذل ، ومن القلة أقل » [3] .

لهذا دان الزمخشرى بالاعتزال ، ونافح عنه ، وطبق على مذهب المعتزلة تأويله للقرآن الكريم — كما سيجىء — وكان يجد راحة نفسه فى إعلان مذهبه ، حتى نقل عنه أنه إذا قصد صاحبا له واستأذن عليه فى الدخول قال لمن يأخذ له الإذن : قل له : أبو القاسم المعتزلى بالباب [4] .

وذكر ابن خلكان أن الزمخشرى لما كتب التفسير قال فى استفتاح الخطبة « الحمد لله الذى خلق القرآن » فقيل له : إن تركته على هذه الهيئة هجره الناس ، ولم يرغب فيه أحد ، فغيره بقوله : « الحمد لله الذى جعل القرآن » لأن جعل

(١) أطواق الذهب ٧١ .
(٢) السلطان : المراد العقل .
(٣) قلائد الأدب فى شرح أطواق الذهب ٧١ .
(٤) وفيات الأعيان ٤/٢٥٥ ، وشذرات الذهب ٤/١٢٠

عند المعتزلة بمعنى خلق . ورأيت كثيراً من النسخ فيها « الحمد لله الذى أنزل القرآن » وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف [1] .

والنسخ المطبوعة تبدأ بهذا التعبير الذى ذكر ابن خلكان أنه من إصلاح الناس « الحمد لله الذى أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما ، ونزله بحسب المصالح منَجَّما ، وجعله بالتحميد مفتتحا ، وبالاستعاذة مختتما » [2] .

وأرجح أن هذه دعوى لا صحة لها ، لأن الزمخشرى لم يكن ليفر من التعبير بأنزل وهو يعلم أن القرآن الكريم يردد هذا التعبير فى كثير من سوره ، مثل قوله تعالى : «هو الذى أنزَلَ عليكَ الكتابَ منه آياتٌ مُحكَمَاتٌ» [3] . وقوله : «وأنزَلَ اللهُ عَليكَ الكتابَ والحكمَةَ وعَلَّمكَ مالم تكُنْ تعلم » [4] . وقوله : « قُلْ مَنْ أنزَلَ الكتابَ الذِى جاء بِهِ مُوسَى نُوراً وهُدًى للنَّاس» [5] .

وقد نفى الفيروزابادى صاحب القاموس المحيط هذه الدعوى فقال فيما كتبه على خطبة الكشاف: قال بعض الطلبة ، وأثبته بعض المعتنين بالكشاف فى تعليق له عليه : إنه كان فى الأصل كتب (خلق) مكان (أنزل) ، وأخيراً غيره المصنف أو غَيْرهُ حذراً عن الشناعة الواضحة .

وهذا قول ساقط جداً ، وقد عرضته على أستاذى فأنكره غاية الإنكار ، وأشار إلى أن هذا القول بمعزل عن الصواب لوجهين :

(١) وفيات الأعيان ٤/٢٥٥ .
(٢) الكشاف ١/٢ .
(٣) سورة آل عمران : ٧ .
(٤) سورة النساء ١١٣ .
(٥) سورة الأنعام ٩١ .

أحدهما : أن الزمخشري لم يكن أهلا لأن تفوته اللطائف المذكورة في أنزل وفي نزّل في مفتتح كلامه ، ووضع كلمة خالية من ذلك .

والثاني : أنه لم يكن يأنف من انتمائه إلى الاعتزال ، وإنما كان يفتخر بذلك ، وأيضاً أتى عُقَيْبَه بما هو صريح في المعنى – إذ قال : أنشأه كتاباً ساطعاً بيانه(1) – ولم يبال بأنه قبيح .

وقد رأيت النسخة التي بخط يده بمدينة السلام مختبئة في تربة الإمام أبي حنيفة ، خالية من أثر كشط وإصلاح(2) .

(٤) عزة نفسه

لقد كان إلى تقواه وتواضعه أبيّ النفس ، يأنف من الضيم ، ويؤثر الغربة على الإقامة في وطنه إن لم يتبوأ المكان اللائق به ، فيرحل إلى حيث يستمتع بالتكريم ، ويشعر بالاعتزاز .

وقد سبق في حياته أنه مدح نظام الملك وشكا إليه ، ونوه بعلمه وأدبه ، وجعلهما قرابة وشيجة بينه وبين الوزير الكبير ، ولم يكتف بهذا ، بل عرّض بتقصير الوزير في رعايته ، وختم القصيدة بالاعتداد المقرون بتحدى نظام الملك أن يجد له نظيراً في جميع من يرى ، ثم هدده بالرحيل عن خوارزم كلها إذا لم يسعفه بما يريد ، ولامه على أنه ضيع آماله ، على حين أن من هم دونه ظفروا بما لم يظفر به :

وما حق مثلي أن يكونَ مُضَيَّعاً   وقد عظمتْ عند الوزير وسائلي

(1) في المقدمة : أنشأه كتاباً ساطعاً تبيانه، قاطعاً برهانه.
(2) كشف الظنون ٢/٣١٥ .

وأعظمها أني نسيبُ نصابه   إذا عُرِضَتْ أنساب هذي القبائل
فكلُّ امرىء آماله عدد الحصا   وهات نظيري في جميع المحافل
لئن كان أمري في خوارزم ما أرى   فإنّ رحالي في ظهور الرّواحل(1)

فلما صوح أمله اعتزم الرحيل من خوارزم على كره منه ؛ لأن البلد الذي يكفل له الكرامة والتقدير خير له من وطنه الجاحد :

أحبُّ بلاد الله شرقاً ومغرباً   إليّ التي فيها غُذيتُ وليداً
ولكن تُواسِي بالكرامة غيرُها   وهذي أرى فيها الهوان عتيداً(2)

ولم يلبث بعد تطوافه بخراسان وأصفهان أن مرض مرضا سماه ناهكاومنذرا، فعاهد الله أنه إن برىء فلن يتصل بسلطان ولا بتابع من أتباع سلطان ، وأن يهب العلم والتأليف جهده ووقته .

وهنا قد يخطر هذا السؤال : كيف سولت للزمخشري نفسه أن يمدح السلاطين والوزراء ويشكو حالته ، ويجهر بمطالبه ؟

وجواب ذلك أنه – كما صور حاله – فقير ،وهو إلى فقره عالم أديب ذكي، غلب عليه في شبابه الطموح إلى الشهرة ، والنزوع إلى الثراء ، والتطلع إلى الجاه، وكان يرى أنه أجدر بالرعاية ممن تستعين بهم الدولة ، وتكل إليهم شئونها ، أو تثيبهم وترعاهم بوسائل شتى ، وبخاصة قبل أن تتقدم به السن ، ويغلب عليه الزهد في مباهج الحياة .

ولقد رأى المال في عصره بأيدي المتسلطين والمنتهزين ، وفي حوزة الذين

(1) ديوان الزمخشري ٩٥ .
(2) الديوان ٣٧

واتاهم الحظ بالمناصب والسلطان ، ورأى الجاه حكرةً للمقربين إلى الحكام ، والمتزلفين إلى ذوى الجاه .

وما من شك فى أنه كان يوازن بين شقائه وسعادتهم ، وبين علمه وجهل كثير منهم ، وبين كفايته وعجز الآخرين .

وهذه الموازنات شوقته إلى المال وإلى الجاه ، فطمع فى هبات السلاطين والوزراء على عادة كثير من العلماء والأدباء فى ذلك العصر وفيما قبله وبعده .

وستأتى فى دراسة شعره موازنة بينه وبين بعض الشعراء فى الطلب الصراح.

على أن عزة نفسه كانت تتجلى فى مدائحه وشكاواه ، فلا يفتأ ينوه بعلمه ، ويُدِلُّ بكفايته ، ويعتد نفسه صاحب جهد يستحق التقدير ، وصاحب حق على الدولة ينبغى أن تقوم به وترعاه .

وإنه ليعزز هذا ما سبق فى التعريف بنظام الملك وزير السلاجقة من حَدَب على العلماء ، وتشجيع للأكفاء .

ويبدو لى أن الزمخشرى يشبه سلفه أباحيان التوحيدى (المتوفى سنة ٤١٤هـ) فى أن كليهما سبق عصره بما نسميه اليوم (منحة التفرغ) ، وهى فكرة كانت بعيدة عن الأذهان فى عصريهما ، ولم تعرف إلا منذ سنوات .

ذلك أن الدولة تكفل اليوم لكثير من أصحاب المواهب أرزاقهم زمناً معيناً ، ليفرغوا لعمل أدبى أو فنى أو علمى ، لأنه ليس أقتل للشغف بالإنتاج من زحمة الوقت بالعمل لكسب الرزق .

والدولة إذ تختص اليوم أناساً بمنحة التفرغ لا تتوخى إلا مايعود على الوطن كله بالخيرات ، لأن هؤلاء المتفرغين لا يختصون فرداً أو جماعة بما تجود به قرائحهم من ثمرات .

(٥) بين الطموح والقناعة

١ – مازال الزمخشرى إلى الخامسة والأربعين من عمره تواقا إلى المنصب ، مشتاقا إلى المال ، متعلقا بالشهرة ، يعتقد أن علمه وأدبه وكفايته هى الوسائل إلى ظفره بما يأمل .

وأغلب الظن أن مرد هذا إلى المنافسات التى علا دَوِيُّها بين علماء العصر وأدبائه ، فكل منهم يُزْهَى بما نال من جاه وأحرز من منصب ، وإلى أن الزمخشرى كان فى هذه السن يستجيب لآماله ولا يكبحها ، وكان يبتغى من الوظيفة والمال والجاه الطمأنينة التى تكفل له التفرغ إلى العلم والأدب ، إذ كان فقيراً رعاه بماله أستاذه أبو مضر ، كما تحدث هو بذلك[1] ، وطالما شكا الفقر فى قصائده ، وكاشف به نظام الملك مكاشفة المعتد بنفسه وبعلمه الذى لا يجد فى الفقر عابا ، لأنه ليس من صنعه ، كقوله لنظام الملك[2] :

غنىٌّ من الآداب لكننى إذا ... نظرت فما فى الكف غير الأنامل

وقوله[3] :

أشكو الزمان ولا أرى لى مُشْكِيا ... ممن يرى شَعَثى ورقّة حالى
يا حسرتا مَنْ لى بصفقة رابح ... فى مَتْجَرٍ والفضل رأس المال
يا ويح أهل العلم كيف تأخروا ... والسبق كل السبق للجهال
فى ذمة الأيام لى دَيْنٌ متى ... أستَقْضِيه لاقيت طول مطال
فإلى إلهى المشتكى وبصنعه ... دون الأنام منوطة آمالى

(١) الديوان ٩١
(٢) الديوان ٩٤
(٣) الديوان ٩٥

وكثيراً ما نوه بعلمه وفضله فى مدائحه وشـكاواه قبل أن يتخطى الخامسة والأربعين من عمره ، كقوله فى قصيدة مدح بها نظام الملك[(١)] :

ومما شجانى أن غُرّ مناقبى   تغنّى بهـا الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى   وسارت مسير النَّيِّرات رسائلى
ولى فى دقيق النحو والنقد منطق   إذا قلته لم أُبْقِ قولاً لقائل

وقوله لمجير الدولة[(٢)] :

فمن مبلـغ عنّى الوزير بأننى   كفيل بغادٍ من ثناه ورائح
فليت رحالى أُلْقِيتْ بفنـــائه   فأرْتَع فى نعــمائه غير نازح
ويقدح زَنداً وارياً من مناقبى   إذا صَلَدَتْ كل الزناد لقادح
وفى شرحِ أبيات الكتاب[(٣)] لبعض ما   يرى فى صفاتى مجملاً أىُّ شارح
وأنموذجاً[(٤)] أنفذت منه يضمه   رجائى أرى فيه وجوه المناجح

ولعله اقتدى فى فخره بالمتنبى حيث يقول[(٥)] :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى   إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسـار به من لا يسير مشمراً   وغـنّى به من لا يغنى مغردا

وحيث يقول[(٦)] :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى   وأسمعتْ كلمـاتى مَنْ به صَمَمُ
أنام ملءَ جفونى عن شوَاردِها   ويسهـر الخلق جرّاها ويختصمُ

(١) الديوان ٩٤
(٢) الديوان ٢٣
(٣) يقصد شرحه لكتاب سيبويه
(٤) يقصد كتابه الأنموذج فى النحو
(٥) ديوان المتنبى ١/١٩٣
(٦) ديوان المتنبى ٢/٢٦١

والزمخشرى يقرن فخاره هذا بسخريته من الحياة ، التى لم تنوله ما نولت سواه ، وبسخطه على الزمن الذى قَتَّر عليه ، وسخا على الذين هم دونه فضلاً وعلماً وكفاية ، كقوله[(١)] :

خليلىَّ هل تجـدى علىَّ فضائلى   إذا أنا لم أُرْفَعْ على كلِّ جاهِلِ؟
من الغبن ذو نقص يصيب فضائلاً   أخو الفضل محقوقٌ بتلك الفضائل
كذا الدهر كم شوهاء فى الحُلى جيدها   وكم جيد حسـناء المقلَّدِ عاطل
فياليتنى أصبحت مستغنياً ولم   أكن فخر خُوارَزْم ورأس الأفاضل
ويا ليتنى مُرْضٍ صديقى ومسخطٌ   عدوى وأنى فى فهاهــة باقل
فلستُ بفضـلى بالغاً ولو اننى   كقُسٍّ إياد أو كسَحْبان وائل

وفى هذه المرحلة من حياته كان يُقرّع معاصريه ، ويقسو على مواطنيه ، ويصفهم باللؤم والغباء والجهل ، كقوله فى مدح أحمد بن محمد بن على[(٢)] :

لولاك يا بن الفضل لم آكُ قاطناً   فى بلدة جارت على أمثـــالى
فى أرض خُوارَزم كريم واحد   ودَع اللئـام فهم عديد رمال
وإذا وجدت الرَّبْعَ أصبح آهلاً   بسوى الكرام فذاك ربع خالى

وقوله فى مدح نظام الملك[(٣)] :

لئن كان أمرى فى خوارزم ما أرى   فإن رحالى فى ظهور الرواحل

وقوله فى قصيدة لصدر الملك الوزير[(٤)] يدافع عن نفسه ويبرر رحيله من خوارزم :

وتَرحالُها ليس اغترابًا وإنمـــا   إقامتهـــا فى الناقصين اغترابها

(١) الديوان ٩٤
(٢) الديوان ٩٥
(٣) الديوان ٩٤
(٤) الديوان ١٢

ونستطيع أن نستشف من لومه نفسه بعد ذلك أنه كان يهش إلى الثناء ، وذيوع الصيت ، ووصفه بالتفوق فى اللغة والنحو والبلاغة والعروض والشعر والنثر والعلوم الشرعية ، مثل قوله فى مقامة العمل (١) :

« يا أبا القاسم لا تسمع لقولهم : فضل مبين ، وأدب متين ، واسم فى المهارة بهما شهير ، وصيت فى إتقانهما جهير ، وفتى طَيَّان (٢) من المناقص والرذائل ، رَيَّانُ من المناقب والفضائل ، إن ذُكِرَ مَتْنُ اللغة فحِلْسٌ من أحلاسه (٣) ، أو قياسها (٤) فسائس أفراسه ، أو النحو فهو سيبويه وكتابه ، ينطق عنه تراجمه وأبوابه ، فمن مساجِلُه ومُسانيه (٥) ، ومزاوله ومُعانيه ، ومن يغوص على معان كمعانيه ؟ أو نقدُ الكلام فالنَّقَدة إليه كأنهم النَّقَد (٦) ، وقد عاث فيه الذئب الأعقد (٧) ، أو العروض فابن بَجدَتها (٨) ، وطلاع أنجدتها ، أو القوافى فإبداعه فيها يلقِّطُك ثمرات الغراب (٩) ، وإغرابه فيها يحثو التراب فى وجوه أهل الإغراب ، أو الشعر فزيادهْ (١٠) وحسانه ، وإحسانه كأدبج الروض نيسانه (١١) ، أو النثر . . . . أو معرفة الكتابة والخط فقد لجج (١٢)

(١) المقامات ٩٨ .

(٢) طيان من المناقص : مجاز عن خلوه منها ونزاهته .

(٣) فارس من فرسانه من قولهم للعارف بركوب الخيل المعاود له هو من أحلاس الخيل شبه فى ثباته على متن الفرس بالحلس الذى يجلل به .

(٤) أراد بقياس اللغة علم الاشتقاق ، ويسمى علم المقاييس والأبنية علم التصريف الذى هو أدق شطرى النحو وأغوصهما ، وإلا فكان حقه أن يقدم ، لأن علم ذوات الكلم مقدم على علم أصولها .

(٥) المساجل : المبارى فى السقى من السجل وهو الدلو . المسانى : مثله من السانية .

(٦) النَّقَد : جنس قبيح من الغنم .

(٧) الأعقد : الملتوى الذنب .

(٨) يقال للدليل الماهر هو ابن بجدتها وهو من بجد بالمكان إذا أقام به .

(٩) ثمر الغراب مثل فى الطيب المنتقى لأنه لا يأكل من الثمر إلا أعلاه وأينعه .

(١٠) زياد : النابغة الذبيانى .

(١١) نيسانه : المراد الربيع .

(١٢) لجج : خاض اللج .

وترك الناس على الشط ، أو حفظ ما يحاضر به فَصَيِّبٌ يفيض وبحر لا يغيض ، وليس بعريان كعود النبع من ثمر علوم الشرع » .

٢ — لكن الزمخشرى يئس ، أو قاربه اليأس ، فى الوقت الذى مرض فيه مرضاً ظنه قاضياً سنة ٥١٢ هـ ، فبصر بما لم يكن يبصر به من قبل ، وعلم أن المنصب حلية الخامل ، وأن المال ظل زائل ، فندم على ما أنفق من عمره فى طلبهما ، وقصر على الإنتاج العلمى والأدبى جهوده ، وجعله وسيلته وغايته .

وحينئذ بدأت مرحلة القناعة والرضا ، وجعل الزمخشرى يردد نصائح هى أقرب ما تكون إلى الزهد والتصوف ، حتى لقد سمى بعض مقاماته مقامة القناعة ، وسمى أخرى مقامة الزهد ، وسمى ثالثة مقامة العزلة ، وسمى رابعة مقامة الخمول ، وفى هذه المقامة يقول (١) : « يا أبا القاسم ، يا أسفى على ما أمضيت من عمرك ، فى طلب أن يشاد بذكرك ، ويشار إليك بأصابع بنى عصرك . عَنيتَ على ذلك طويلا ، فما أغنيت عنك فتيلا (٢) . وما أدراك يا غافل ما الكامل ؟ الكامل هو العامل الخامل ، الذى هو عند الناس منكور ، وهو عند الله مذكور » .

وقال فى مقدمته : « اللهم إنى أحمدك . . . فككت من رقّ التبعات عنقى ، ومننت بحل إسارى وعتقى ، ورقيتنى إلى رتبة القناعة وهى الرتبة العليا ، وزهدتنى فى الحرص على زخارف الدنيا »

وقال : (٣) « آثر الخمول على النباهة ، واسحب الستر على الوجاهة ، تعش أنجى من أظفار المحن ، وأنأى من إضمار الإحن ، وإن ذا الشرف محسود

(١) مقامات الزمخشرى ١٧١ .

(٢) الفتيل : ما فى شق النواة مثل الشعرة .

(٣) قلائد الأدب فى شرح أطواق الذهب ٢١ ، وأطواق الذهب ١٤ .

أو حاسد، محقود عليه أو حاقد. وتلك بلية تتقلقل تحتها الأحشاء، ويفعل الله فيها ما يشاء»

وقال في مقامة القناعة[١]:

«يا أبا القاسم اقنع[٢] من القناعة[٣] لا من القنوع، تستغن عن كل معطاء ومنوع، لا تُخْلِقْ أديم وجهك إلا عند من خلقه وخلقك، ولا تسترزق الامن رزقه وإن شاء رزقك. القناعة مملكة تحتها كل مملكة، لا سبيل عليها المهلكة، لا يتوقع صاحبها أن يفتقر بعد غُنْيته، ولا يقع النفاد في كنزه ومُنْيته».

(٦) تدينـــه

هذا العلامة البصير بعظمة الإسلام، الخبير بخصائصه، الغيور على حماه، المسارع إلى إحباط ما قد يوجه إليه من أباطيل الكيدو والشبهات، لم يكن يصدر في هذا كله عن علمه وحده، ولا عن عقله وحده، بل كان يتخذ عدته من علمه وفكره ووجدانه العميق وتدينه الراسخ، حتى إن بعض مؤرخيه لم يجدوا في تدينه مغمزا إلا الاعتزال، فقال ابن حجر العسقلاني إنه صالح لكنه داعية إلى الاعتزال[٤].

ولاشك أن بيئته العامة وبيئته الخاصة كان لها أثر عظيم في هذا التدين

فأما البيئة العامة فتمثلها مدارس الحديث الكثيرة التي أنشأها نظام الملك،

(١) المقامات ٥٨.
(٢) اقنع يكون أمراً من قنع يقنع بمعنى رضى يرضى وزناً ومعنى، ويكون من قنع يقنع بمعنى سأل يسأل وزناً ومعنى.
(٣) القناعة: الرضى باليسير.
(٤) لسان الميزان ٦/٤.

وتمثلها مجالسه التي كان يعمرها القراء والفقهاء وأهل الخير والصلاح، وكان نظام الملك إذا دخل عليه الإمام أبو القاسم القُشَيْرِيّ والإمام أبو المعالي الجُوَيْنِيّ يقوم لهما، ويجلس في مكانه كما هو، وإذا دخل عليه أبو على الفارندي يقوم إليه ويجلسه في مكانه، ويجلس بين يديه، فقيل له في ذلك، فقال: إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا عليّ يقولون لي: أنت كذا وكذا يثنون على بما ليس في، فيزيدني كلامهم عجبا وتيها، وهذا الشيخ يذكرني عيوب نفسي وما أنا فيه من الظلم، فتنكسر نفسي لذلك، وأرجع عن كثير مما أنا فيه[١].

وأما البيئة الخاصة فإن الزمخشري ثمرة طيبة من شجرة طيبة، فقد ساهم والداه في تربية عاطفته الدينية، إذ كان أبوه عالما ورعا صواما قواما حريصا على مكارم الأخلاق، وقد أشاد الزمخشري بهذا، وبتذوق أبيه للأدب في قوله يرثيه[٢]:

فقدته فاضـــلا فاضت مآثره ... العلمُ والأدبُ المأثور والورعُ
أخا طباع مُصفَّاة مناسبة ... ماء السحابة ما في بعضها طَبَع
لم يألُ ما عاش جداً في تقاه يرى ... أن الحريص على دنياه منخدع
صام النهار وقام الليل وهو شَجٍ ... من خشية الله كابى اللون ممتقع
قريب عهد بوخط الشيب عارضه ... إثر الشباب وَوَحْفُ الليل مُتَّبع
من المروءة في علياء مُتَّسع ... صدرا وإن لم يكن في المال مُتَّسَع

لم يذق الخمر، ولم يذقها أبوه، ولا أحد من أسرته، والناس شهود على ذلك، قال في وصف الخمر[٣]:

(١) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٦، ٧١، وتاريخ آل سلجوق ٥٤
(٢) ديوان الزمخشري ٧٢
(٣) ديوان الزمخشري ٨٥

هات التى ظُلْما شَبَّهْتُ بشمس ضحا   لو عارضَتْها لَغطَّتْها بإشراق
أستغفر الله أنى قد نَسَبْتُ بها   ولم أكن لُحَيَّاها بذوَّاق
ولم يذقها أبى كلا ولا أحدٌ   من أسرتى ، واتفاق الناس مصداقى

كذلك كانت أمه متدينة رحيمة القلب ، بلغ من تأثمها وعطفها على العصفور أن غضبت من ابنها، واهتاجت فدعت عليه دعوة خطيرة نفست بها عن موجدتها، فهو يقص حدثا من أحداثه فى صباه فيقول [1] : كنت فى صباى أمسكت عصفورا ، وربطته بخيط فى رجله، فأفلت من يدى ، فأدركته وقد دخل فى خُرْق، فجذبته ، فانقطعت رجله فى الخيط ، فتألمت والدتى لذلك ، وقالت : قطع الله رجلك كما قطعت رجله . فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم ، فسقطت من الدابة ، فانكسرت رجلى ، وأصابنى ألم أوجب قطعها .

ويظهر أن البرد الشديد أثر فى الكسر فاضطره إلى قطع رجله ، لأن الثلج والبرد — كما يقول ابن خلكان — كثيرا ما يؤثر فى الأطراف فى تلك البلاد ، فتسقط ، خصوصا فى خوارزم ، فإنها فى غاية البرد ، ولقد شاهدت خلقا كثيرا ممن سقطت أطرافهم بهذا السبب ، فلا يستبعده من لا يعرفه [2] .

ومن مظاهر تدينه المتصلة بقطع رجله أنه عزا قطعها إلى دعاء والدته ، فقد سأله الدامغانى الفقيه الحنفى المتكلم عن السبب فقال : دعاء الوالدة [3] .

ويذكر ابن خلكان أنه لما سقطت رجله أشهد فى محضر خلقا كثيرا ممن اطلعوا على حقيقة ذلك ، خوفا من أن يظن من لم يعلم الحقيقة أنها قطعت لريبة ، ثم اتخذ رجلا من خشب .

(١) وفيات الأعيان ٤/٢٥٥ ، ومعجم الأدباء ١٩/١٢٧ .
(٢) وفيات الأعيان ٤/٢٥٥ .
(٣) وفيات الأعيان ٤/٢٧٥ ، ومعجم الأدباء ١٩/١٢٧ ، وشذرات الذهب ٤/١١٩ ، ومرآة الجنان ٣/٢٦٩ ، وإنباه الرواة ٣/٢٦٨ .

بدفع من هذا التدين حج مرات ، واعتزم أن يقيم بمكة لا يبغى عنها حولا ، فلما غالبه الشوق إلى وطنه غادرها تتلفت إليها عينه ، حتى توارت معالمها فتلفت قلبه ، ثم لم يلبث أن اشتاق إليها أشد الشوق ، وحن إليها أعظم الحنين ، وقرع نفسه على فراقها، فسارع إليها مرة ثانية ، وأقام بها سنوات ، وسمى نفسه فى هذه المرة جار الله :

أنا الجار جار الله مكة مركزى   ومضرب أوتادى ومَعْقِدُ أطنابى
فمن يُلْقِ فى بعض القُرَيَّات رحله   فأم القرى مُلْقَى رحالى ومنتابى
ومن كان فى بعض المحاريب راكعا   فللكعبة البيت المحرم محرابى

ولا يخلو كتاب من كتبه من دلائل تقواه ، وحضه على الطاعة والعبادة نفسه وسواه ، وكلفه بالحكمة والموعظة التى تهذب الأخلاق وتسمو بالنفوس .

لهذا قال فى مقدمة المقامات [1] : « وأنا أقدم قبل الخوض فى ذلك تنبيهك على ألا تطالع هذه النصائح إلا ملقيا فكرك إلى معانيها، مُحْضِرًا ذهنك لأوامرها ونواهيها . حتى يكون اقتباسك منها فى أخلاقك وأفعالك أوفر من استفادتك لبلاغتها وبراعتها ، فقد علمتَ ببعض ما فيها مما يهذب النفس ، ويطهر القلب » .

ثم قال إنه عاهد نفسه ألا يُدَرِّس من العلوم إلا ما هو مُهيب بدارسه إلى الهدى ، رادع له عن مشايعة الهوى ، ومُجْدٍ عليه فى علوم القراءات والحديث وأبواب الشرع ، من [2] عرف منه أنه يقصد بارتياده وجه الله تعالى ، ويرمى به الغرض الراجع إلى الدين ، ضاربا صفحا عمن يطلبه ليتخذه أهبة للمباهاة ، وآلة للمنافسة ، ووسيلة إلى الحظوة عند الخائضين فى غمرات الدنيا ، والتسمى بين ظهرانيهم بالفاضل والتلقب بالبارع » .

(١) مقامات الزمخشرى ٨
(٢) من عرف : مفعول يدرس ، ودرس متعد إلى مفعولين .

وخاطب نفسه بقوله [١] : « يا أبا القاسم ، العمر قصير ، وإلى الله المصير ، فما هذا التقصير ؟ إن زِبْرِج الدنيا قد أضلك ، وشيطان الهوى قد استزلك [٢] ، ألا إن الأحجى بك أن تلوذ بالركن الأقوى، ولاركن أقوى من ركن التقوى » .

ونهى نفسه فى مقامة العمل عن الاغترار بالثناء عليه ، ووصفه بالبراعة فى العلوم والأدب ، وعقب على هذا بأن الأديب هو الداعية إلى الفضائل ، المبرأ من العيوب ، والعاقل هو الذى يبتغى من أعماله أن يكون عند الله وجيها ، لأن العلم بلا عمل كالقوس بلا وتر : «لعمر الله ليس بأديب ولا أريب ، كل مُعْرِبٍ وحافظ غريب . الأديب من أخذ نفسه بآداب الله فهذبها ، ونقح أخلاقه من العقد الشائنة فشذّبها . والأديب الفاضل من لم يكن له أرب ولا وَطَر ، إلا أن يكون له عند الله فضل وخطر ، ماغناء من قَوِىَ علمه وعمله قد فتر ؟ إن علما بلا عمل كقوس بلا وتر ، حاملها حيران مرتبك فى العَماية ، لايهتدى وإن كان ابن تِقْنٍ [٣] إلى وجه الرماية . . . . واعلم أن العلم إنما يُتعَلَّم ، لأنه إلى العمل سُلَّمٌ ، كما أن العمل إلى ما عند الله ذريعة ، ولولاهما ماعلم علم ولاشرعت شريعة » [٤] .

وقال فى مقدمة (أطواق الذهب) وهى مواعظ أنشأها فى مكة :

« أسألك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ، وأن تحفظ فيها ما وجب للجار ، من حق الذِّمام والذِّمار ، لأنها وُجِدتْ فى حرمك المطهر ، وولدت فى حجر بيتك المستّر » .

وذكر يوسف الإشتيانى شارحها أنه كان يطوف ببيت الله ، فإذا فرغ من

---

(١) المقامات ١٥

(٢) استزلك : جرك إلى الزلل .

(٣) ابن تقن : اسمه عمرو بن تقن من عاد ضربت به العرب المثل فى جودة الرمى .

(٤) المقامات ١٠١

الطواف أَلَّف مقالة ، ثم يقوم ويطوف وينشىء مقالة ، ومازال على ذلك إلى أن بلغت مئة كاملة [١] .

وذكر ابن خلكان [٢] أنه سمع من بعض فضلاء حلب أن الزمخشرى أنشده هذه الأبيات ، وأوصى أن تكتب على لوح قبره ، وهى الأبيات التى استشهد بها عند تفسيرقوله تعالى :« إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها» [٣] :

يا من يرى مَدَّ البعوض جناحها	فى ظلمة الليل البهيم الأَلْيَلِ
ويرى عروق نِياطها فى نحرها	والمخ فى تلك العظام النُّحَّلِ
اغفر لعبد تاب من فَرَطاته	ما كان منه فى الزمان الأول

وعلى هدى من تدينه وتقواه اتخذلنفسه دستورا لا يتعداه ، وتبرم بمعاصريه ، وآثر الوحدة على مخالطتهم ، لأنهم أهل غيبة وانحراف عن الدين وتعاون على الآثام .

قال فى مقامة العزلة [٤] : « قاتل الله بنى هذه الأيام ، فإنهم طلائع الشرور والآثام ، حوارهم غِوار ، ونِقالهم نِقار [٥] ، ووفاقهم نفاق ، تَسْلُق بألسنتهم الأعراض ، كما ترشق بسهامهم الأغراض . تجمع الندوة كبارهم فلا يتواصون بالصبر ، بل يتناصون على الصدر [٦] .

إن آنسوك حمدت الوحشة ، وإن جالسوك وددت الوحدة ، بينا أنت فى

---

(١) قلائد الادب فى شرح أطواق الذهب ٩ .

(٢) وفيات الأعيان ٤/٢٥٩

(٣) سورة البقرة ٢٦

(٤) المقامات ٧٢

(٥) نقالهم : مناقلتهم الكلام . نقار : منافرة ينقر بعضهم بعضا بالعيب . وفى نوابغ الكلم (النقار ماسود النقار ما اسود القار) .

(٦) يتناصون : يأخذ بعضهم بناصية بعض على صدر المجلس .

خلواتك وانفرادك ، مكبا على أحزابك [١] وأورادك . . . . إذ فوجئت بمثاقفة [٢] بعضهم ، من الذين أخذك الله ببعضهم ، فضرب بينك وبين ما كنت فيه بأسداد ، ورماك بأمور من تلك الأول بأضداد ، ملقيا أسباب الفتن بين يدى افتنانه ، مخلفا للآداب والسنن وراء استفنانه ، لايدفع فى صدره من حياء دافع ، ولا يزعه من دين حق وازع .

فإذا أنشأ يأكل لحم أخيه بالنقيصة والثلب ، ويلغ فى دمه الحرام ولوغ الكلب ، ويصوّب ويصعّد فى تمزيق فروته ، ويقوم ويقعد فى قرع مروته [٣] ، ويخلط ذلك باستهزاء متتابع ، واستغراب متدافع ، لم يملك حينئذ عنانه ، ولم يثبط عن استهزائه جنانه [٤] .

فإن لم تقبل عليه بوجهك وصفك بالكبرياء ، وإن لم ترعه سمعك نسبك إلى الرياء ، وإن أعطيته من نفسك مايريد ، فكلا كما والشيطان المريد :

الإنسُ مشتقٌ من الأُنس ... والأُنس أن تنأى عن الإنس
ثيـابهمْ مُلسٌ ولكنها ... على ذئاب منهم طلْس [٥]

(٧) تواضعه

وهو مع إبائه وعزة نفسه متواضع ، لطيف المعاملة ، ظريف المجاملة .

---

(١) الحزب : الورد يقال : قرأت حزبى من القرآن .
(٢) الثاقفة : المجالدة وقال اللحيانى ثاقفه : لازمه ولم يبارحه .
(٣) المروة : الحجرة الصلبة ، والمراد هنا الأصل .
(٤) الجنان : جمع جان .
(٥) طلس : جمع أطلس وهو الذئب فى لونه غبرة إلى سواد .

قدم إلى بغداد فى طريقه إلى مكة ثانى مرة ، فزاره كثير من الناس لتكريمه وللسماع منه ، وكان فيهم الشريف أبو السعادات هبة الله بن الشجرى ، فلما جلس إليه بهره الزمخشرى علما وأخلاقا ، فأنشد ابن الشجرى متمثلا :

كانت مساءلة الركبان تخبرنى ... عن أحمد بن دُواد أطيبَ الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعتْ ... أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

وأنشده أيضاً :

وأستكبر الأخبارَ قبل لقائه ... فلما التقينا صغّرَ الخبرَ الخبرُ

ثم أخذ يثنى عليه . فلما فرغ من كلامه شكر الزمخشرى له ، وعظمه ، وتصاغر ، وقال إن زيد الخيل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما بصر بالنبى رفع صوته بالشهادتين ، فقال له النبى : يازيد الخيل ، كل رجل وصف لى وجدته دون الصفة إلا أنت ، فإنك فوق ما وصفت ، وكذلك سيدنا الشريف . ثم دعا له وأثنى عليه [١] .

وكتب إليه الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفى من الإسكندرية ـ وهو مجاور بمكة ـ يستجيزه فى مسموعاته ومصنفاته ، فرد جوابه بما لايشفى الغليل . فلما كان العام الثانى كتب إليه أيضا مع الحُجّاج استجازة أخرى اقترح فيها مقصوده ، وقال فى آخرها : ولا يحوج ـ أدام الله توفيقه ـ إلى المراجعة ، فالمسافة بعيدة ، وقد كاتبته فى السنة الماضية فلم يجب بما يشفى الغليل ، وله فى ذلك الأجر الجزيل .

فرد عليه الزمخشرى ردا حافلا بالتواضع والسلامة من الغرور ومن التعالى والتعالم ، صور فيه نفسه بين العلماء صغير القدر ، ضحل المعرفة ، وذكر أن حظه من الدراية نزر ، ونصيبه من الرواية قليل ، وتنصل من ثناء الناس عليه ، وعلل

---

(١) معجم الأدباء ١٣٨/١٩ وترجمة الألباء ٤٧٠/١

له بأنه اغترار منهم بالظاهر المموّه، ثم التمس لهم العذر، لأنهم ربما أعجبوا بنصحه للمسلمين، وبترفعه عن حطام الدنيا وسفاسفها، وختم الرسالة بتوكيده أنه صادق فيما يقول:

من رسالته قوله: مامثلي مع أعلام العلماء، إلا كمثل السُّها[1] مع مصابيح السماء، والجهام[2] الصفْر[3] مع الرِّهام[4]، ومع الغوادي الغامرة للقيعان والآكام، والسُّكَيْت[5] المُخلَّف مع خيل السباق، والبِغاث[6] مع الطير العتاق.

وما التلقيب بالعلاّمة، إلا شبه الرقم بالعلامة، والعلم مدينة أحد بابيها الدراية، والثاني الرواية، وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مُزجاة[7]، ظلّي فيها أقلَصُ من ظل حصاة.

أما الرواية فحديثة الميلاد، قريبة الإسناد، لم تستند إلى علماء نحارير[8]، ولا إلى أعلام مشاهير.

وأما الدراية فثَمَدٌ[9] لا يبلغ أفواها، وبَرْض[10] مايبل شفاها.

ثم قال: لايغرنكم قول فلان فيّ ولاقول فلان. وعدد جماعة من الشعراء والفضلاء مدحوه بمقاطيع من الشعر، وأوردها كلها.

(١) السها: كوكب خفي في بنات نعش الصغرى.
(٢) الجهام: السحاب لا ماء فيه.
(٣) الصفر: الخالي.
(٤) الرِّهام: جمع رهمة وهي المطر الضعيف الدائم.
(٥) السُّكيت: آخر خيل الحلبة.
(٦) البغاث: أضعف الطير.
(٧) مزجاة: قليلة.
(٨) نحارير: جمع نحرير وهو الحاذق الفطن الخبير.
(٩) الثمد: الماء القليل.
(١٠) برض: قليل.

ثم قال: فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر المموّه، وجهل بالباطن المشوّه. ولعل الذي غرهم مني مارأوا من حسن النصح للمسلمين، وتبليغ الشفقة على المستفيدين، وقطع المطامع عنهم، وإفادة المبارّ والصنائع عليهم، وعزة النفس، والربء بها عن السفاسف الدنيات، والإقبال على خُوَيصتي، والإعراض عما لايعنيني، فجللت في عيونهم، وغلطوا فيّ، ونسبوني إلى مالست منه في قبيل ولا دَبير[1].

وما أنا فيما أقول بهاضم لنفسي، كما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى في قول أبي بكر الصديق رضوان الله عليه: «وَلِيتُكم ولست بخيركم» إن المؤمن ليهضم نفسه، وإنما صدقت الفاحص عني، وعن كنه روايتي ودرايتي، ومن لقيتُ وأخذت عنه، ومابلغ علمي وقصارى فضلي، وأطلعته طِلْعَ أمري، وأفضيت إليه بخبيئة سري، وألقيت إليه عُجَري وبُجَري[2]، وأعلمته نجمي وشجري»[3] وقال ابن خلكان: ما أعلم هل أجازه بعد ذلك أولا[4].

وقال في مقامة العمل يخاطب نفسه: « نعم يا أبا القاسم إن سمعتهم يقولون: ما أكثر فضلك فقل إن فضولي أكثر، وما أغزر أدبك فقل إن قلة أدبي أغزر »[5].

ولم ينس أن يشيد بخلق التواضع في استنباطه بعض الأخلاق من تفسيره

(١) فلان ما يعرف قبيلا من دبير أي مايعرف الشاة المقابلة من المدابرة، أو ما يعرف من يقبل عليه ممن يدبر عنه، أو ما يعرف نسب أمه من نسب أبيه (القاموس المحيط مادة قبل) وأصله من فتل الحبل إذا مسح اليمين على اليسار علواً فهو قبيل وإذا مسحها عليها سفلا فهو دبير (أساس البلاغة مادة قبل).
(٢) المراد أطلعته على عيوبي، وأصل العجر العروق المتعقدة الناتئة، والبجر ما تعقد منها على البطن خاصة (أساس البلاغة مادة بجر).
(٣) النجم ما نجم من النبات على غير ساق.
(٤) وفيات الأعيان ٤/٢٥٦ ومعجم الأدباء ١٩/١٣٢
(٥) مقامات الزمخشري ١٠١

قوله تعالى : ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين»[١] .

قال: فى الآية دليل على شرف العلم، وإنافة محله، وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأجزل القِسَم ، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباد الله ، كما قال تعالى : « يرفعُ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العِلْمَ درجات»[٢] .

وماسماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم لهم فى الشرف والمنزلة ، لأنهم القُوَّام بما بعثوا من أجله .

وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم ، منها أن يحمدوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم ، وفيها التذكير بالتواضع ، وأن يعتقد العالم أنه وإن فَضَل على كثير فقد فضل عليه مثلهم، وما أحسن قول عمر: كل الناس أفقه من عمر[٣] .

(٨) حبه للعرب والعربية

كانت العصبية الجنسية قد بلغت أشدها فى ذلك العصر الذى عاش فيه الزمخشرى ، وكان كثير من الأعاجم قد انتهزوا ضعف الخلافة العباسية ، وتفرق العرب ، وقيام دويلات غير عربية ، فجعلوا يتعالون على العرب ، وينتقصون من قدرهم ، ويتهجمون على تاريخهم ، وأخلاقهم ، ويحاولون أن يحيوا لغاتهم القومية ، ويستعيضوا بها عن العربية .

(١) سورة النمل ١٥
(٢) سورة المجادلة ١١
(٣) الكشاف ٢/١٣٩

ولكن الزمخشرى العالم اللغوى الأديب وقف فى تيار الشعوبية بصده ما استطاع ، لأنه كان يصل ما بين العروبة والإسلام ، ويصل ما بين اللغة العربية والثقافة الإسلامية ، قال فى مقدمة كتابه (المفصل) :

« الله أحمد على أن جعلنى من علماء العربية ، وجبلنى على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لى أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوى إلى لفيف الشعوبيه وأنحاز ، وعصمنى من مذهبهم الذى لم يُجْدِ عليهم إلا الرشْق[١] بألسنة اللاعنين ، والمَشْق[٢] بأسنة الطاعنين.

ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من قدرها ، ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها ـ حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه فى عجم خلقه ، ولكن فى عربه ـ لا يبعدون عن الشعوبية مُنابذَةً للحق الأبلج، وزيغا عن سواء المنهج، ثم سفههم وعجب من دعاواهم وهم لايدرسون إلا بالعربية « والذى يقضى منه العجب حال هؤلاء فى قلة إنصافهم ، وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك أنهم لا يجدون علما من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلى تفسيرها وأخبارها إلا وافتقاره إلى العربية بَيِّن لا يدفع ، ومكشوف لا يتقنع »[٣] . . .

وقد جهر بتفضيل العرب فى قوله :[٤]

العرب نبعٌ صلب المعاجم ، والغَرَبُ مَثَلٌ للأعاجم[٥] .

وفى قوله :[٦]

فرقك بين الرُّطَب والعَجَم[٧] ، هو الفرق بين العرب والعجم.

(١، ٢) الرشق : الإصابة بالمكروه . المشق : سرعة الطعن .
(٣) شرح المفصل ١/٣ـ١٦ .
(٤) نوابغ الكلم ٧ .
(٥) النبع : شجر صلب تتخذ منه القسى . الغرب : شجر ضعيف رخو .
(٦) نوابغ الكلم ٣٨ . (٧) العجم : نواة التمر .

ولهج بالعرب وبأخلاقهم ، وسخر بالشعوبية فى قوله[1] :

وقل هل فشا فى الأرض غيرُ لسانهم   لسانٌ فُشُوَّ الضوء واليوم شامسُ ؟
به عجَّ فى أمصارها كل منبر   وطنَّتْ به فى الخافقَيْن المدارس
على ظهرها لم يخلق الله أمــة   تناسبهم فى خصلة أو تلابس
تقايسُ بين الناس حتى إذا انتهى   إلى العرب المقياس طاح المقايسُ
أجَــلُّ رسول منهمُ وبلِسْنهم   أجــل كتاب فاعتبر يامنافس
وقــل للشعوبيين إن حديثــكم   أضاليل من شيطانكم ووساوس
لـــكم مذهب فَسْلٌ يُغَرُّ بمثله   أشايب حمقى لا الرجال الأكايس

وردد فى كثير من كتبه إعجابه باللغة العربية وإيثاره إياها ، وثناءه على بلغائها ، فقال فى مقدمة كتابه (الفائق فى غريب الحديث) إنها أفصح اللغات ، وبلاغتها أتم البلاغات ، وأثنى على عدنان وأبنائه ، وقحطان وأحيائه ، وعلى شعرائهم وخطبائهم الذين سحروا الناس ببلاغتهم .

وقال فى كتابه (مقدمة الأدب) : « الحمد لله الذى فضل على جميع الألسنة لسان العرب ، كما فضل الـكتاب المنزل به على جميع الـكتب » .

لهذا كان براون محقا فى قوله[2] : إن الزمخشرى من أقوى المعارضين لمذهب الشعوبية ، وهو المذهب الذى يفضل العجم على العرب فى كل شىء .

(١) ديوان الزمخشرى ٦١
(٢) تاريخ الأدب فى إيران ٤٥٩

(٩) قسوته على مخالفيه

كان للزمخشرى مخالفون فى مذهبه أهمهم ثلاث طوائف، وله مع كل منها موقف. أما الأولون فهم الشافعية والمالكية والحنابلة ، لأنه كان حنفى المذهب[1] ، وقد باهى بحنفيته فى قوله[2] :

وأسْنُدُ دينى واعتقادى ومذهبى   إلى حُنَفَــاء أختارهم وحنائفــا
حنيفية أديانهــم حَنَفِيَّةٌ   مذاهبهــم لايبتغون الزعانفا

وقال[3] : رضى الله عن العلماء الخاشين من الله وحسابه ، جمعوا إلى الدين الحنيفى العلم الحنفى .

ولـكنه على الرغم مما كان بين أتباع هذه المذاهب من خصومة فى كثير من الأوقات والجهات لم يتعصب للحنفية ، ولم يجرِّح مخالفيهم ، بل كان يورد الآراء المختلفة بغير تعليق تارة ، وبترجيح مذهب على آخر تارة ، وقد يختار مذهب الشافعية ، كما نجد فى تفسيره للآية الـكريمة : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطْهُرْنَ[4] » وكما فى تفسيره للآية الـكريمة : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصفُ ما فرضتم[5] » .

وأما الفريق الثانى فهم السنية ، وقد قسا عليهم مرات ، وسفه آراءهم ، وضعف دينهم ، ومن الإنصاف أن نذكر أن أهل السنة طالما خاصموا المعتزلة ،

(١) تاريخ أبى الفدا ١٦/٣
(٢) ديوان الأدب ٧٨
(٣) أطواق الذهب ٥٢
(٤) سورة البقرة ٢٢٢ والـكشاف ١٠٣/١
(٥) سورة البقرة ٢٣٧ والـكشاف ١١٤/١

وحرضوا عليهم ، وكفروهم ، ولا شك أن الزمخشرى كان يعلم هذا ، وكان يجد من السنية المعاصرين له تنكرا ومخاصمة ، فلقيهم بمثل ما يلقونه به .

من قسوته على السنية ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « شَهِدَ الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم[1] » فقال : « العزيز الحكيم » صفتان مقررتان لما وصف الله به ذاته من الوحدانية والعدل . فإن قلت : ما المراد بأولى العلم الذين عظمهم هذا التعظيم ، حيث جمعهم معه ومع الملائكة فى الشهادة على وحدانيته وعدله ؟ قلت : هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة ، والبراهين القاطعة ، وهم علماء العدل والتوحيد — يقصد المعتزلة — .

وقوله (إن الدين عند الله الإسلام) جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى ، لأن قوله (لا إله هو) توحيد ، وقوله (قائما بالقسط) تعديل ، فإذا أردفه قوله (إن الدين عند الله الإسلام) فقد أذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد ، وهو الدين عند الله ، وما عداه فليس عنده فى شىء من الدين . وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدى إليه كإجازة الرؤية ، أو ذهب إلى الجبر الذى هو محض الجور ، لم يكن على دين الله الذى هو الإسلام .

وقد عقب ابن المنير على هذا بما يماثله فى القسوة والتجريح[2] .

وأما الفريق الثالث فهم المتصوفة ، ولا عجب فى مخاصمته لهم ، لأن بين المعتزلة والمتصوفة اختلافا جسيما .

ذلك بأن المتصوفة دانوا بالجبر صراحة ، فقد روى عن أبى عبد الله أحمد ابن يحيى الجلاء قوله : « من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد ، ومن حافظ

(١) سورة آل عمران ١٨ — ١٩

(٢) الكشاف وهامشه ١٣٧/١

على الفرائض فى أول مواقيتها فهو عابد ، ومن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل فهو موحد لا يرى إلا واحدا[1] » ، على حين أن المعتزلة يدينون بالحرية والاختيار .

والمتصوفة غالوا فى تقدير النبى عليه الصلاة والسلام مغالاة لم يعرفها المسلمون الأولون ، ولم يقرها المعتزلة .

والمتصوفة يعتقدون فى الولاية والأولياء اعتقادا خاصا ، فالأولياء فى نظرهم أنواع وطبقات[2] ، ولهم كرامات[3] ، أما المعتزلة فلا يعترفون بالولاية على هذا النحو ، لأن المسلمين الطائعين فى نظرهم أولياء الله وأحباؤه .

وقد اشتهر بعض المتصوفة فى القرنين الرابع والخامس بمعاشرة المخالفين ، ورفقة النساء ، وصحبة الأحداث ، وإيثار العزوبة ، على الرغم من أن أكثر الصوفية القدماء كانوا متزوجين[4] ، وفى هذا يقول الهجويرى فى القرن الخامس : إن شيوخ المتصوفة متفقون على أن العزوبة هى اللائقة بالتصوف ، لتكون قلوبهم خالية من المشاغل ، وطباعهم مبرأة من الشهوات والمعصية ، وأساس التصوف هو العزوبة ، أما الزواج فلغيرهم[5] .

والمتصوفة يتخذون وجدانهم وإلهامهم وسيلة للمعرفة ، على حين أن المعتزلة يجعلون وسيلتهم ما يفهمونه من القرآن والسنة وما يستنبطون منهما بعقولهم .

والمتصوفة يولون نفوسهم وأرواحهم عنايتهم ، والفقهاء والمعتزلة يخصون بالعناية أعمالهم وظاهرهم .

(١) الرسالة القشيرية ٣٠ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكى ٢٣٧/٢ وكشف المحجوب .

(٣) الرسالة القشيرية . باب الكرامات .

(٤) الرسالة القشيرية ٣٢ .

(٥) كشف المحجوب (النص الفارسى) .

والمتصوفة يهيمون بالحب الإلهى غير متعلقين برغبة فى ثواب أو رهبة من عقاب ، ولكن المتكلمين والفقهاء يعتمدون على العبادات ، أملا فى الثواب وخوفا من العقاب .

وقد سفه الزمخشرى المتصوفة ، فمن تسفيهه لهم وسخريته بهم ماذكره فى تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »[1] . فقال : محبة العباد لربهم طاعته وابتغاء مرضاته ، وألا يفعلوا مايوجب سخطه وعقابه ، ومحبة الله لعباده أن يثيبهم أحسن الثواب على طاعتهم ، ويعظمهم ، ويثنى عليهم ، ويرضى عنهم ، وأما مايعتقده أجهل الناس وأعداهم للعلم وأهله ، وأمقتهم للشرع ، وأسوؤهم طريقة — وإن كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهلة والسفهاء شيئا — وهم الفرقة المفتعلة المتفعّلة من الصوف — يقصد المتصوفة — وما يدينون به من المحبة والعشق ، والتغنى على كراسيهم خربها الله ، وفى مراقصهم عطلها الله ، بأبيات الغزل المقولة فى المردان الذين يسمونهم شهداء ، وصعقاتهم التى أين منها صعقة موسى عند دك الطور ، فتعالى الله عنه علوا كبيرا . ومن كلماتهم : كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته ، فإن الهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات . ومنها : الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة ، فإذا لم يكن كذلك ، لم تكن فيه حقيقة[2] .

وعلق ابن المنير بقوله : لاشك أن تفسير محبة العبد لله بطاعته على خلاف الظاهر ، وهو من المجاز الذى يسمى فيه المسبَّب باسم السبب ، والمجاز الذى لايعدل إليه عن الحقيقة إلا بعد تعذرها ، فليمتحن حقيقة المحبة لغة لينظر أهى ثابتة

---

(١) سورة المائدة ٥٤

(٢) الكشاف ١/٢٦١

للعبد متعلقة بالله تعالى أم لا ؟ إذ المحبة لغة ميل المتصف بها إلى أمر لاذّ ، واللذات المحبوبة منقسمة إلى مدرك بالحس كلذة الذوق فى المطعوم . ولذة النظر . . . . . وإلى لذة تدرك بالعقل كلذة الجاه والرياسة والعلوم ، ثم تتفاوت المحبة بحسب تفاوت البواعث عليها ... وليس معلوم أكمل ولا أجمل من المعبود الحق ، فاللذة الحاصلة فى معرفته تعالى ومعرفة جلاله تكون أعظم ، والمحبة المنبعثة عنها تكون أمكن ، وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات والموافقات .

ومعنى هذا أن محبة العبد لربه ممكنة بل واقعة من كل مؤمن ، فهى من لوازم الإيمان وشروطه . والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم ، وإذا كان كذلك وجب تفسير محبة العبد لله بمعناها الحقيقى لغة ، وكانت الطاعات كالمسبب عنها والمغاير لها . ألا ترى إلى الأعرابى الذى سأل عن الساعة فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : ماأعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كبير عمل ، ولكن حب الله ورسوله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت . فهذا الحديث ناطق بأن المفهوم من المحبة غير الأعمال والتزام الطاعات ، لأن الأعرابى نفاها ، وأثبت الحب ، وأقره النبى على ذلك .

ثم إذا ثبت إجراء محبة العبد لله تعالى على حقيقتها لغة ، فالمحبة فى اللغة إذا أكدت سميت عشقا ، فمن تأكدت محبته لله تعالى ظهرت آثارها عليه ، من استيعاب الأوقات فى ذكره وطاعته ، فلا يمنع أن تسمى محبته عشقا ، إذ العشق ليس إلا المحبة البالغة . وما أردت بهذا الفصل إلا تخليص الحق والانتصاف لأحباب الله عز وجل من الزمخشرى ، فإنه خلط فى كلامه الغث بالسمين ، فأطلق القول بالقدح الفاحش فى المتصوفة من غير أن يتحرى ، ونسب إليهم ما لايعبأ بمرتكبه ، ولايعد فى البهائم فضلا عن خواص البشر .

ولايلزم من تسمّى طائفة بهذا الاسم غاصبين له من أهله ، ثم ارتكابهم مانقل عنهم مما ينافى حال المسمين به حقيقة ، أن يؤاخذ الصالح بالطالح ، ولاتزر وازرة وزر أخرى .

كما أن علماء الدين قد انتسب إليهم قوم سموا أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، ثم خلعوا الربقة فجحدوا صفات الله تعالى وقضاءه وقدره ، وقالوا : إن الأمر أُنُفٌ ، وجعلوا أنفسهم شريكة فى المخلوقات . فلا يسوغ لنا أن نقدح فى علماء أصول الدين مطلقاً ، لأنهم قد انتسب إليهم من لا حيلة لهم فى نفيه عن التسمى بنعتهم ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

ولا شك أن فى الناس من أنكر تصور محبة العبد لله إلا بمعنى طاعته له لا غير ، وهو الذى انحاز إليه الزمخشرى ... قال الغزالى : والمحبون لله يقولون لمن أنكر عليهم ذلك « إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون »[1] .

ومن سخريته بهم قوله فى تفسير الآية الكريمة: «هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعا ، ويُنشِئُ السحاب الثقال ، ويُسبِّح الرعدُ بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء[2] » . قال : ويسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر ، ومن بِدَع المتصوفة أن الرعد صعقات الملائكة ، والبرق زفرات أفئدتهم ، والمطر بكاؤهم[3] .

(١٠) عزوبته

عاش الزمخشرى أعزب كما عاش بعض سابقيه من العلماء والأدباء ، مثل محمد ابن جرير الطبرى[4] ، وأبى حيان التوحيدى[5] ، وإذا كان سابقوه لم يبرروا إيثارهم للعزوبة ، ولم يعللوا لها ، فإنه قد بررها ، وعلل لها ، ولكن تعليله غريب.

(١) هامش الكشاف ١/٢٦١
(٢) سورة الرعد ١٣
(٣) الكشاف ١/٤٩٠
(٤) الطبرى للمؤلف ٤٩
(٥) أبو حيان التوحيدى للمؤلف ١٨٥

فهو مرة يشفق على الآباء الذين يجهدون فى تربية أبنائهم ، مؤملين لهم الخير والعلاء ، ومتشوقين إلى أن يسعدوا بهم ، وتقر أعينهم ، ولكن هؤلاء الأبناء يصيرون أذلة ، لا يحققون شيئا مما أمله آباؤهم ، وهو لهذا آثر العزوبة التى شبهها بالرهبنة فى المسيحية ، وارتضاها لنفسه ، واستراح إليها ، فقال[1] :

تصفحت أولاد الرجال فلم أكد ... أصادف من لا يفضح الأم والأبا
رأيت أباً يشقى لتربية ابنه ... ويسعى لكى يدعى مُكيساً ومُنجِبا
أراد به النَّشْءَ الأغر فما درى ... أيوليه حِجْراً أم يُعَنِّيه منكبا
أخو شقوة مازال مركبَ طفله ... فأصبح ذاك الطفل للناس مركبا
لذاك تركت النسل واخترت سيرة ... مسيحية أحْسِنْ بذلك مذهبا

ولا شك أن هذه محاولة للتبرير ، ولكنها أبعد ما تكون عن الإقناع ، وأرجح أنه هو نفسه لم يكن مقتنعا بها ، ولعله ساقها مساق المغالطة والمجادلة ، لأن الأبوة والأمومة ميل فى الفطرة أصيل ، ولأن أكثر الأبناء لا ينطبق عليهم تشاؤمه.

ثم إن الإسلام لا يرتضى هذه الرهبنة من قادر على الزواج .

والعجب أنه دافع عن العزوبة مرة أخرى[2] بأن الابن إذ ارتكب جرما فاضحا كانت فضيحة الأب أشنع ، وإذا كان الأبناء مجلبة للضرر فإن ترك النسل أصوب ، وأدعى إلى الطمأنينة وسلامة العرض :

كأنكمُ لم تسمعوا أن من له ... عيال شَقِىٌّ دهره ليس يفلح
قبيح بمثلى والبنون كما أرى ... جنود فساد ليس فى الألف مصلح
إذا ارتكب الإبن الخليع فضيحة ... فذاك لعمر الله للأب أفضح

(١) الديوان ٨
(٢) الديوان ٢٦

وكل صنيع ليس للنفع جالبـــا ... وجرّ وجوه الضر فاترك أروح[1]

وقدسبق فى مؤلفاته أنه تبناها وامتزجت بها نفسه ، فآثرها على الأبناء،وهو يـكرر هذا، ويشفع إلى مؤلفاته تلاميذه وقراء كتبه ، ورواة علمه فى قوله[2] :

وحسبى تصانيفى وحسبى رواتها ... بنين بهـم سيقت إلىّ مطالبى

إذا الأب لم يأمن من ابن عقوقه ... ولا أن يعق الإبن بعض النوائب

فإنىَ منهم آمنٌ وعليهــمُ ... وأعقابهـــم أرجوهمُ للعوقب

وهو فى مرة ثالثة يتهيب الحياة الزوجية ، ويقرنها بالسباحة فى البحر الهائج ، فيقول[3] : ما أدرى أيهما أشق : أمن يعوم فى الأمواج ،أم من يقوم على الأزواج ؟

(١) أروح : أكثر راحة .
(٢) الديوان ٨ .
(٣) نوابغ الكلم ٣٦

الفصل السادس

فى رحاب التفسير والتأويل

لمحة إلى التفسير قبل الزمخشرى

التفسير الإبانة والتوضيح،وهو والتأويل بمعنى واحد فى رأى، وفى رأى آخر أن التفـسير كشف المراد عن المشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر

١ ـــ عاش المسلمون ردحا من الزمن متحرجين من تفسير القرآن الـكريم بآرائهم ، مـكتفين بالنقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو بالأخذ عن الصحابة ، أو بفهم ما تمليه اللغة ويقتضيه التعبير وروح الشريعة .

فلما تقدم الزمن ، وتقدمت الثقافة ، وتطور التفـكير ، واحتدم الخلاف السياسى والمذهبى خطا المفسرون من طور الاعتماد على النقل إلى طور الإجتهاد والاعتماد على العقل ، فلم يتحرجوا من تفسير القرآن حسب آرائهم ؛ لأنهم رأوا فى التحرج عدولا عن التفـكير والنظر واستنباط الأحـكام ، ولوصح ماذهب إليه المتحرجون لم يستطع أحد أن يستنبط شيئا ، بل لم يفهم كثيرا مما تضمنه كتاب الله .

ورأى هؤلاء أن الحديث الذى ينهى عن التفسير بالرأى ـــ على فرض صحته ـــ مراد به الرأى الذى لا يعتمد على أصل ثابت ، ولا يستند إلى روح الشريعة ، بل يذهب مع الهوى، ولهذا اجتهد كثير من العلماء فى تفسير القرآن الـكريم ، واعتمدوا على آرائهم ،لأنهم مستـكملون للعدة التى يجب أن تتوفر

للمفسر ، وجعل التفسير منذ القرن الثانى يتأثر باتجاهات المفسرين ، ويصطبغ بثقافاتهم .

فالنحاة — كالزجاج والواحدى وأبى حبان — يهتمون بالمسائل النحوية وتخريجها، ويعربون القرآن إعرابا يساعد على تفسيره ، ويعنون بالمشكلات النحوية فى مثل قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » وقوله تعالى : « إنّ هذان لساحران » .

واللغويون — كأبى عبيدة وقُطْرُب — يؤلفون كتبا فى غريب القرآن ، ويهتمون بالمشكلات اللغوية .

وهؤلاء وأولئك لهم كتب تسمى معانى القرآن .

وآخرون اتجهوا إلى المجازات فى نحو قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » .

والفقهاء عنوا بآيات الأحكام ، وألفوا كتبا مثل كتاب أحكام القرآن على مذهب مالك ، وكتاب أحكام القرآن على مذهب أهل العراق لأبى بكر الرازى ، وكتاب أحكام القرآن للشافعى .

والمشتغلون بالعلوم العقلية حشدوا آراء الفلاسفة والحكماء فى تفسير بعض الآيات، مثل الفخر الرازى، والمتصوفة لونوا تفسيرهم بآرائهم كابن عربى الأندلسى .

وعلماء الكلام أولوا بعض الآيات تعزيز المذهبهم ، مثل الزمخشرى [١] .

٢ — وكان لابد للمفسر أن يكون موهوبا وعالما باللغة والنحو والصرف والاشتقاق والمعانى والبيان والبديع والقراءات والأصول وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والحديث والفقه .

ويذكر الزمخشرى أن المفسر يجب أن يكون على معرفة بالعلوم كلها ،

(١) ضحا الإسلام ٢/١٤٦ والطرى ٩٩ — ١٠٧ للمؤلف .

وأن يكون حصيفا نقادة لما يقرأ ولما يسمع ، وأن يتمرس بحفظ النصوص البليغة ، ويتملى بالنظر فى الأساليب « ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح ، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح ، من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها ، علم التفسير الذى لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم — كما ذكر الجاحظ فى كتاب نظم القرآن — فالفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا فى صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرّيّة أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوى وإن عَلَكَ اللغات بقوة لَحْيَيْه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ ، جامعا بين أمرين: تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زمانا ورجع إليه ، وردّ ورُدّ عليه ، فارسا فى علم الإعراب ، مقدما فى جملة الكتاب ، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقادها ، يقظان النفس ، دَرّاكا للمحة وإن لطف شأنها ، منتبها على الرمزة وإن خفى مكانها ، لا كزًّا جاسيا، ولا غليظا جافيا، متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر، قد علم كيف يرتّب الكلام ويُؤلِّف ، وكيف ينظم ويُرصِّف ، طالما دفع إلى مضايقه ، ووقع فى مداحضه ومزالقه » [١] .

ويكرر التنبيه على التذوق والخبرة بعلمى المعانى والبيان ، ويعلل لهذا بأن

(١) الكشاف ٣/١

القرآن معجز بنظمه لا بالصرفة ، فالنظم هو أم إعجازه ، والقانون الذى وقع عليه التحدى ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر [1] .

وبيدو من كلامه هذا أنه تأثر بما ردده عبد القاهر الجرجانى فى كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، واطمأن إلى ما دعا إليه الجرجانى من أن الحكم بالجمال لا قيمة له إذا لم يؤيد بالكشف عن سر هذا الجمال « إن من الآفة من زعم أن لاسبيل إلى معرفة العلة فى قليل ما تعرف المزية فى كثيره ، وأن ليس إلا أن تعلم أن هذا التقديم وهذا التنكير أو هذا العطف أو هذا الفصل حسن ، وأن له موقعا من النفس وحظاً من القبول . فأما أن تعلم : لم كان كذلك ؟ وما السبب ؟ فما لاسبيل إليه ، ولامطمع فى الاطلاع عليه ، فهو بتوانيه والكسل فيه فى حكم من قال ذلك .

واعلم أنه ليس إذا لم يمكن معرفة الكل وجب ترك النظر فى الكل ، وأن تعرف العلة والسبب فيما يمكنك معرفة ذلك فيه وإن قل ، فتجعله شاهدا فيما لم تعرف أحرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك ، وتأخذها عن الفهم والتفهم ، وتعودها الكسل والهوينا .

قال الجاحظ : وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس ، وله مضرة شديدة وثمرة مرة ، فمن أضر ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئاً . فلو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة فى أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا .

واعلم أن العلم إنما هو معدن ، فكما أنه لا يمكنك أن ترى ألف وقر — حمل — قد أخرجت من معدن تبر أن تطلب فيه ، وأن تأخذ ما تجد ولو كقدر تومة — لؤلؤة — كذلك ينبغى أن يكون ذلك فى طلب العلم» [2] .

(١) الكشاف ٢/٢٤

(٢) دلائل الإعجاز ٢٢٦

« إنك لن تعلم فى شىء من الصناعات علما تمرّ فيه وتُحلى حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب، ويفصل بين الإساءة والإحسان، بل حتى تفاضل بين الإحسان والإحسان ، وتعرف طبقات المحسنين .

وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفى فى علم الفصاحة أن تنصب لها قياسا، وأن تصفها وصفا مجملا ، وتقول فيها قولا مرسلا ، بل لا تكون من معرفتها فى شىء حتى تُفصّل القول وتُحَصّل، وتضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلم ، وتعدها واحدة واحدة ، وتسميها شيئاً شيئاً ، وتكون معرفتك معرفة الصّنع الحاذق الذى يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذى فى الديباج ، كل قطعة من القطع المنجورة فى الباب المقطّع، وكل آجُرّة من الآجر الذى فى البناء البديع [1] .

وقد طبق الجرجانى نظريته فى كتابيه الدلائل والأسرار على كثير من الآيات القرآنية والنصوص الأدبية .

ثم جاء الزمخشرى فعنى بالكشف عن الإعجاز الكامن فى نظم القرآن الكريم

٣ — عنى بعض سابقيه بالتفسير اللغوى البلاغى ، مثل أبى عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى سنة ٢١١ هـ) ولكن جهده يتضاءل إذا قيس بجهد الزمخشرى .

٤ — وسبقه إلى التأويل على مذهب المعتزلة كثير من علمائهم، وإن لم يصل إلينا من إنتاجهم إلا القليل ، فقد أقبلوا على تفسير القرآن الكريم وتأويله إقبالا ، فظهر منهم عشرات منذ ألف واصل بن عطاء (المتوفى سنة ١٣١ هـ) كتابه معانى القرآن [2] وألف قطرب — محمد بن المستنير — (٢٠٦ هـ) خمسة كتب فى الدراسات القرآنية هى : معانى القرآن ، والرد على الملحدين فى متشابه القرآن، وإعراب القرآن ، ومتشابه القرآن ، ومجاز القرآن [3] . وتتابع مفسروهم كأبى

(١) المرجع السابق ٣٠

(٢) معجم الأدباء ١٩ ٢٤٧

(٣) معجم الأدباء ١٩ / ٥٣

بكر عبد الرحمن الأصم (٢٤٠) [١] وأبى على محمد الجبائى (٣٠٣) [٢] وأبى القاسم عبد الله البلخى الكعبى (٣١٩) [٣] وأبى هاشم عبد السلام الجبائى (٣٢١) [٤] وأبى مسلم محمد بن بحر الأصفهانى (٣٢٢) [٥] وأبى الحسن على الرمانى (٣٨٤) [٦] وأبى القاسم عبيدالله الأسدى (٣٨٧) [٧] .

ثم جاء القاضى عبد الجبار (٤١٥) فألف كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن)، وبعده الشريف المرتضى (٤٣٦) فتناول كثيرا من آراء المعتزلة ، وطبق الآيات القرآنية عليها فى أماليه (غرر الفوائد ودرر القلائد) وهى مطبوعة ، وبعدهما أبو يوسف القزوينى (٤٨٣) الذى ألف تفسيرا كبيرا بث فيه آراء المعتزلة ، ومزجه بمعتقداتهم ، وهو ضخم فى ثلاثمائة مجلد ، منها سبعة مجلدات فى الفاتحة وحدها [٨] .

وليس أدل على كثرة مفسرى المعتزلة من أن الذين بين واصل بن عطاء وأبى يوسف القزوينى أكثر من ثلاثين معتزليا ، لهم فى التفسير ومايتصل به مؤلفات تبلغ نحو المئة ، ولكن أكثرها مفقود [٩] .

ومن حق القاضى عبد الجبار على من يدرس الزمخشرى أن يدرس آراءه ،

(١) الفهرست ٥١
(٢) طبقات المفسرين ٢٣ والفهرست ٥٠
(٣) الفهرست ٥١
(٤) طبقات المفسر ٣٣
(٥) الفهرست ٥٠ وبغية الوعاة ٢٣
(٦) طبقات المفسرين ٢٤
(٧) طبقات المفسرين ١٩
(٨) طبقات المفسرين ١٩
(٩) تجد أسماءهم ومؤلفاتهم فى الفهرست لابن النديم وطبقات المفسرين وبغية الوعاة للسيوطى وإنباه الرواة للقفطى ومعجم الأدباء لياقوت والمنية والأمل للمرتضى ووفيات الأعيان لابن خلكان وكشف الظنون لحاجى خليفة .

لأن بينها وبين تفسير الزمخشرى كثيرا من المشابه فى الفكرة وفى الطريقة ، ولكن كتابنا هذا لايتسع للدراسة المفصلة ، فلنلم بها إلمامة سريعة .

أما القاضى عبد الجبار فهو قاضى القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد ابن عبد الجبار الهمدانى الأسد ابادى الشافعى ، كان فى عصره شيخ المعتزلة ، وقد استدعاه الصاحب بن عباد إلى الرى وولاه ، قضاءها ، وبقى بها يدرس إلى أن مات ، وكان الصاحب يثنى عليه ، ويصفه بأنه أعلم أهل الأرض .

وله مؤلفات كثيرة فى علم الكلام والأصول والفقه والتفسير [١] .

وأما كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن) [٢] فليس تفسيراً كاملا يستوعب القرآن كله ، لأن مؤلفه لم يقصد إلى هذا ، بل قصد إلى الآيات المتشابهة ليبين خطأ بعض الناس فى فهمها وفى تأويلها ، ويكشف عماياه ، متتبعاً بناء الكتاب على المسائل التى تعنيه من كل سورة ، سواء أكانت راجعة إلى الأسلوب أم إلى العقيدة .

فيقول مثلا فى تفسير قوله تعالى : « ذلك الكتاب لاريب فيه [٣] » .

مسألة : متى قيل : لماذا قال تعالى (ذلك الكتاب) ولم يقل هذا الكتاب؟

فجوابنا : أنه عز وجل وعد رسوله إنزال كتاب عليه لايمحوه الماء ، فلما أنزل ذلك قال (ذلك الكتاب) والمراد ما وعدتك ، ولو قال هذا الكتاب لم يفد هذا الغائب [٤] .

مسألة : قالوا : مامعنى لاريب فيه ؟ وقد علمتم أن خلقا يشكون فى ذلك ، فكيف يصح ذلك؟ وإن أراد لاريب فيه عندى وعند من يعلم فلا فائدة فى ذلك.

(١) شذرات الذهب ٣ / ٢٠٢ وطبقات المفسرين ١٦ .
(٢) مطبوع فى مجلد واحد
(٣) سورة البقرة ٢
(٤) ذكر الزمخشرى رأيين فى استعمال (ذلك) هنا ، أحدهما ما ذكره عبد الجبار (الكشاف ١ / ١٤)

فجوابنا : أن المراد أنه حق يجب ألا يرتاب فيه ، وهذا كما يبين المرء الشيء لخصمه، فيحسن منه بعد البيان أن يقول : هذا كالشمس واضح، وهذا لا يشك فيه أحد ، وهذا كما يقال عند إظهار الشهادتين إن ذلك حق وصدق ، وإن كان فى الناس من يكذب بذلك [١] .

ويقول فى تفسير قوله تعالى: «خَتَمَ اللهُ على قلوبهم وعلى سَمْعِهِم وعلى أبصارهم غِشاوةٌ ، ولهم عذابٌ عظيم »[٢] .

مسألة : قالوا : فقد قال تعالى (ختم ...) وهذا يدل على أنه منعهم من الإيمان ، ومذهبكم بخلافه ، وكيف تأويل الآية ؟ :

وجوابنا : أن للعلماء فى ذلك جوابين: أحدهما أنه شبه حالهم بحال الممنوع الذى على بصره غشاوة، من حيث أزاح كل عللهم فلم يقبلوا، كما قد تعين للواحد الحق ، فتوضحه ، فإذا لم يقبل صح أن تقول حمار طبع الله على قلبه ،وربما تقول إنه ميت ، وقد قال تعالى للرسول : «إنك لاتسمع الموتى[٣]» وكانوا أحياء ، فلما لم يقبلوا شبههم بالموتى ، وهو كقول الشاعر .

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيًّا ولكنْ لا حياةَ لمن تُنادى

ويبين ذلك أنه تعالى ذمهم ، ولو كان هو المانع لهم لما ذمهم ، وأنه ذكر فى جملة ذلك الغشاوة على سمعهم وبصرهم ، وذلك لو كان ثابتا لم يؤثر فى كونهم عقلاء مكلفين .

والجواب الثانى : أن الختم علامة يفعلها تعالى فى قلوبهم ، لتعرف الملائكة كفرهم ، وأنهم لا يؤمنون، فتجتمع على ذمهم،ويكون ذلك لطفالهم، ولطفا لمن

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ٦ وفى الكشاف ما يشبه هذا ١ / ١٥
(٢) سورة البقره ٧
(٣) صوره النمل ٨٠

يعرف ذلك من الكفار أو يظنه ، فيكون أقرب إلى أن يقلع عن الكفر . وهذا جواب الحسن رحمه الله ، ولهذا قال تعالى « ولهم عذاب عظيم »[١] .

وينفى وقوع رؤية الخلق لله فى الآخرة ، فيقول فى تفسير قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة »[٢] : ربما قيل إنه أقوى دليل على أن الله تعالى يُرَى فى الآخرة.

وجوابنا : أن من تعلق بذلك إن كان ممن يقول بأن الله تعالى جسم ، فإننا لا ننازعه فى أن يرى ، بل فى أن يصافح ويعانق ويلمس ، تعالى الله عن ذلك ، وإنما نكلمه فى أنه ليس بجسم .

وإن كان ممن ينفى التشبيه عن الله فلا بد من أن يعترف بأن النظر إلى الله تعالى لا يصح ، لأن النظر هو تقليب العين الصحيحة نحو الشيء طلبا لرؤيته، وذاك لا يصح إلا فى الأجسام .

فيجب أن يتأول على ما يصح النظر إليه وهو الثواب (يريد : إلى ثواب ربها ناظرة) كقوله تعالى : « واسأل القرية »[٣] فإنا تأولناه على أهل القرية لصحة المسألة منهم[٤] .

وعلى مثل هذا النهج يسير القاضى عبد الجبار فى تأييد آراء المعتزلة والدفاع عنها ، متذرعا بالفكر، وبالتحليل البلاغى ، وحمل الكلام فى كثير من الآيات على التشبيه والمجاز .

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ٩ وفى الكشاف خمسة أوجه فى هذه الآية (الكشاف ١/ ٢١) .
(٢) سورة القيامة ٢٢ ، ٢٣
(٣) سورة يوسف ٨٢
(٤) تنزيه القرآن عن المطاعن ٣٥٨ وفى الكشاف (٢ / ٥٠٩) أن المعنى وجوه يومئذ إلى نعمة الله وكرامته راجية

الكشّاف

الباعث على تأليفه

١ — السبب الأول فى تأليفه أن جماعة من المعتزلة كانوا يرجعون إليه فى تفسير بعض الآيات، فيبرز لهم حقائقها ، فيفيضون فى الاستحسان والتعجب ، ويستطيرون شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك ، ثم اجتمعوا إليه مقترحين أن يملى عليهم الكشف (أو الكشاف) عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، فاستعفاهم، فأبوا إلا المراجعة ، والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد ، فأملى عليهم مسألة فى فواتح السور ، وطائفة من الكلام فى حقائق سورة البقرة ، فى كلام مبسوط كثير السؤال والجواب .

٢ — فلما توجه إلى مكة وجد فى البلاد التى اجتازها شوقا إلى ما أملاه على بعض المعتزلة ، وحرصا على اقتباسه ، فتحرك نشاطه إلى إكماله .

٣ — وحينما بلغ مكة وجد أميرها أبا الحسن على بن حمزة بن وهّاس أشد الناس شوقا إلى هذا التفسير ، حتى إنه كان يحدث نفسه فى مدة غياب الزمخشرى عن الحجاز — مع كثرة مشاغله — بالوفادة عليه بخوارزم .

وحينئذ لم يجد الزمخشرى بدا من النهوض بتفسير القرآن كله ، وهو يختم حديثه عن هذا بقوله : « فقلت قد ضاقت على المستعفى الحيل ، وعيّت به العلل ، ورأيتنى قد أخذت منى السن ، وتقعقع الشّن ، وناهزت العشر التى سمتها العرب دقّاقة الرقاب [1] ، فأخذت فى طريقة أخصر من الأولى، مع ضمان التكثير من الفوائد ، والفحص عن السرائر .

(١) هى سن الستين

ووفق الله وسدد ، ففرغت منه فى مقدار مدة خلافة أبى بكر الصديق » وكان يقدر تمامه فى أكثر من ثلاثين سنة » [1] .

وإذ كان الفراغ من تأليفه يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٢٨ هـ تجاه الكعبة فى جناح داره السليمانية التى على باب أجياد، الموسومة بمدرسة العلامة [2] ، وقد ألفه فى سنتين ، فإن الذى يفهم من هذا أنه بدأ يؤلفه سنة ٥٢٦ هـ ، وهو فى التاسعة والخمسين أو فى أول الستين من عمره ، قبل أن يؤلف أساس البلاغة ، بدليل ما ذكره فى ماده (حفر) بالأساس .

بعض من نقل عنهم

قرأ الزمخشرى تفاسير سابقية من معتزلة وغير معتزلة ، ونقل عن هؤلاء وهؤلاء . فمن نقل عنهم القاضى عبد الجبار كما سبق ، ومجاهد (المتوفى سنة ١٠٤ هـ) كما نجد فى تفسيره لقوله تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » [3] .

فقال : إن المعنى اعبدونى ، والدعاء بمعنى العبادة كثير فى القرآن ، ويدل عليه قوله تعالى : « إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين [4] » ، والاستجابة الإثابة ، وفى تفسير مجاهد : اعبدونى أثبكم [5] .

ومنهم عمرو بن عبيد المعتزلى (١٤٤ هـ) فهو ينقل عنه كثيراً ، وكتابه لم يصل إلينا ، كما نجد فى تفسيره للآية الكريمة «فلما رآها تهتزّ كأنها جانٌّ ولى مدبراً » [6] فإنه قال : قرأ الحسن جأن على لغة من يجد فى الهرب من التقاء

(١) مقدمة الكشاف ١ / ٢

(٢) خاتمة الكشاف بخط المؤلف ٢ / ٥٧٠

(٣) سورة غافر ٦٠

(٤) تكملة الآية السابقة

(٥) الكشاف ٢ / ٣٢٠ ونقل عنه أيضاً فى ٢ / ٤٦٥

(٦) سورة النمل ١٠

سا كنين ، فيقول شابة ودابة، ومنها قراءة عمرو بن عبيد « ولا الضألّين » [١]

ومنهم أبو بكر الأصم المعتزلى (٣٢٤هـ) وتفسيره لم يصل إلينا .

ومنهم الزجاج (٣١١) ، كما فى تفسيره لقوله تعالى : « هيهات هيهات لما توعدون » [٢] فإنه عقب بقوله : فإن قلت « ماتوعدون » هو المستبعد ، ومن حقه أن يرتفع فى هيهات كما ارتفع فى قول الشاعر : فهيهات هيهات العقيق وأهله ، فما هذه اللام ؟

قلت : قال الزجاج فى تفسيره : البعد لماتوعدون ، أو بُعْدٌ لما توعدون ، فيمن نون ، فنزل منزلة المصدر ، وفيه وجه آخر وهو أن تكون اللام لبيان المستبعد ماهو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد، كما جاءت اللام فى (هيت لك)[٣] لبيان المهيب به[٤] . كذلك نقل عنه تفرقته بين الشروق والإشراق ، لأن الزجاج ذكر فى كتابه (معانى القرآن) عند تفسير قوله تعالى « إناسخرنا الجبال معه يسبّحن بالعشىّ والإشراق »[٥] أن الإشراق طلوع الشمس وإضاءتها ، يقال شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت ، وقيل إنهما بمعنى واحد .

وقال الزمخشرى إن الإشراق هو حين تشرق الشمس أى تضىء ويصفو شعاعها ، وهو وقت الضحى ، وأما شروقها فطلوعها ، يقال شرقت ولما تُشرق [٦] .

---

(١) الكشاف ٢ / ١٣٨

(٢) سورة المؤمنين ٣٦

(٣) سورة يوسف ٢٣

(٤) الكشاف ٢ / ٧٣

(٥) سورة ص ١٨

(٦) الكشاف ٢ / ٢٧٨

وقال مثل هذا فى أساس البلاغة [١]

ومنهم الرمانى المعتزلى (٣٨٤ هـ) صاحب التفسير الذى لم يبق منه إلا جزء عم ، فقد نقل ماذكره فى تفسير قوله تعالى : « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » أن المرء هنا هو الكافر ، لقوله تعالى « إنا أنذرنا كم عذابا قريبا ، يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » والكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم ، وقيل المرء عام وخصص منه الكافر ، وعن قتادة هو المؤمن [٢] .

ومنهم عبد الله بن درستويه ، فقد نقل من كتابه (الكتاب المتمم فى الخط والهجاء) [٣] .

وكذلك نقل من غير هؤلاء ، مثل سيبويه [٤](صاحب الكتاب) ، وأبى على مؤلف (الحجة)[٥] ، والجاحظ فقدأحال إلى كتاب (الحيوان) لمعرفة غرائز الإنسان[٦] ، والواقدى فقد نقل عنه تعيين الحديبية بأنها طرف الحرم على تسعة أميال من مكة [٧] .

على أننا نجد فى تفسيره ترديدا لأسماءمئات من القراء واللغويين والنحاة والفقهاء والمفسرين، مثل الحسن بن على، وعبد الله بن عباس، وقتادة ، وعلى بن الحسين، وعبدالله بن عمرو،وعروة بن الزبير،وسعد بن المسيب، ومقاتل،ومجاهد، وعكرمة وعائشة، وأبى ذر، والثورى، وسفيان بن عيينة، والضحاك،وسعيد بن جبير،والشعبى

---

(١) مادة شرق

(٢) سورة النبأ ٤٠ وتفسير جزء عم للرمانى ورقة ٢٨ والكشاف ٢ / ٥٢٠

(٣) الكشاف ١ / ١٢

(٤) الكشاف ١ / ١٢

(٥) الكشاف ١ / ١٠

(٦) الكشاف ٢ / ١٤٢

(٧) الكشاف ١ / ٩٣

وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وأبى هريرة، وأبى حنيفة، وسعيد بن جبير، والشافعى، وإبراهيم النخعى، وعبدالله بن مسعود، والأوزاعى، والزهرى، والزجاج، والكسائى، وأبى عبيدة، وابن سيرين.

وقد حفل الكشاف بكثير من المسائل والقضايا، جديرة بأن يفرد لكل منها مبحث خاص، لأنها تتناول آراء المعتزلة، ومسائل كثيرة فى اللغة والنحو والبلاغة، وتمحيص بعض الآراء والتعليل لبعضها، وهذه كلمة فى كل منها.

أولاً - فى خضم الاعتزال

لمحة إلى المعتزلة

المعتزلة فرقة دينية نشأت فى العراق، ثم ذاعت آراؤها بالعراق وماحوله.

وهى فى نشأتها امتداد لفرقة المرجئة، لأن الفرقتين تتشابهان فى التوقف عن الحكم على كلا الحزبين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين، وفى وصف مرتكب الكبيرة بأنه ليس كافرا، وفى القول بحرية العبد واختياره، إذ أن بعض المرجئة مثل معبد الجهنى وغيلان الدمشقى والجعد بن درهم سبقوا المعتزلة إلى القول بالحرية والاختيار، ودان بهذا الرأى واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، وهما المؤسسان لفرقة المعتزلة.

ثم إنها فى تطورها متأثرة بالثقافات الأجنبية ولاسيما الفلسفة اليونانية، إذ كانت ذات سلطان على الفكر الراقى فى الشرق منذ زمن بعيد قبل أن يستهل الإسلام، وبخاصة فلسفة أفلاطون (٢٠٥ — ٢٧٠ م وهو الذى يطلق العرب على فلسفة مذهب الإسكندرانيين، ويسميه الشهرستانى الشيخ اليونانى، وقد

وقد تنوع مذهبه وتفرع بالإسكندرية والشام وأثينا، ثم ازدادت الفلسفة اليونانية انتشاراً ونفوذاً منذ عهد كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) لأن جوستنيان ناصر المسيحية، وأغلق مدارس الفلسفة فى أثينا، واضطهد الفلاسفة، ففر بعضهم إلى فارس، حيث رحب بهم كسرى أنوشروان، وأسس لهم مدرسة فلسفية بجنديسابور، فعلموا بها الفلسفة والرياضة والطب ومنطق أرسطو [1]، ثم تنصر بعضهم، وصبغ نصرانيته بفلسفته.

وفى هذا الوقت ألف بولس برسا المسيحى مختصراً لمنطق أرسطو باللغة السريانية، ليقرأه كسرى «عرض فيه الآراء المختلفة الخاصة بالله والعالم على هذا النحو: لقد وجد من يعتقدون فى إله واحد، ويدعى آخرون أنه ليس بواحد، ويقول آخرون إن له صفات متعددة، وينفى آخرون عنه الصفات، وبعضهم يقول إنه قادر على كل شىء، وبعضهم يقول إن قدرته لاتشمل كل شىء، وبعضهم يقول إنه خلق الدنيا وكل مافيها، وآخرون يقولون إنه ليس خالق كل شىء، وهناك من يقول إن العالم محدث، وآخرون يقولون إنه عالم قديم».

وقد عقب (كاسارتلى) على هذا بأن المؤلف وصف الآراء الشائعة فى صلب الديانة الإيرانية نفسها فى الوقت الذى عاشت فيه [2].

وكان السريان يساهمون فى نشر الأفلاطونية الحديثة بالعراق وما حوله، إذ كانت لهم مراكز علمية بالرها ونصيبين وحران وجنديسابور، وكانوا يترجمون من اليونانية إلى السريانية، ثم ترجموا من السريانية إلى العربية، واستمر جهدهم هذا من القرن الرابع إلى العاشر الميلادى [3].

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ١٨ — ٢١ دى بور
(٢) إيران فى عهد الساسانيين ٤١١ كريستنسن
(٣) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ١٩ دى بور

ومن أشهر رجالهم (ابن ديصان إبار ديصان المتوفى سنه ٢٢٢ م) الذى كان ينـكر بعث الأجسام ، ويعقوب الرهاوى (٢٠ — ٩٠ هـ/ ٦٤٠ــ٧٠٨ م) الذى أباح لرجال الدين أن يعلموا أبناء المسلمين . ومعنى هذا أن بعض المسلمين كانوا يشتاقون إلى دراسة الفلسفة على أساتذة من السريان ، وأن هؤلاء كانوا يترددون فى تعليمهم ولايقبلون عليه .

وكانت طوائف النصارى فى الأقاليم التى فتحها المسلمون تتجادل فى طبيعة المسيح،وتتجادل فى رجعته، وتختلف فى البعث أيكون بالأجسام والأرواح معاً أم بالأرواح وحدها ؟ وتتنازع فى صفات الله تعالى أهى ذاته أمزائدة على ذاته ؟ وتختلف فى أعمال الناس أجبرية أم اختيارية ؟ وفى خضم هذا الجدل كانت الفلسفة اليونانية تموج ، ويتقوى بها المجادلون ، إذ كان كثير من رجال المسيحية فلاسفة أو دارسين للفلسفة مثل الأب أوغسطينيوس (٢٥٤ - ٣٤٠ م) وكانت الإسكندرية ملاذ النصرانية المفلسفة أو الفلسفة المنصّرة

ثم احتدم الجدل بين المسلمين والنصارى ، فألف يحيى الدمشقى النصرانى (توفى سنة ١٣١ هـ ٧٤٨ م) رسالة فى الرد على المسلمين تجرى على هذا النهج : إذا قال لك العربى كذا فأجبه بكذا .

وأغلب الظن أن كثيراً من آرائه فى هذا الحوار ، وفى مذهبه فى القضاء والقدر ، وحرية الإرادة ، قد تسربت إلى المسلمين ، لأن بعض مناقشاته كانت تدور فى مجلس الخليفة .

وكان من أثر هذا كله أن تطور الفكر العربى ، فظهرت ألوان جديدة من الثقافة يمازج بعضها بعضاً ، وكانت ينابيع هذه الثقافة عربية وإسلامية ودخيلة ، وصار بعض المسلمين الذين حملوا ألوية التفكير على صلة وثيقة وشبه وثيقة بهذه الثقافات ، واستعانوا بها فى مجادلاتهم لليهود والنصارى وغيرهم ، وكان المعتزلة أقدر المسلمين على هذه المجادلات ، لأنهم فى طليعة الدارسين

للفلسفة وللعلوم المختلفة ، شغفاً بالمعرفة ، ورغبة فى الإحاطة بمايعلمه خصومهم ، وليستطيعوا محاجتهم ومناظرتهم ، وليؤيدوا أصول الإسلام بأدلة ليست من القرآن والحديث يضطر أعداء الإسلام إلى التسليم بها .

لهذا قال الجاحظ[١] : « لا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام ، متمكناً فى الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا هو الذى يجمعهما » .

وذكر المقريزى أن المأمون بعث إلى بلاد الروم من عربوا له كتب الفلاسفة، فقرأها المعتزلة ، وأقبلوا على تصفحها والنظر فيها ، فاشتد ساعدهم بها[٢] .

وجاء فى وصف المرتضى لواصل بن عطاء أنه ليس أحد أعلم بكلام الشيعة ومارقة الخوارج والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين والرد عليهم من واصل[٣] ، وقوله إن جعفر البرمكى ذكر أرسطاليس، فقال النظام قد نقضت عليه كتابه، فقال جعفر : كيف وأنت لاتحسن أن تقرأه؟فقال أيما أحب إليك ؟ أن أقرأه من أوله إلى آخره أم من آخره إلى أوله ؟ ثم اندفع يذكر منه شيئاً فشيئاً ، وينقضه عليه، فعجب منه جعفر[٤] .

وذكر الشهرستانى عند قول المعتزلة بنفى الصفات القديمة أن هذه المقالة كانت فى مبدأ الأمر غير نضيجة ، وكان واصل بن عطاء يذهب إلى أن من أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين ، وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة ، وانتهى نظرهم إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالماً قادراً ، ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان ، أوحالان، ومال أبو الحسن البصرى إلى ردهما

(١) الحيوان ٢/ ١٣٤
(٢) الخطط ٤/ ١٨٣
(٣) المنية والأمل ١٨
(٤) المرجع السابق ٢١

إلى صفة واحدة وهى العالمية ، وذلك عين مذهب الفلاسفة (١) .

ومعنى هذا أن تيارات عدة من النصرانية المُفَلْسَفَة ، ومن الفلسفة المتنصِّرة، ومن اليهودية وغيرها، تسربت إلى المسلمين الباحثين، وإلى المسلمين الذين يدافعون عن الإسلام ، أو عن رأى من الآراء المذهبية .

وهذا فى رأى كريمر هو التعليل الذى يجب أن يفسر به التشابه البَيِّن الذى نلاحظه فى مظاهر المسيحية البيزنطية والتعاليم الإسلامية .

إن البحث فى كنه الله وصفاته هو أول شىء له المقام الأول فى مؤلفات آباء الكنيسة الإغريق وأقدم علماء الدين المسلمين، وهؤلاء المسلمون شغلوا أنفسهم إلى حد كبير بالأبحاث التى تدور حول القضاء والقدر والإرادة ، مثلهم فى هذا مثل آباء الكنيسة الشرقية . ثم يفصل فون كريمر رأيه بعد ذلك فى الصلات والمشابهات التى بين الكنيسة الشرقية والإغريقية فى الشام وبين المرجئة والقدرية (٢) .

أما فى العراق فإن التشابه قوى بين آراء المعتزلة التى غرس الحسن البصرى غراسها الأول وبين آراء النساطرة الدينية المتأثرة بالفلسفة الإغريقية ، ولهذا يقول دى بور : « هناك دلائل متفرقة على أن طائفة من المسلمين الأولين الذين قالوا بالاختيار تتلمذوا لأساتذة مسيحيين (٣) ».

وقد يعزز هذا ما قيل من أن أول من تكلم فى القدر نصرانى من العراق أسلم، ثم عاد إلى نصرانيته ، وأخذ عنه مَعْبد الجُهَنى وغيلان الدمشقى القدرى ، وهما من المرجئة (٤) .

(١) الملل النحل ١ / ٥١
(٢) الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ٦٦ فون كريمر .
(٣) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ٤٩ دى بور
(٤) سرح العيون ١٦٦ لابن نباتة وصحيح مسلم كتاب الإيمان

ويروى أن الجعد بن درهم أول من تكلم فى خلق القرآن بدمشق ، ثم طُلب فهرب حتى نزل الكوفة ، فتعلم منه الجهم بن صفوان ، ويقال إن الجعد أخذ آراءه عن أبان بن سمعان ، وأبان كان تلميذا لطالوت، وطالوت كان تلميذا لخَتَنه لبيد بن الأعصم اليهودى ، وكان طالوت يقول بخلق التوراة وكان زنديقا (١) ، وهو أول من صنف فى ذلك ، ثم أظهر الجعد بن درهم هذه الآراء ، فقتله خالد القسرى بالكوفة فى عهد هشام بن عبد الملك ، كما قتل فى عهده غيلان الدمشقى لأنه كان قدريا (٢) ، وقد كان الجعد من المرجئة وهم - كما سبق - أصل المعتزلة.

ثم طالعت المعتزلة مثل أبى الهذيل العلاف والنظام ومُعَمَّر بن عبّاد والجاحظ كتب الفلاسفة فى زمن المأمون ، واستخرجوا منها ماخلطوه بأوضاع الشرع ، وتشعبت مباحثهم ، وتنوعت آراؤهم ، فسميت بحوثهم بعلم الكلام (٣) .

وقد أكد دى بور أن مذاهب المتكلمين تأثرت بعوامل مسيحية أبلغ التأثر ، فتأثرت العقائد الإسلامية فى تكونها بمذاهب الملكانية واليعاقبة فى دمشق ، كما تأثرت فى البصرة وبغداد بالمذاهب النسطورية والغنوسطية ، ولم يخلص إلينا إلا القليل من الآثار المكتوبة المتعلقة بتلك الحركة فى أوائل نشاطها ، غير أننا لا نخطىء الصواب إذا قلنا إن اختلاط المسلمين بالمسيحيين وتلقيهم العلم عنهم فى المدارس كان له عظيم الأثر فى ذلك.

ونحن نجد بين مذاهب المتكلمين الأولى فى الإسلام وبين العقائد المسيحية شبها قويا لا يستطيع أحد معه أن ينكر أن بينهم اتصالا مباشرا ، وأول مسألة قام حولها الجدل بين علماء المسلمين هى مسألة الاختيار، وكان المسيحيون الشرقيون يكادون جميعا يقولون بالاختيار (٤) .

(١) ابن الأثير ٧ / ٢٦
(٢) سرح العيون ١٦٨ وابن الأثير ٥ / ١٩٦
(٣) الفرق بين الفرق ١٠٩ ونقد العلم والعلماء ١٠٢
(٤) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ٤٨

ولـكن المعتزلة مع هذا كله كانوا يسندون أصول آرائهم إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، لأنهم يستقون من واصل بن عطاء ومن عمرو بن عبيد ، وهذان أخذا عن محمد بن على بن أبى طالب وابنه أبى هاشم عبد الله ، وقد أخذ محمد عن أبيه على ، وأخذ على عن رسول الله ، ويقولون إن محمد بن على هو الذى ربى واصل بن عطاء وعلمه وخرجه ، كما رووا أخباراً شتى تعزز مذهبهم منسوبة إلى أبى بكر وعمر وعثمان والحسن وابن عباس (١) .

كما أنهم أولوا الآيات القرآنية تأويلا يوافق مذهبهم ، ويؤيدهم فى الرد على مخالفيهم ، وفى نقض الشبه التى أثارها خصوم الإسلام ، لأن القرآن هو القانون الذى تستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل (٢) .

أما دفاع المعتزلة عن الإسلام فقد بدأ من عهد مبكر ، منذ رد واصل بن عطاء على مخالفى مذهبه ، وهو فى الثلاثين من عمره ، وذكر عمرو الباهلى أنه قرأ الجزء الأول من كتاب ألف مسألة فى الرد على المانوية من تآليف واصل ، وأحصى فى ذلك الجزء نيفا وثمانين مسألة . وذكر مناظرات أبى الهذيل العلاف مع المجوس والثنوية وغيرهم طويلة مفصلة ، ويقال إنه أسلم على يده أكثر من ثلاثة آلاف رجل (٣) .

وللجاحظ فى هذا الميدان بلاء عظيم ، فله رسالة فى الرد على النصارى (٤) ، وله كتاب فى الرد على الرافضة (٥) ، وله ردود ومناقشات شتى فى كتاب

(١) المنية والأمل ٤
(٢) الكشاف ١ / ٤٨٨
(٣) المنية والأمل ٢١
(٤) ضمن مجموعة (ثلاث رسائل للجاحظ) نشرها يوشع فنكل
(٥) ذكره الجاحظ فى رسالة بيان مذاهب الشيعة ١٨١ من مجموعة رسائل الجاحظ طبعة ساسى

الحيوان ، كرده على المجوس فى إنكار عذاب النار (١) ، ورده على زرادشت فى تخويف أصحابه بالبرد والثلج (٢) ، وإبطاله لإنكار الدهرية ملك سليمان وملكة سبأ (٣) .

وللمعتزلة بعامة جهد عظيم فى بعض آراء الرافضة ، يتمثل فى المناظرة تارة ، وفى تأليف الرسائل والكتب تارة ، كما فعل ابن الخياط فى كتابه الانتصار .

أصول المعتزلة وكيف أيدها

للمعتزلة أصول قام عليها مذهبهم (٤) ، وقد أيدها الزمخشرى بكل ما استطاع من فكر وبيان ، وأول الآيات القرآنية بما يتفق مع هذه الأصول ويؤكدها .

(١) التوحيد

المسلمون جميعا موحدون ، لا يشركون مع الله أحدا ، ولكن المعتزلة وصلوا بتوحيدهم إلى حد التفلسف ، وبنوا عليه أمورا لم يكن أحد من المسلمين يعرض لها .

فقد وجدوا فى القرآن الكريم آيات تنزه الله عن المشابهة ، وآيات يدل ظاهرها على التجسيم ، ورأوا آيات تدل على أنه تعالى ليس فى جهة أو مكان ، وآيات يفهم من ظاهرها الجهة والمكان .

(١) الحيوان ٥ / ٦٩
(٢) الحيوان ٥ / ٦٨
(٣) الحيوان ٤ / ٨٥
(٤) المنية والأمل ٦ والملل والنحل ١ / ٤٩

وكان كثير من المسلمين ينزهون الله عن المماثلة ، ويمسكون عن الكلام في الآيات التي يدل ظاهرها على المماثلة ، مؤثرين البعد عن التأويل .

أما المعتزلة فلم يرتضوا هذا المسلك ، وجعلوا يؤولون الآيات التي يفهم من ظاهرها التجسيم أو الحلول في جهة أو مكان تأويلا يتفق وتنزيهَ الله سبحانه عن المشابهة ، حتى روى أن النظام ناجى ربه بقوله وهو يحتضر : اللهم إن كنت تعلم أني لم أقصر في نصر توحيدك ، ولم أعتقد مذهبا من المذاهب اللطيفة — يريد الفلسفية — إلا لأشد به التوحيد ، فما كان منها يخالف التوحيد فأنا منه برىء ، اللهم فإن كنت تعلم أني كما وصفت فاغفر لي ذنوبي ، وسهل علىّ سكرة الموت (1) .

وبنوا على هذا التوحيد كثيراً من المعتقدات .

١ — فنفوا عن الله الصفات المستقلة القديمة ، وقالوا إنه عالم بذاته ، قادر بذاته ، حي بذاته ، وليست الحياة والقدرة والعلم صفات غير ذاته ، بل هي صفات قديمة ومعان قائمة به ، لأنها لو شاركته في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الألوهية ، وهو سبحانه منزه عن المثيل ، لأنه القديم الأزلي وماسواه محدث ، فلا يصح أن تكون له صفات أزلية منفصلة عنه ، لأن القول بها تعدد .

ولهذا سموا أنفسهم أهل التوحيد (2) .

ويتصل بالتوحيد رد الصفات كلها إلى كونه عالما قادراً ، والحكم بأنهما صفتان ذاتيتان أو اعتباران للذات القديمة أوحالان (3) .

(١) الانتصار للخياط ٤١
(٢) الملل والنحل ١ / ٤٩
(٣) الملل والنحل ١ / ٥٢

وذكر الشهرستاني من آراء أبي الهذيل العلاف — وهو من شيوخ المعتزلة — أنه انفرد عن أصحابه بقواعد ، منها أن الباري تعالى عالم بعلم ، وعلمه ذاته ، قادر بقدرة ، وقدرته ذاته ، حي بحياة ، وحياته ذاته .

وعقب الشهرستاني بقوله : إنما اقتبس هذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا أن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه ، وإنما الصفات ليست وراء الذات معاني قائمة بذاته ، بل هي ذاته . . . . ثم قال : وإذ أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وُجوها للذات ، فهي بعينها أقانيم النصارى أو أحوال أبي هاشم (1) .

٢ — ونفوا التشبيه عن الله سبحانه نفياً تاماً من كل وجهة ، مكانا وجهة وصورة وجسما وتحيزاً وانتقالا وتغيراً ، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة ، وسموا هذا توحيداً (2) .

وقد حرص الزمخشري على تأويل الآيات وفق هذه العقيدة فلم يدع شبهة تعلق بها إلا محاها .

فقال في تفسير قوله تعالى : « ولما جاء موسى لِميقاتنا وكلَّمه ربُّه قال ربِّ أرني أنظرْ إليك ، قال لن تراني » (3) :

كلمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك ، وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقا به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطا في اللوح ، وروى أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة .

وعلق ابن المنير بقوله (4) : هذا تصريح منه بخلق الكلام ، كما هو معتقد المعتزلة .

(١) الملل والنحل ١ / ٥٣ يريد أن أبا هاشم قال إن العلم والقدرة حالان للذات الإلهية .
(٢) الملل والنحل ١ / ٤٩
(٣) سورة الأعراف ١٤٣
(٤) سيأتي التعريف به في قيمة الكشاف وأثره .

والذى يخص هذه الآية من وجوه الرد عليه أنها سيقت مساق الامتنان على موسى باصطفاء الله له وتخصيصه إياه بتكليمه ، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها : « إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فَخُذْ ما آتيتك وكن من الشاكرين » فلو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف والأصوات فى بعض الأجرام واستماع موسى لذلك لكان كل أحد يساوى موسى عليه السلام فى ذلك ، بل كان آحاد أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام آثر بهذه المزية وأحق بالخصوصية من موسى ، لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام وأزكاها خلقا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت مزيتهم أظهر وخصوصيتهم أوفر ، ونحن نعلم ضرورةً من سياق هذه الآية تميز موسى بهذه المزية ، فلايحمل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى بلا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها ، وكما أجزنا من المعقول أن يُرَى ذات البارى وإن لم يكن جسما ، فكذلك نجيز أن يُسْمَع كلامه وإن لم يكن حرفا ولا صوتا[1] .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ثم جعلناكم خلائفَ فى الأرضِ لننظرَ كيف تعملون[2] » : أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكنا ، لننظر أتعملون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب عملكم .

فإن قلت : كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة ؟

قلت : هو مستعار للعلم المحقق الذى هو العلم بالشىء موجودا أشبه بنظر الناظر وعيان المعاين فى تحققه .

---

(١) الكشاف وهامشه ١ / ٣٤٥
(٢) سورة يونس ١٤

وعلق ابن المنير بقوله :

كنت أحسب أن الزمخشرى يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى، فضم إلى ذلك إنكار رؤية الله ، والجمع بين هاتين النزعتين عقيدة طائفة من القدرية يقولون إن الله لا يَرَى ولا يُرَى ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا[1] .

وقال فى تفسير قوله تعالى «ولله الأسماء الحُسنى فادعُوهُ بها ، وذَرُوا الذين يُلحِدُون فى أسمائه ، سَيُجزَون ما كانوا يَعملون[2] » :

لله أحسن الأسماء ، لأنها تدل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك، فسموه بتلك الأسماء ، واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، فيسمونه بغير الأسماء الحسنى ، وذلك أن يسموه بما لايجوز عليه ، أو يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى .

ويجوز أن يراد ولله الأوصاف الحسنى ، وهى الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق ، فصفوه بها ، وذروا الذين يلحدون أوصافه ، فيصفونه بمشيئة القبائح وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل فى التشبيه كالرؤية ونحوها .

وعقب ابن المنير على هذا بقوله :

لابدع حشو العقائد الفاسدة فى غير موضع ، فإن يكن المراد الأوصاف الحسنى منها وصف الله بعموم القدرة والانفراد بالمخلوقات حتى لايُشْرِك معه عباده فى خلق أفعالهم ، ويعظم الله تعالى بأنه لايسأل عما يفعل ، وأن كل قضائه عدل ، وأنه لايجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بعقولهم ، وأن وعده الصدق وقوله الحق ، وقد وعد رؤيته فوجب وقوعها ، إلى غير ذلك من أوصافه[3]

---

(١) الكشاف وهامشه ١ / ٤١٦
(٢) سورة الأعراف ١٨٠
(٣) الكشاف وهامشه ١ / ٣٥٨

وقال فى تفسير قوله تعالى: «وما قدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه ، والأرضُ جميعاً قَبْضَتُه يومَ القيامة والسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بيمينه ، سُبحانه وتعالى عمَّا يُشرِكون[1] » : نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل ، فقال « والأرضُ جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه » .

والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصور عظمته، والتوقيف على كنه جلاله لاغير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ، و كذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله فقال : يا أبا القاسم إن الله يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع ، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يهزهن فيقول أنا الملك . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبا مما قال ، ثم قرأ تصديقا له «وما قدروا الله حق قدره إلى آخر الآية» وإنما ضحك أفصح العرب وتعجب ، لأنه لم يفهم منه إلا ما لا يفهمه إلا علماء البيان من غير تصور إمساك ولا إصبع ولا هز ولا شىء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول شىء وآخره على الزبدة والخلاصة التى هى الدلالة على القدرة الباهرة، وأن الأفعال العظام التى تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هَواناً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبارة فى مثل هذه الطريقة من التخييل ، ولا ترى بابا فى علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى فى القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فإن أكثره تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديما ، وما أُتِى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير ، حتى يعلموا أن فى عداد العلوم الدقيقة علما لو قدروه حق قدره لما خفى عليهم أن العلوم

(١) سورة الزمر ٦٧

كلها مفتقرة إليه وعيال عليه ، إذ لا يحل عقدها المورية ، ولا يفك قيودها المكربة إلا هو .

و كم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة ، لأن من تأول ليس من هذا العلم فى عير ولا نفير ، ولا يعرف قبيلا له من دبير .

وعقب على هذا ابن المنير فقال :

إنما عنى بما أجراه ها هنا من لفظ التخييل التمثيل ، وإنما العبارة موهمة منكرة فى هذا المقام ، لا تليق به بوجه من الوجوه[1] .

وقال فى تفسير قوله تعالى « الرَّحْمَنُ على العَرْشِ اسْتَوَى »[2] :

لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يرادف الملك جعلوه كناية عن الملك، فقالوا استوى فلان على العرش ، يريدون ملك وإن لم يقعد على السرير البتة ، وقالوه أيضاً لشهرته فى ذلك المعنى ومساواته ملك فى مؤداه ، وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر ، ونحوه قولك يد فلان مبسوطة ، ويد فلان مغلولة ، بمعنى أنه جواد أو بخيل ، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت، حتى إن من لم يبسط يده قط بالنوال ، أولم تكن له يد ، قيل فيه يده مبسوطة، لمساواته عندهم قولهم هو جواد . وفى قول الله عز وجل : «وقالت اليهودُ يَدُ اللهِ مَغْلولةٌ[3] » أى هو بخيل « بل يداه مبسوطتان[4] » أى هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط ، والتفسير بالنعمة ، والتمحل للتثنية من ضيق

(١) الكشاف وهامشه ٢ / ٣٠٥
(٢) سورة طه ٥
(٣) سورة المائدة ٦٤
(٤) سورة المائدة ٦٤

العطن ، والبعد عن علم البيان مسيرة أعوام [1] .

ولم يعلق ابن المنير على هذا بشىء .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يَدُ اللهِ فَوْقَ أيديهم » [2] :

أكد المبايعة على طريق التخييل فقال (يد الله فوق أيديهم) يريد أن يد رسول الله التى تعلو أيدى المبايعين هى يد الله ، والله تعالى منزه عن الجوارح ، وعن صفات الأجسام ، وإنما المعنى تقرير عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما ، كقوله تعالى : « مَنْ يُطعِ الرَّسولَ فقد أطاعَ اللهَ » [3] . والمراد بيعة الرضوان [4] .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ونحن أقْرَبُ إليه من حَبْلِ الوَرِيدِ » [5] .

القرب هنا مجاز ، والمراد قرب علمه منه، وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقا لا يخفى عليه شىء من خفياته، فكأن ذاته قريبة منه ، كما يقال الله فى كل مكان ، وقد جل عن الأمكنة [6] .

وقال فى تفسير قوله تعالى: « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلالِ والإكرامِ [7] »:

وجه ربك : ذاته ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات ، ومساكين مكة يقولون : أين وجه عربى كريم ينقذنى من الهوان .

(١) الكشاف ٢/٢٠
(٢) سورة الفتح ١٠
(٣) سورة النساء ٨٠
(٤) الكشاف ٢/٣٨٣
(٥) سورة ق ١٦
(٦) الكشاف ٢/٤٠٢
(٧) سورة الرحمن ٢٧

وقرأ عبد الله (ذى الجلال) على صفة ربك، ومعناه : الذى يُجِلُّه الموحدون عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم ، أو الذى يقال له ما أجلك وأكرمك ، أو من عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده .

وعلق ابن المنير بقوله :

المعتزلة ينكرون الصفات الإلهية التى دل عليها العقل ، فكيف بالصفات السمعية ؟ على أن من الأشعرية من حمل الوجه واليدين والعينين على نحو ما ذكر، ولم ير أنها صفات سمعية [1] .

٣ — وأنكروا رؤية العباد لله بأبصارهم فى الآخرة [2] ، لأن الجسمية إذا انتفت انتفت الجهة ، وإذا انتفت الجهة انتفت الرؤية ، وبهذا أولوا الآيات والأحاديث ، ونفوا بعض الأحاديث ، لأنها أخبار آحاد .

وللزمخشرى فى نفى الرؤية حديث طويل ، منه ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : « ولما جاء موسى وكلَّمه ربُّه، قال ربِّ أرنى أنظرْ إليك ، قال لن ترانى ولكن انظرْ إلى الجبل ، فإنِ استقرَّ مكانهُ فسوف ترانى ، فلما تجلَّى ربُّه للجبل جعَلَه دكًّا ، وخرَّ موسى صَعِقًا ، فلما أفاقَ قال : سُبْحانك تُبْتُ إليك وأنا أولُ المؤمنين » [3] :

أرنى نفسك أنظر إليك ، والرؤية عين النظر، فكيف قال أرنى أنظر إليك؟ أى اجعلنى متمكنا من رؤيتك بأن تتجلى لى فأنظر إليك وأراك .

وإذ كانت الطَّلِبة هى الرؤية لا النظر الذى لا إدراك معه ، قال تعالى (لن ترانى) ولم يقل لن تنظر إلى .

(١) الكشاف وهامشه ٢/٤٢٥
(٢) الملل والنحل ١/٤٩
(٣) سورة الأعراف ١٤٣

فإن قلت : كيف طلب موسى عليه السلام ذلك ، وهو من أعلم الناس بالله وصفاته ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، وبتعاليه عن الرؤية التى هى إدراك ببعض الحواس ، وذلك إنما يصح فيما كان فى جهة ، وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون فى جهة ، ومنعُ المجبرة إحالته فى القول غير لازم ، لأنها ليست بأول مكابرتهم وارتكابهم ، وكيف يكون طالبه وقد جاء فى السورة نفسها : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتهمُ الرجفةُ قال : ربِّ لو شئتَ أهلكتَهم من قبلُ وإياى ، أتهلكنا بما فعلَ السفهاء منا ؟ إن هى إلا فتنتك تُضِلُّ بها من تشاء ، وتهدى من تشاء ، أنت ولينا ، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خيرُ الغافرين » [1] فتبرأ من فعلهم ، ودعاهم سفهاء وضلالا ؟

قلت : ما كان طلب الرؤية إلا ليبكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالا وتبرأ من فعلهم ، وليلقمهم الحجر ، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ، ونبههم على الحق ، فلجوا وتمادوا فى لجاجهم ، وقالوا لابد ، ولن نُؤمِنَ لكَ حتى نرىَ اللهَ جَهْرةً ، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك ، ليتبينوا ، وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة ، فلذلك قال ربى أرنى أنظر إليك ، وإذ كان فى هذا الرد زجر لموسى عما طلب ، وإنكار عليه فى نبوته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى كانوا هم أولى بالإنكار .

وجاء النفى بلن لتأكيد النفى فى المستقبل كقوله تعالى « إنَّ الذين تدْعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له » [2] ، فقوله « لا تدركه الأبصار [3] » نفى الرؤية فيما يستقبل ، (ولن ترانى) تأكيد وبيان، لأن النفى مضاف لصفاته . فإن قلت : كيف اتصل الإدراك فى قوله (ولكن انظر إلى الجبل) بما قبله ؟

(١) سورة الأعراف ١٥٥
(٢) سورة الحج ٧٣
(٣) سورة الانعام ١٠٣

قلت : اتصل به على معنى أن النظر إلىَّ محال فلا تطلبه ، ولكن عليك بنظر آخر ، وهو أن تنظر إلى الجبل الذى يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به، وكيف أجعله دكًّا بسبب طلبك الرؤية ، لتعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره ، فإنه عز وعلا حقق عند طلبك الرؤية ما مثله عند نسبه الولد إليه فى قوله : « وتخرُّ الجبال هداً أن دعَوْا للرحمن ولداً [1] »

وقد علق وجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكه ويسويه بالأرض

وهذا كلام مدمج بعضه فى بعض وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع ، ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك ، ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة فى وجود الرؤية ، أعنى قوله « فإن استقر مكانه فسوف ترانى » فلما تجلى ربه للجبل ، وظهر له اقتداره، وتصدى له أمره وإرادته، جعله مدكوكا، وخر موسى مغشياً عليه من هول ما رأى ، فلما أفاق من صعقته قال: سبحانك أنزهك عما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها ، تُبْتُ من طلب الرؤية، وأنا أول المؤمنين بأنك لست بمرئى ولا بمدرك بشىء من الحواس .

فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية فى هذه الآية ، وكيف أرجف الجبل بطالبيها ، وجعله دكا ، وكيف أصعقهم ، ولم يخل كليمه موسى من نفيان ذلك مبالغة فى إعظام الأمر ، وكيف سبح ربه ملتجئاً إليه ، وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه ، وقال أنا أول المؤمنين .

ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة كيف

(١) سورة مريم ٩٠ — ٩١

اتخذوا هذه العظيمة مذهبا ، ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة[1] ، فإنه من منصوبات أشياخهم ، والقول ما قال بعض العدلية فيهم :

لجماعة سموا هواهم سنة	وجماعة حُمُر لعمري . مُوكَفَة
ولقد شبهوه بخلقه وتخوفوا	شُنعَ الورى فتستروا بالبلكفة[2]

ولم يرتض أهل السنة هذا الرأى ، فردوا عليه .

قال أبو زكريا يحيى بن عصام — من تلمسان — فى رده على هذين البيتين :

قل للذى تَسمّى الهداة أولى النهى	حُمُرا لأن سُبابَ الهدى والمعرفة
فغدا يُرجّح الاعتزالَ جهالةً	ويروقه زورُ الضلال وزخرفه
سوّغت ذمّ جماعةٍ سُنّيةٍ	قد أحرزوا من كل فضل أشرفه
هم شيعة الحق الذى ما بعده	إلا مَهاوِى فى الضلالة مُتلِفه

وقال القاضى أبو حفص بن عمر فى هذا أيضاً :

أجهلتمُ صفة الإله وفعله	ونسبتموه لغيره بالزخرفه
وأردتمُ تنزيهه فدُفعتمُ	فى الشرك والإلحاد والأمر السَّفه
خالفتمُ سنن النبى وصحبه	وتبعتمُ فى الزيغ أهل الفلسفة[3]

وعلق ابن المنير قوله :

ما أشد ما اضطرب كلامه فى هذه الآية ، لأن غرضه أن يدحض الحق بالضلالة ، ويشين بكفه وجه الغزالة . هيهات ، قد تبين الصبح لذى عينين ، فالحق أبلج لا يمازجه ريب إلا عند ذى رَيْن .

(١) البلكفة : يريد أنهم يقالون ان الله يرى بلا كيفية
(٢) الكشاف ١/٣٤٦
(٣) الرحلة المغربية ٢٠

أما حظ المعقول من إجازة رؤية الله تعالى فوظيفة علم الكلام ، وأخصر وجه فى إجازة ذلك أن الوجود مصحح الرؤية ، بدليل أن جواز الرؤية حكم يستدعى مصححا ، وقد شمل الجواز والجوهر ولاجامع بينهما يمكن جعله مصححا سوى الوجود ، وإذا كان الوجود هو المصحح فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده .

وأما استبعاد أن يرى ما ليس فى جهة فأمر وهمى مثله عرض للمعطلة ، فعميت أبصارهم حتى أنكروا موجودا إلا فى جهة ، ومن اتبع الأوهام اعتسق مهامه الضلال وهام ، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرئى لكانت المعرفة تتوقف على جهة المعروف ، ولاخلاف أنه سبحانه يُعْرَفُ لا فى جهة ، فكذلك يُرَى لا فى جهة ، فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه ، لعلمه بجواز ذلك على الله تعالى .

والقدرية يجرئهم الطمع حتى يروموا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدهم ، وماهم حينئذ إلا ممن آذوا موسى «فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها» .

وأما قول موسى : «أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟» تبرؤاً من أفاعيلهم ، وتسفيها لهم وتضليلا لرأيهم ، فلا راحة للقدرية فى الاستشهاد به على إنكار موسى لجواز الرؤية ، فإن الذى كان الإهلاك بسببه إنما هو عبادة العجل فى قول أكثر المفسرين .

ثم إن كان السبب طلبهم الرؤية فليس لأنها غير جائزة على الله ، ولكن لأن الله تعالى أخبر أنها لا تقع فى دار الدنيا ، والخبر صدق ، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية ، فلما سألوا وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها كان طلبهم خلاف

المعلوم تكذيبا للخبر ، فمن ثم سفههم موسى وتبرأ من طلب ما أخبر الله أنه لا يقع .

ولو كان سؤالهم عن الرؤية قبل إخبار الله تعالى بعدم وقوعها فإنما سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة وتوقيفهم الإيمان عليها حيث قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، ألا ترى أن قولهم : « لن نؤمن لك حتى تُفَجِّرَ لنا من الأرض ينبوعاً[1] » إنما سألوا فيه جائزا ، ومع ذلك قُرِّعوا به لاقتراحهم على الله مالا يتوقف وجوب الإيمان عليه .

فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشرى بعين الهوى ، وعمايته عن سبيل الهدى . وأما زعمه أن موسى طلب الرؤية لهم ، فإنه مردود بأنه لو كان طلب الرؤية لهم حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أيقنوا أنها ممتنعة لكان طلبها عبثا غير مفيد ، لأن هؤلاء لا يخلو أمرهم إما أن يكونوا مؤمنين بموسى أو كفارا به ، فإن كانوا مؤمنين به فإخباره إياهم بأن الله تعالى لا يرى ولا يجوز عليه ذلك كاف فى حصول المقصود من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن يريه ذاته على علم بأن ذلك محال ، وإن كانوا كفارا بموسى فلا يحصل الغرض من ذلك أيضا ، لأن الله إذا منعه مسئوله فإنما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن الله تعالى إنه منعه ذلك ، وهم كفار بموسى ، فكيف يفيدهم غيره عن الله بامتناع ذلك ؟

فهذا أوضح مصداق لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقادا بجوازها ، فأخبر الله أن ذلك لا يقع فى الدنيا وإن كان جائزا .

أما قوله إن (لن) تؤكد النفى فإنها كذلك ، ولكن استنباطه منافاة الرؤية لحال البارى عز وجل ، واستشهاده على أنها تشعر باستحالة المنفى عنها

(١) سورة الإسراء ٩٠

عقلا ، مردود بكثير من الآيات ، كقوله تعالى : « قل لن تخرجوا معى أبداً[1] » فذلك لا يحيل خروجهم عقلا ، وقوله : « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن[2] » و : « لن تَتَّبِعونا[3] » فهذه كلها جائزات عقلا ، لولا أن الخبر منع من وقوعها ، فالرؤية كذلك .

وأما قوله إن الله حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه ، فإنه مفرع على المعتقد السالف بطلانه ، وليس له فى هذا الفصل وظيفة إلا تتبع الشبه لامتناع الرؤية تلقفها من كل فج .

والحق أن دك الجبل إنما كان لأن الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء ، ولا تستقر الدنيا من إظهار شىء من ملكوت السماء ، وهذا هو المأثور عن السلف فى هذه الآية ، ومعناه عند أبى الحسن (الأشعرى) رحمه الله فعل فعلا سماه تجليا ، وكان الغضب إما لأنهم طلبوا رؤية جسمانية فى جهر ، وإما لأنهم كتموا الخبر بأنه لا يرى فى الدنيا ، وإما لأنهم كفروا بالاقتراح أو بالمجموع .

وأما قوله إن الله تعالى علق وجود الرؤية على وجود ما لا يكون من استقرار الجبل ، فإنه من حيل القدرية فى إحالة الرؤية ، يقولون قد علقها الله على شرط محال وهو استقرار الجبل حال دكه، والمعلق على المحال محال . وهذه حيلة باطلة ، فإن المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار ، وذلك ممكن وجائز ، وتعلق العلم لا يغير المعلوم ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع ولا العكس ، وحينئذ يتوجه دليلا لأهل السنة، فنقول إن استقرار الجبل ممكن،

(١) سورة التوبة ٨٣
(٢) سورة هود ٣٦
(٣) سورة الفتح ١٥

وقد علق عليه وقوع الرؤية ،والمعلق على الممكن ممكن ، والمعتزلة يعتقدون أن خلاف المعلوم لايجوز أن يكون مقدورا ،ونحن نقول مقدورا ، ولـكن المشيئة لم تتعلق بإيجاده .

وأما توبة موسى وتسبيحه فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية فى الدنيا .

ثم ختم رده بأنه مضطر إلى أن ينافح عن أصحاب سنة ، رسول الله كما نافح حسان بن ثابت أعداء رسول الله ، وذكر هذه الأبيات المناقضة لبيتى الزمخشرى :

وجماعة كفروا برؤية ربهم   حقا ، ووعْدُ الله مالن يخلفه
وتلقبوا عَدْلية ً.قلنا أجل   عـدلوا بربهم فحسبهمُ سفه
وتلقبوا الناجين كلا إنهم   إن لم يكونوا فى لظى فعلى شفه[1]

وقال فى تفسير قوله تعالى : «لا تُدْرِكه الأبصارُ ،وهو يُدْرِكُ الأبصار، وهو اللطيف الخبير »[2] البصر هو الجوهر اللطيف الذى ركبه الله فى حاسة النظر ، بهتدرك المبصرات ، فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ، ولا تدركه ، لأنه متعال أن يكون مبصرا فى ذاته ، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان فى جهة أصلا أو تبعا كالأجسام والهيئات، وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التى لايدركها مدرك ، وهو يلطف عن أن تدركه الأبصار ، الخبير بكل لطيف،فهو يدرك الأبصار[3] .

وعلق ابن المنير على هذا بقوله :

يريد الزمخشرى من الإدراك الإحاطة ، ومنـه « حتى إذا أدْرَكَه

---

(١) هامش الـكشاف ٣٤٦/١
(٢) سورة الأنعام ١٠٣
(٣) الـكشاف ٣٠٥/١

الغرَقُ »[1] أى أحاط به ، و « إنا لمدرَكون »[2] أى محاط بنا ، فالمنفى إذاً عن الأبصار إحاطتها به عز وعلا ، لا مجرد الرؤية . ثم إما أن يقتصر على أن الآية لا تدل على مخالفتنا أو تزيد فنقول : يدل لنا أن تخصيص الإحاطة بالنفى يشعر بطريق المفهوم بثبوت ما هو أدنى من ذلك وأقله مجرد الرؤية ، كما أنا نقول لا تحيط به الأفهام وإن كانت المعرفة بمجردها حاصلة لـكل مؤمن ، فالإحاطة للعقل منفية كنفى الإحاطة للحس ومادون الإحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للحس ثابت غير منفى .

ولم يذكر الزمخشرى على إحالة الرؤية عقلا دليلا ولا شبهة، فيحتاج إلى القدح فيه ، ثم معارضته بأدلة الجواز ، ولـكنه اقتصر على استبعاد أن يكون المرئى لا فى جهة ، فيقتصر معه على إلزامه استبعاد أن يكون الموجود لا فى جهة ، إذ اتباع الوهم يبعدهما جميعا، والانقياد إلى العقل يبطل هذا الوهم ويجيزهما معا[3] .

وقال فى تفسير قوله تعالى:« وُجُوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ إلى ربِّها ناظرةٌ »[4]:

تنظر إلى ربها خاصة، واختصاصهم بالنظر إليه محال ، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص ، والذى يصح معه أن يكون من قول الناس أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بى ، تريد معنى التوقع والرجاء ، ومنه قول القائل :

وإذا نظرت إليك من مَلِكٍ   والبحرُ دونك زِدْتَنى نِعَماً

والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والـكرامة إلا من ربهم ، كما كانوا فى الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه[5] .

---

(١) سورة يونس ٩٠
(٢) سورة الشعراء ٦١
(٣) هامش الـكشاف ٣٠٥/١
(٤) سورة القيامة ٢٢
(٥) الكشاف ٥٠٩/٢

٤ ـ واقتضى نفيهم للصفات الأزلية ومنها الكلام أن يدينوا بأن القرآن كلام الله خلقه بعد أن لم يكن، حتى لا يشاركه شيء فى القدم[1]. وقد اعتقد الخليفة المأمون هذا الرأى، وحمل الناس على أن يدينوا به، وعذب كثيرا من العلماء مثل أحمد بن حنبل، ووجه كتابا إلى إسحاق بن إبراهيم سنة ٢١٨ هـ يأمره فيه أن يمتحن القضاة فى خلق القرآن، ليقر منهم على منصبه من يوافق رأى الخليفة، ثم ليأمرهم بقبول شهادة من يدين به، ورفض شهادة من لايدين به[2].

ومازال الخلاف بين المعتزلة والسنية محتدما حتى ظهر الأشعرى (المتوفى سنة ٣٣٠ هـ) فذهب إلى أن كلام الله يطلق إطلاقين كما هو الشأن فى الإنسان، فيسمى الإنسان متكلما باعتبارين: أحدهما بالصوت والآخر بكلام النفس الذى ليس بصوت ولا بحرف، وهو المعنى القائم بالنفس المعبر عنه بالألفاظ.

وانتقل من هذا إلى أن كلام الله يطلق بهذين الإطلاقين، المعنى النفسى وهو القائم بذاته، وهو الأزلى القديم وهو لا يتغير بتغير العبارات، وهذا هو الذى يطلق عليه كلام الله حقيقة، أما القرآن بمعنى المقروء المكتوب فهو كما يقول المعتزلة حادث مخلوق[3].

ثم جاء الزمخشرى فدافع عن عقيدة المعتزلة، فقال فى تفسير قوله تعالى: «قل اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»[4].

والعجب من النوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم، مع اعترافهم بأنه معجز، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة فيقال الله قادر على خلق الأجسام

(١) الملل والنحل ١/٤٩
(٢) تاريخ الطبرى ١٠/٢٤٨
(٣) ضحى الإسلام ٣/٢٢ — ٤٤
(٤) سورة الإسراء ٨٨

والعباد عاجزون عنه، وأما المحال الذى لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثانى القديم، فلا يقال للفاعل قد عجز عنه ولا هو معجزة، ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز، لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال، إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على المحال، فإن رأس مالهم المكابرة وقلب الحقائق.

وعلق ابن المنير بقوله:

مما يدلك على حيد الزمخشرى عن سنن الإنصاف أنه تدأس على الضعفف فى مثل هذه المسألة التى طبقت الأرض ظهوراً وشيوعا، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل عن معتقد القوم، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة قائمة بذات البارى تعالى يطلق عليها قرآن ويطلق أيضاً على أداتها وهى هذه الكلمات الفصيحة والآى الكريمة قرآن، وأن المعجز عندهم الدليل لا المدلول، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين: أحدهما أنه إطلاق موهم، والثانى أن السلف الصالح كفوا عنه، فاقتفوا آثارهم، واقتبسوا أنوارهم، وكم من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما لا يجوز اعتقاده، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق، ولا كرامة لمعتقد ذلك والمتعنت بإلزامه[1].

(٢) العدل

من الأصول المهمة للمعتزلة وصف الله تعالى بالعدل، كما وصفوه بالوحدانية، ولهذا سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد.

وإذا كان المعتزلة قد شعبوا مباحثهم فيما يتصل بالتوحيد فإنهم قد تعمقوا فيما يتصل بالعدل، وشققوا منه عدة مباحث:

(١) الكشاف وهامشه ١/٥٥٧

١ — فالله سبحانه وتعالى عادل، والظلم منفى عنه، قال تعالى: « وما ربك بظلام للعبيد »[١] وقال تعالى: « فما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[٢].

٢ — وهو سبحانه يريد لعباده خير ما يكون.

٣ — ولا يريد الشر ولا يأمر به.

وذلك أن مريد الخير خيِّر، ومريد الشر شرير، فلو كانت إرادة الله متعلقة بكل ما فى العالم من خير وشر لكان الخير والشر مرادين له، فيكون المريد موصوفا بالخيرية وبالشرية، وذلك محال على الله.

ولهذا قالوا إن الله أراد ما كان من الأعمال خيرا أن يكون، وما كان شرا ألا يكون، وما لم يكن خيرا ولا شرا فهو تعالى لا يريده ولا يكرهه، ومعنى هذا أن الله مريد لما أمر به من الطاعات أن يكون، فهو يريد منا الصلاة والزكاة، ولا يريد منا المعاصى، وأما المباحات فلا يريدها ولا يكرهها.

وأما غير المعتزلة فيعتقدون أن الله مريد لجميع ما كان، غير مريد لما لم يكن، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وينبنى على هذا أن كفر الكفار وعصيان العصاة لم يرده الله فى رأى المعتزلة، وأراده فى رأى غيرهم.

قال الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى «إن شرَّ الدَّوابِّ عند الله الصُّمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلون. ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لأَسْمَعَهُم، ولو أسمعهم لتَوَلَّوْا وهم مُعْرِضون»[٣].

(١) سورة فصلت ٤٦.
(٢) سورة الروم ٩.
(٣) سورة الأنفال ٢٢

إن شر من يدب على الأرض أو إن شر البهائم الذين هم صمٌّ عن الحق لا يعقلونه، ولو علم الله فى هؤلاء الصم البكم انتفاعاً باللطف للطف بهم حتى لا يسمعوا سماع المصدقين، ولو لطف بهم لما نفع فيهم اللطف، فلذلك منعهم إلطافه، أو ولو لطف بهم وصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا.

وعاق ابن المنير بقوله:

إطلاق القول بأن الله تعالى يلطف بالعبد فلا ينفع لطفه مردود، فإن اللطف هو إسداء الجميل والإلطاف به، واسمه اللطيف من ذلك، فإذا أسدى الجميل إلى العبد بأن أسمعه إسماع لطف به فتلك الغاية المرجوة، ومعنى اللطف به على هذا أن يخلق فى قلبه قبول الحق وحسن الإصغاء إليه والاهتداء به، ولكن لا يتم ذلك على عقيدة الاعتزال والرأى الفاسد فى خلق الأفعال؛ لأن مقتضاها أن العبد هو الذى يخلق لنفسه قبول الحق والهداية وحسن الاستماع والإصغاء، وأن الله تعالى لا يشارك العبد فى خلق ذلك، بل الذى ينسب إلى الله تعالى إرادة الهداية من جميع الخلق، ولا يلزم حصول مراده على العموم، ولو تنزل متنزل على هذه القاعدة لما استقام تأويل الزمخشرى أيضاً، فإن حاصله ولو علم الله فيهم خيرا للطف بهم، ولو لطف بهم لما انتفعوا باللطف، فيلزم عدم انتفاعهم باللطف على تقدير علم الله الخير فيهم، وهذا غير مستقيم، لما يلزم عليه من وقوع خلاف المعلوم لله تعالى، وذلك محال عقلا.

فلا يرتفع الإشكال إلا بتقدير الإسماع الواقع جوابا أولا، خلاف الإسماع الواقع شرطا ثانيا، كيلا ينكروا الوسط فيلزم المحال المذكور، وأقرب وجه فى اختلاف الإسماعين أن يراد بالأول ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم إسماعا يخلق

لهم به الهداية والقبول، ولو أسمعهم إسماعا مجردا من ذلك لتولوا وهم معرضون ، فهذا هو الوجه فى تأويل الآية[1] .

٤ — ولم يخلق الله أفعال العباد لاخيراً ولا شرا ، وإنما يعملون أعمالهم أحراراً، فيثابون على الخير ويعاقبون على الشر .

٥ — وانتهوا من هذا إلى نظرية الصلاح والأصلح ، ومعناها أن الله يقصد من أعماله نفع عباده وصلاحهم . وذهب بعض المعتزلة إلى أن رعاية الله لصالح عباده واجب عليه ، ولم يكتف بعضهم بهذا فقالوا إن الواجب عليه رعاية الأصلح .

وقد وافقهم فى جوهر الفكرة بعض المعتزلة ، ولكنهم عابوا عليهم تعبيرهم بالوجوب ، ورأوا أن الأقرب إلى الأدب التعبير بأن هذا هو القانون أو النظام الذى يقصد الله إليه فى أعماله .

وخالفهم فريق كبير ، ورأوا أن أفعال الله ليست معللة بغرض ، وليس الباعث عليها غاية ، بدليل أن فى العالم شرورا كثيرة ومفارقات شتى ، كالفقر والمرض، ولا يمكن تفسير ما فيها من المصلحة .

قال الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « وعلى الله قَصْدُ السَّبيل ، ومنها جائرٌ ، ولو شاء لهدا كم أجمعين » [2] :

معناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه ، كقوله « إن علينا لَلْهُدَى » [3] فإن قلت : لم غير أسلوب الكلام فى قوله (ومنها جائر)؟

(١) الكشاف وهامشه ١/٣٧٠
(٢) سورة النحل ٩
(٣) سورة الليل ١٢

قلت : ليعلم مايجوز إضافته إليه من السبيلين وما لايجوز ، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقيل : وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها أو وعليه الجائر . وقرأ عبد الله (ومنكم جائر) يعنى ومنكم جائر عن القصد بسوء اختياره والله برىء منه.

ولو شاء الله لهدا كم أجمعين قسرا.

وعلق ابن المنير على رأى الزمخشرى بقوله :

أين يُذْهب به عن تتمة الآية ، وذلك قوله تعالى : « ولو شاء لهدا كم أجمعين » ولو كان الأمر كما تزعم القدرية لـكان الكلام : وقد هدا كم أجمعين . وما كأنهم إلا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . فإن ذهبوا إلى تأويل الهداية بالقسر والإلجاء فما كأنهم إلا يحرفون الكلم عن مواضعه .

وأما المخالفة بين الأسلوبين فلأن سياق الكلام لإقامة حجة الله تعالى على الخلق بأنه بَيَّنَ السبيل القاصد والجائر ، وهدى قوما اختاروا الهدى ، وأضل قوما اختاروا الضلالة لأنفسهم . وقد تقدم فى غير موضع أن كل فعل صدر على يد العبد فله اعتباران : فهو من حيث كونه موجودا مخلوق لله تعالى ومضاف إليه بهذا الاعتبار ، وهو من حيث كونه مقترنا باختيار العبد له ، وبتأتيه له ، وتيسره عليه ، يضاف إلى العبد ، وإن تعَدُّدَ هذين الاعتبارين ثابت فى كل فعل ، فناسب إقامة الحجة على العباد إضافة الهداية إلى الله تعالى باعتبار خلقه لها ، وإضافة الضلال إلى العبد باعتبار اختياره له .

والحاصل أنه ذكر فى كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة فى الآخر ؛ ليناسب ذلك إقامة الحجة البالغة[1] .

(١) الكشاف وهامشه ١/٥٢٠

وقال الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ، فقالوا هذا إلهكم وإله موسى »(١) :

فإن قلت : فلم خلق الله العجل من الحلى حتى صار فتنة لبنى إسرائيل وضلالا ؟ قلت : ليست بأول محنة محن الله بها عباده ، ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ، ومن عجب من خلق العجل فليكن من خلق إبليس أعجب(٢) .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون »(٣) :

إذا كانت عادة الملوك والجبابرة ألا يسألهم من فى مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم ، تهيبا وجلالا ، مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب وخالقهم ورازقهم أولى بألا يسأل عن أفعاله ، مع ما علم واستقر فى العقول من أن ما يفعله كله معقول بدواعى الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح(٤) .

وعلق ابن المنير بقوله :

سحقا لها من لفظة ما أسوأ أدبها مع الله تعالى ، أعنى قوله دواعى الحكمة ، فإن الدواعى والصوارف إنما تستعمل فى حق المحدثين ، كقولك هو مما توفر دواعى الناس إليه أو صوارفهم عنه .

وأما قولك لا يجوز عليه فعل القبائح فهل تقول إن أحدا شريك الله فى ملكه يفعل ما يشاء من الأفعال التى تسميها قبائح فتنفيها عن قدرة الله تعالى

(١) سورة طه ٨٨
(٢) الكشاف ٣٢/٢
(٣) سورة الأنبياء ٢٣
(٤) الكشاف ٤٣/٢

وإرادته ، وما الفرق بين من يشرك الله ملكا من الملائكة وبين من يشرك نفسه بربه حتى يقول إنه يفعل ويخلق لنفسه ، شاء الله أو لم يشأ ؟

والقدرية ارتضوا لأنفسهم شر شرك ، لأن غيرهم أشرك بالملائكة ، وهم أشركوا بنفوسهم وبالشياطين والجن وجميع الحيوانات(١) .

وقال فى تفسير قوله تعالى :

« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين(٢) » :

فإن قلت : فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التى كان يؤدى إليها التوسيع عليهم من إطباق الناس على الكفر ، لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟

قلت : التوسعة عليهم مفسدة أيضاً ، لما تؤدى إليه من الدخول فى الإسلام لأجل الدنيا ، والدخول فى الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين ، فكانت الحكمة فيما دبر ، حيث جعل فى الفريقين أغنياء وفقراء ، وغلب الفقر على الغنى.

وقد علق ابن المنير على هذا بقوله : السؤال والجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين :

إحداهما تعليل أفعال الله تعالى ، والأخرى أن الله تعالى أراد الإسلام من

(١) هامش الكشاف ٤٤/٣
(٢) سورة الزخرف ٣٣ — ٣٥

الخالق أجمعين ، أما الأولى فقد أخرس الله السائل عنه بقوله : « لا يُسألُ عما يفعل وهم يُسألون[١] » .

وأما الثانية فقد كفى الله المؤمنين الجواب بقوله : « ولو شاء ربك لآمن مَنْ فى الأرض كلهم جميعا[٢] » .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « هـــو الذى خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمن[٣] » :

نعم إن العباد هم الفاعلون للكفر ، ولكن قد سبق فى علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره ، فما الذى دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم ؟ .

وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد ؟

قلت : قد علمنا أن الله حكيم عالم بقبح القبيح ، وعالم بغناه عنه ، فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة ، وخلق فاعل القبيح من أفعال الله ، فوجب أن يكون حسنا ، وأن يكون له وجه حسن ، وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح فى حسنه ، كما لا يقدح فى حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعى الحكمة إلى خلقها[٤] .

٦ — كذلك انتهوا إلى نظرية الحسن والقبح ، ومعناها أن الحسن والقبح فى الأعمال ذاتيان ، ففى الصدق حسن ذاتى ، وفى الكذب قبح ذاتى ، ولهذا لم يجيزوا على الله الكذب لما فيه من قبح ، وقالوا إنه لابد أن يصدق ، لأن الصدق حسن فى ذاته .

(١) سورة الأنبياء ٢٣
(٢) سورة يونس ٩٩ والكشاف ٢/٣٥١
(٣) سورة التغابن ٢
(٤) الكشاف ٢/٤٦٣

وبنوا على هذا أن الشرع يأمر بأشياء ، وينهى عن أشياء ، وفقا لما فيها من حسن أو قبح ، والعقل يستحسن أشياء ، ويستقبح أشياء ، لأنه يدرك ما فى الحسنة من حسن ، ويدرك ما فى القبيحة من قبح ، وليس التحسين والتقبيح راجعين إلى أمر الشرع ونهيه ، بل هما راجعان إلى الشىء ذاته وإدراك العقل لحقيقته ، فالشرع فى تحسينه وتقبيحه مُخْبِرٌ لا منشىء ، والعقل فى إدراكه يَجْنِى ولا يوجد .

واستدلوا على هذا بأن الناس كانوا قبل الشرائع يتحاكمون إلى عقولهم ، فيستحسنون إنقاذ الغرقى مثلا ، ويستقبحون العدوان ، وبأن الرسل دعوا الناس إلى تصديقهم والنظر فى معجزاتهم للإيمان بشرائعهم ، وفى هذا تأكيد لسبق العقل ، وبأن الفقهاء اجتهدوا فى أمور شرعية لم يرد فيها نص ، وعللوا للأحكام ، وهذا من عمل العقل المعتمد على الحسن والقبح الذاتيين .

وأما غير المعتزلة فذهبوا إلى أن الحسن ما أمر به الشرع ، والقبيح ما نهى عنه الشرع ، لأن الشرع مثبت لا مخبر ، وليس هناك شىء حسن لذاته أو قبيح لذاته ، فالحسن والقبح قد يتخلفان ، فيكون القتل حسنا مرة وقبيحا مرة ، ولو كان الحسن أو القبح ذاتيا ما تبدل حكمه ، وقد يكون الشىء حسنا فى زمن وقبيحا فى آخر ، والشرائع نفسها تبيح أشياء لقوم وتحرمها على آخرين ، وتشرع أمورا لقوم ، وتشرع غيرها لسواهم ، فلو كان الحسن والقبح ذاتيين ما تغير التشريع[١] .

قال الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « لئلاَّ يكونَ للناسِ على الله حُجَّةٌ بعدَ الرُّسُل »[٢] : كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل ، وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التى يوصل النظر فيها إلى المعرفة ، والرسل فى أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر فى تلك الأدلة ، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها ؟

(١) ضحى الإسلام ٣/٤٥
(٢) سورة النساء ١٦٥

قلت : الرسل منبهون من الغفلة ، وباعثون على النظر ، كما يرى علماء أهل العدل والتوحيد ، مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين ، وبيان أصول التكليف ، وتعليم الشرائع ، فكان إرسالهم إزاحة للعلة ، وتتميما لإلزام الحجة، لئلا يقولوا، لولا أرسلتَ إلينا رسولا فيوقظنا من سِنَة الغفلة ، وينبهنا لما وجب الانتباه له .

وعلق ابن المنير بقوله : قاعدة المعتزلة فى التحسين والتقبيح العقليين تجرهم وتجرئهم على إثبات أحكام الله تعالى بمجرد العقل وإن لم يبعث رسولا . فيوجبون بعقولهم ، ويحرمون ويبيحون على وفق زعمهم . ومما يوجبونه قبل ورود الشرع النظر فى أدلة المعرفة ، ولا يتوقفون على ورود الشرع الموجب ، ولهذا يزعمون أن من ترك النظر فى الأدلة قبل ورود الشرع فقد ترك واجباً استحق به التعذيب ، وقد قامت الحجة عليه فى الوجوب وإن لم يكن شرع . وإذا تليت عليهم هذه الآية صمت آذانهم ، وقالوا إن الرسل تتم حجة الله ، وتنبه على ما وجب قبل بعثها بالعقل (1) .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « وما كان الله لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هداهم حتى يُبَيِّنَ لهم ما يتقون » (2) :

يعنى ما أمر الله باتقائه واجتنابه ، كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه ، وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ، ولا يسميهم ضلالا ، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم ، وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب ، وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا بيع الصاع بالصاعين قبل التحريم .

(1) الكشاف وهامشه ١/٢٣٨

(2) سورة التوبة ١١٥

فأما ما يعلم بالعقل كالصدق فى الخبر ، ورد الوديعة ، فغير موقوف على التوقيف.

وعلق ابن المنير على هذا بقوله :

هذا تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح،وأن العقل حاكم الشرع،كاشفٌ لما غمض عليه ، تابع لمقتضاه ، وهذه القاعدة قد سبق بطلانها فى غير موضع (1)

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ونفسٍ وما سوَّاها فألهمها فُجُورَها وتقواها » (2) :

معنى إلهام الفجور والتقوى إفهامهما و إعقالها ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح، وتمكينه من اختيار ما شاء منها ، بدليل قوله : « قد أفلح مَنْ زكَّاها ، وقد خاب من دسَّاها » فجعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليهما .

وأما قول من زعم أن الضمير فى زكَّى ودسَّى لله تعالى ، وأن تأنيث الراجع إلى (من) لأنه فى معنى النفس ، فمن تنكيس القدرية ـ يريد الجبرية ـ الذين يوركون على الله قدراً هو برىء منه ، ومتعال عنه ، ويحيون لياليهم فى تمحل فاحشة ينسبونها إليه .

وعلق ابن المنير على هذا بقوله :

وفى هذا الكلام نوعان من الباطل : أحدهما فى قوله معنى إلهام الفجور والتقوى إفهامها وإعقالها ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، والذى يكنه فى هذه الكلمات اعتقاد أن الحسن والقبح مدركان بالعقل . ألا ترى إلى قوله اعقالها ، أى خلق العقل الموصل إلى معرفة حسن الحسن وقبح القبيح ، وإنما اغتنم فى هذا فرصة إشعار الإلهام بذلك ، فإنه ربما يظن أن إطلاقه على العلم المستفاد من السمع بعيد .

(1) الكشاف وهامشه ١/٤١٠

(2) سورة الشمس ٧ — ٨

والذى يقطع دابر هذه النزعة أنا وإن قلنا إن الحسن والقبح لا يدركان إلا بالسمع ، لأنهما راجعان إلى الأحكام الشرعية التى ليست عندنا بصفات الأفعال، فإنا لا نلغى حظ العقل من إدراك الأحكام الشرعية ، بل لا بد فى علمه كل حكم شرعى من المقدمة العقلية وهى الموصلة إلى العقيدة ، والمقدمة السمعية المفرعة عليها ، وهى الدالة على خصوص الحكم. على أن تعلقه بظاهر — لو سلم ظهوره — فى قاعدة قطعية بمعزل عن الصواب .

النزعة الثانيـــة (وهنا تكلم عن أفعال العباد) [1]

(٣) حرية العباد

دان المعتزلة بحرية العباد فى أعمالهم ، بغير توجيه من إرادة الله وقدرته ، ولهذا يثيبهم الله عليها أو يعاقبهم ، فلا جبر ولا اضطرار ، لأن الله تعالى منزه عن الفساد ، وعن خلق أفعال العباد ، فهم يفعلون أفعالهم بالقدرة التى خلقها الله فيهم ، وهو لم يأمرهم إلا بما أراد ، ولم ينههم إلا عما كره، ولو شاء لأجبرهم على طاعته ، ومنعهم من معصيته ، لأنه القادر .

وهذا هو السبب فى أنهم سموا أنفسهم أهل العدل .

لـكن خصومهم أطلقوا عليهم القدرية أحياناً ، لأنهم وافقوا القدرية الذين كانوا قبلهم فى القول بحرية العبد وقدرته واختياره ، وأطلقوا عليهم الجهميَّة أحياناً ، لأنهم وافقوا الجهمية فى نفى الصفات ، وفى القول بخلق القرآن، وإن خالفوهم فى الحرية والاختيار [2] .

(١) الكشاف وهامشه ٢/٥٤٦

(٢) الجهمية أتباع جهم بن صفوان كان يقول بالجبر ، ويجرد الإنسان من الاختيار والقدرة ، ويزعم أنه يثاب أو يعاقب على أعماله جبرا ، وإنما تنسب الأفعال إليه على سبيل المجاز كما تنسب إلى الجماد ، فيقال جرى الماء وتحرك الهواء وأثمرت الشجرة وطلعت الشمس ، =

لـكن المعتزلة يبرأون من تسميتهم قدرية أو جهمية ، ويردون على التسمية الأولى بأنهم ينفون القدر ، وغيرهم يثبتونه ، فهم أولى بأن ينسبوا إليه .

ويتبرأ من الجهمية بشر بن المعتمر أحد زعماء المعتزلة بقوله :

نتفيهمُ عنا ولسنـا منهمُ ولاهمُ منا ولا نرضاهمُ

إمامهمُ جهمٌ وما لجهم وصحب عمرو ذى التقى والعلم [1]

وأدلة المعتزلة على مذهبهم شعور الإنسان بالفرق بين الحركة الاختيارية والاضطرارية ، فالأولى مرادة والثانية غير مرادة ، ودليل آخر أنه لولا الحرية لبطل التكليف وانتفى الأمر والنهى والثواب والعقاب ، ودليل ثالث أن بالقرآن آيات كثيرة تؤكد هذه الحرية .

وكان من خصومهم الجبرية الذين ذهبوا إلى أن الإنسان مجبر ، فهو والجماد سواء ، وإذا كانت الأفعال تنسب إليه فإنه مجاز .

وقد نشأ الخلاف نفسه قبل الإسلام بين فلاسفة اليونان، فذهب الأبيقوريون إلى أن الإنسان حر مختار ، وذهب الرواقيون إلى أنه مجبر لا اختيار له ، كما كان هذا الخلاف من مباحث الزرادشتية ثم المسيحية .

وقد دان المعتزلة بالحرية ، ودافعو عن مذهبهم ، وتأولوا الآيات القرآنية المخالفة له .

ثم جاء أبو الحسن الأشعرى فتوسط بين مذهبي المعتزلة والجبرية ، واخترع

= ومن مذهبه أنه لا يجوز وصف الله بصفة يوصف بها خلقه ، لأن هذا يقتضى تشبيها ، فنفى جهم كونه حيا عالما وأثبت كونه قادرا فاعلا خالقا ، لأنه لا يوصف أحد من خلقه بالقدرة والفعل والخلق . وكان جهم من موالى خراسان أقام بالكوفة ودعا إلى مذهبه ، وكان وزيراً للحارث بن سريج ، فلما خرج الحارث على بنى أمية حاربوه وهزموه وأسروا جهما وقتلوه (الملل والنحل ١/٧٩)

(١) عمرو بن عبيد أحد رؤساء المعتزلة الأولين

ماسماه الـكسب ، وهو الاقتران العادى بين القدرة المحدَثة (أى قدرة الإنسان) والفعل ، فالله تعالى أجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته لا بقدرة العبد وإرادته ، وهذا الاقتران هو الـكسب . وقال آخرون إن أفعال العباد تضاف إلى الله باعتبار أنه أقدرهم عليها ، وخلق القدرة فيهم ، وتضاف إلى العبد باعتبار أنه هو المصرف لأعماله بقدرته الحرة التى خلقها الله له[1] .

وإذ كان الزمخشرى يدين بهذه الحرية فإنه لم يدع آية من القرآن الكريم تتصل بالجبر أو الاختيار إلا أولها وفق مذهبه .

قال فى تفسير قوله تعالى: « ربنا لا تُزِغْ قلوبنا بعدَ إذْ هديتنا »[2] :

لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا بعد إذ أرشدتنا لدينك ، أو لا تمنعنا ألطافك بعد إذ لطفت بنا .

وعلق ابن المنير بقوله :

أما أهل السنة فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرفة ، لأنهم يوحدون حق التوحيد ، فيعتقدون أن كل حادث من هدى وزيغ مخلوق لله تعالى .

وأما القدرية فعندهم أن الزيغ لا يخلقه الله تعالى ، وإنما يخلقه العبد نفسه ، فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرفة إلى غير المراد بها كما أولها المصنف ، وإن كنا ندعو الله تعالى مضافا إلى هذه الدعوة ألا يبتلينا ولا يمنعنا لطفه ، لأن الكل فعله وخلقه ولا موجود إلا هو وأفعاله التى نحن وأفعالنا منها[3] .

(١) ضحى الإسلام ٣/٤٤ — ٦١ وعلم الأخلاق لأرسطو ٢٦٥ ترجمة أحمد لطفى السيد وزرادشت الحكيم ٨٤ حامد عبد القادر

(٢) سورة آل عمران ٨

(٣) الـكشاف وهامشه ١ / ١٣٥

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ومن يُرِد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً »[1] :

ومن يرد الله فتنة تركه مفتونا ، فلن تملك له من الله شيئاً ، ولن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئا ، أولئك الذين لم يرد الله أن يمنحهم من ألطافه ما يطهرون به قلوبهم ، لأنهم ليسوا من أهلها ، لعلمه أنها لا تنفع فيهم ولا تنجع ، كقوله تعالى : « إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله »[2] وقوله: « كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم »[3] .

وعلق ابن المنير بقوله :

هذه الآية منطبقة على عقيدة السنة فى أن الله تعالى أراد الفتنة من المفتونين، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنة ووضر الكفر ، لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى ما أراد الفتنة من أحد ، وأراد من كل أحد الإيمان وطهارة القلب، وأن الواقع من الفتن على خلاف إرادته ، وأن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد ، ولكن لم يقع .

فحسبهم هذه الآية وأمثالها لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر البدع ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ وما أبشع صرف الزمخشرى هذه الآية عن ظاهرها بقوله لم يرد الله أن يمنحهم ألطافه ، لعلمه أن ألطافه لا تنجع فيهم ولا تنفع ، وإذ لم تنجع ألطاف الله تعالى ولم تنفع فلطف من ينفع وإرادة من تنجع[4] .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « وقال الشيطان لما قُضِىَ الأمر إن الله

(١) سورة المائدة ٤١

(٢) سورة النحل ١٠٤

(٣) سورة آل عمران ٨٦ والـكشاف وهامشه ٢٠٦/١

(٤) هامش الكشاف ٢٠٦/١

وَعَدَ كُمْ وَعْدَ الحَقِّ ، ووعدتُكُمْ فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبْتم لى ، فلا تَلُومونى ولُومُوا أنفُسَكم » (١) :

لا تلومونى حيث اغتررتم بى ، وأطعتمونى إذ دعوتكم ، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم ، وهذا دليل على أن الإنسان هو الذى يخلق الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه ، وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين ، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال فلا تلومونى ولا تلوموا أنفسكم ، فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه .

فإن قلت : قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به .

قلت : ولو كان هذا القول منه باطلا لبين الله بطلانه ، وأظهر إنكاره ، على أنه لا طائل له فى النطق بالباطل فى ذلك المقام ، ألاترى إلى قوله : « إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم » كيف أتى فيه بالحق والصدق ؟

وفى قوله: « وما كان لى عليكم من سلطان » وهو مثل قوله تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » (٢) .

وعلق ابن المنير بقوله :

نحن معاشر أهل السنة الملقبين عنده بالمجبرة نقول إن الله تعالى إنما أورد هذا الكلام غير رادٍّ له ولا مخطّىء فيه الشيطان ، كما قص كلام الكفار فى الآية الأولى كذلك . ونحن نعتقد أن الملامة إنما تتوجه على المكلف ، وأما الله تعالى فمقدس عن ذلك ، لأننا نعترف بما خلقه الله للعبد من الاختيار الذى يجده من نفسه عند تجاوب طرفى الأفعال الإرادية ، وبذلك قامت الحجة له على

(١) سورة إبراهيم ٢٢
(٢) سورة الحجر ٤٢ الكشاف ٥٠٣/١

خلقه وإن سلبنا قدرة الخلق تأثيرها فى الفعل ، فلا تناقض إذاً بين عقيدة السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف (١) .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ولو شاء ربُّكَ لجعلَ الناسَ أمةً واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » (٢) :

يعنى لا ضطرهم إلى أن يكونوا أهل ملة واحدة وهى ملة الإسلام ، لقوله: « إن هذه أمتكم أمة واحدة » (٣) ، وهذا الكلام يتضمن نفى الاضطرار ، وأنه لم يضطرهم الى الاتفاق على دين الحق ، ولكنه مكنهم من الاختيار الذى هو أساس التكليف ، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل ، فاختلفوا ، ولذلك قال : «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك »إلا ناسا هداهم الله ولطف بهم ، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه (٤) .

وقال فى تفسير قوله تعالى: «ونفسٍ وما سَوَّاها فألهمها فجورَها وتقْواها. قد أفلح من زكَّاها ، وقد خاب من دَسَّاها » (٥) :

معنى إلهام الفجور والتقوى إفهامهما وإعقالهما وتمكينه من اختيار ماشاء منهما، بدليل قوله : «قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » فجعله فاعل التزكية.

وسئل ابن عباس عنه فقال أتقرأ : «قد أفلح من تزكى» (٦) «وقد خاب من حمل ظلما» (٧) . وأما قول من زعم أن الضمير فى زكى ودسى لله تعالى، وأن تأنيث الراجع إلى (من) لأنه فى معنى النفس ، فمن تعكيس القدرية ـ يريد الجبرية ـ

(١) هامش الكشاف ٥٠٣/١
(٢) سورة هود ١١٨
(٣) سورة المؤمنون ٥٢
(٤) الكشاف ٤٥٧/١
(٥) سورة الشمس ٧ — ١٠
(٦) سورة الأعلى ١٤
(٧) سورة طه ١١١

الذين يوركون على الله قدراً هو برىء منه ، ومتعال عنه ، ويحيون لياليهم فى تمحل فاحشة ينسبونها إليه [١] .

وعلق ابن المنير على هذا بالرد على أن الحسن والقبح مدركان بالعقل . ثم قال إن التزكية وقسيمها ليسا مخلوقين لله تعالى بل لشركائه المعتزلة ، وإنما نعارضه فى الظاهر من فحوى الآية ، على أنه لم يذكر وجها فى الرد على من قال إن الضمير لله تعالى ، وإنما اقتصر على الدعوى مقرونة بسفاهة على أهل السنة ، فنقول لا مراء فى احتمال عود الضمير إلى الله تعالى وإلى ذى النفس ، لكن عوده إلى الله تعالى أولى لوجهين : أحدهما أن الجمل سيقت سياقة واحدة من قوله: « والسماء وما بناها » والضمائر فيما تقدم هذين الفعلين عائدة إلى الله تعالى بالإتفاق ، ولم يجر لغير الله ذكر ، وإن قيل بعود الضمير إلى غيره فإنما يتمحل لجوازه بدلالة الكلام ضمنا واستلزاماً لا ذكرا ومنطقاً ، وما جرى ذكره أولى أن يعود الضمير عليه .

والثانى أن الفعل المستعمل فى الآية التى استدل بها فى قوله : « أفلح من تزكى » وهو (تفعل) لاشك أن تفعل مطاوع فعّل ، فهذا بأن يدل لنا أولى من أن يدل له ، لأن الكلام عندنا نحن قد أفلح من تزكاه الله فتزكى ، وعنده الفاعل فى الاثنين واحد أضاف إليه الفعلين المختلفين ، ويحتاج فى تصحيح الكلام إلى تعديد اعتبار وجه ، ونحن عنه فى غُنْية .

على أنا لا نأبى أن تضاف التزكية والتدسية إلى العبد على طريقة أنه الفاعل ، كما يضاف إليه الصلاة والصيام وغير ذلك من أفعال الطاعات ، لأن له عندنا اختياراً وقدرة مقارنة ، وإن منعنا البرهان العقلى الدال على وحدانية الله تعالى ونفى الشريك أن نجعل قدرة العبد مؤثرة خالقه [٢] .

(١) الكشاف ٢/٥٤٦
(٢) هامش الكشاف ٢/٥٤٦

(٤) الوعد والوعيد

أراد المعتزلة بالوعد والوعيد أن الله صادق فى وعده ووعيده ، فقد وعد المتقين الجنة ، وأوعد المشركين والعصاة النار ، وهو سبحانه لا يخلف وعده ولا وعيده ، فمن نجا فبفعله استحق الثواب ، ومن خسر فبفعله استحق العقاب ، فالثواب والعقاب قانون حتمى التزم الله تعالى به .

وإذا مات المسلم العاصى قبل التوبة يخلد فى النار ، ولا تنفع فيه شفاعة .

وهم بهذا يخالفون المرجئة ، لأن هؤلاء ذهبوا إلى أن الله لا يخلف وعده ولكنه قد يخلف وعيده ، لأن الثواب فضل من الله لابد أن يفى به ، وإلا كان خلف الوعد نقصاً ، أما العقاب فعدل ، ولله أن يعفو أو يخفف العقوبة ، وليس فى هذا نقص .

كما أن مرتكب الكبيرة لا يخلد فى النار ، لأنه عمل خيراً هو إيمانه ، وارتكب شراً هو كبيرته ، فيعاقب على كبيرته ، ويثاب على إيمانه .

فلننظر تأويل الزمخشرى للآيات المتصلة بهذا الخلاف .

قال فى تفسير قوله تعالى: « إن اللهَ لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به ، ويَغْفِرُ ما دون ذلك لمن يشاء » [١] : قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه ، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة فما وجه هذه الآية ؟

الوجه أن يكون الفعل المنفى والمثبت جميعاً موجهين إلى قوله تعالى: « لمن يشاء » ، كأنه قيل إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك ، على أن المراد بالأول من لم يتب ، وبالثانى من تاب .

(١) سورة النساء ٤٨

ونظيره قولك إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء ، تريد لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله ، ويبذل القنطار لمن يستأهله .

وعلق ابن المنير بقوله :

عقيدة أهل السنة أن الشرك غير مغفور ألبتة ، ومـــا دونه من الـكبائر مغفور لمن يشاء الله أن يغفره له ، هذا مع عدم التوبة ، وأما مع التوبة فـكلاهما مغفور . وهذه الآية وردت فيمن لم يتب ولم تذكر فيها توبة ، فلذلك أطلق الله تعالى نفى مغفرة الشرك ، وأثبت مغفرة ما دونه مقرونة بالمشيئة ، فهذا وجه انطباق الآية على عقيدة أهل السنة .

وأما القدرية فإنهم يظنون التسوية بين الشرك وبين مادونه من الـكبائر فى أن كل واحد من النوعين لا يغفر بدون التوبة ، ولا شاء الله أن يغفرهما إلا للتائبين، فإذا عرض الزمخشرى هذا المعتقد على هذه الآية ردته ونَبَتْ عنه ، إذ المغفرة منفية فيها عن الشرك وثابتة لما دونه ، مقرونة بالمشيئة .

فأما أن يـكون المراد فيهما من لم يتب فلا وجه للتفصيل بينهما بتعليق المغفرة فى أحدهما بالمشيئة وتعليقها بالآخر مطلقا ، إذ هما سيان فى استحالة المغفرة .

وأما أن يكون المراد فيهما التائب فقد قال فى الشرك إنه لا يغفر ، والتائب من الشرك مغفور له ، وعند ذلك أخذ الزمخشرى يقطع أحدهما عن الآخر ، فيجعل المراد مع الشرك عدم التوبة ، ومع الـكبائر التوبة ، حتى ينزل الآية على وفق معتقده ، فيحملها أمرين لا تحتمل واحدا منهما ، أحدهما إضافة التوبة إلى المشيئة وهى غير مذكورة ولا دليل عليها فيما ذكر ، ولو كانت مرادة لـكانت هى السبب الموجب للمغفرة على زعم القدرية عقلا ، ولا يمـكن تعلق المشيئة بخلافها على ظنهم فى العقل، فـكيف يليق السكوت عن ذكر ما هو العمدة والموجب ، وذكر مالا يدخل له على هذا المعتقد الردىء ؟

الثانى أنه بعد تقريره التوبة احتكم فقدرها على أحد القسمين دون الآخر ، وما هذا إلا من جعل القرآن تبعا للرأى[1] .

وقال فى تفسير قوله تعالى: «ومن يَقْتُلْ مؤمناً مُتَعَمِّداً فجزاؤه جَهَنَّمُ خالدا فيها ، وغَضِبَ الله عليه ولعَنَهُ ، وأعَدَّ له عذابا عظيما »[2]:

هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ ، ومن ثم روى عن أبى عباس أن توبة قاتل المؤمن عمدا غير مقبولة، وعن سفيان : كان أهل العـلم إذا سئلوا قالوا لا توبة له ، وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله فى التغليظ والتشديد، وإلا فـكل ذنب ممحوٌ بالتوبة،وناهيك بمحو الشرك دليلا .

وفى الحديث : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرىء مسلم وفيه . . .

والعجب من قوم يقرأون هذه الآية، ويسمعون هذه الأحاديث وقول ابن عباس بمنع التوبة ، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم وما يخيل إليهم مناهم أن يطمعوا فى العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة،أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟

فإن قلت : هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الـكبائر ؟

قلت : ما أبين الدليل وهو تناول قوله : « ومن يقتل » أى قاتل كان، من مسلم أو كافر ، تائب أو غير تائب ، إلا أن التائب أخرجه الدليل ، فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله .

وعلق ابن المنير بقوله :

كفى بقوله تعالى فى هذه السورة « إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ، ويغفر

(١) الـكشاف وهامشه ١/٢٠٨
(٢) سورة النساء ٩٣

ما دون ذلك لمن يشاء » دليل أبلج على أن القاتل الموحد وإن لم يتب فأمره إلى الله إن شاء آخذه ، و إن شاء غفر له.

وأما نسبه أهل السنة إلى الأشعبية فذلك لا يضيرهم ، لأنهم إنما تطفلوا على لطف أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، ولم يقنطوا من رحمة الله ، إنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الظالمون [١] .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « واتقوا يوماً لا تجزى نفسٌ عن نفس شيئاً ، ولا يُقبَلُ منها شفاعةٌ ، ولا يُؤخَذُ منها عَدْلٌ ، ولا هم يُنْصَرُون » [٢] :

فإن قلت : هل فيه دليل على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة ؟

قلت : نعم ، لأنه نفى أن تقضى نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك ، ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع ، فعلم أنها لا تقبل للعصاة .

فإن قلت : الضمير فى (منها) إلى أى النفسين يرجع ؟

قلت : إلى الثانية العاصية غير المجزى عنها ، وهى التى لا يؤخذ منها عدل، ومعنى لا يقبل منها شفاعة إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها ، كما لا تجزى عنها شيئاً ، ولو أعطت عدلا عنها لم يؤخذ منها [٣] .

وعلق ابن المنير على هذا بقوله :

أما من جحد الشفاعة فهو جدير ألا ينالها ، وأما من آمن بها وصدقها وهم أهل السنة والجماعة فأولئك يرجون رحمة الله ، ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين ، وإنما ادخرت لهم ، وليس فى الآية دليل لمنكريها ، لأن قوله

(١) الكشاف وهامشه ١/٢٢١
(٢) سورة البقرة ٤٨
(٣) الكشاف ١/٥٥

(يوماً) أخرجه منكراً ، ولا شك أن فى القيامة مواطن ، ويومها معدود بخمسين ألف سنة ، فبعض أوقاتها ليس زمانا للشفاعة ، وبعضها هو الوقت الموعود ، وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه الصلاة والسلام [١] .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « يومَ يَقُومُ الرُّوحُ والملائكةُ صَفًّا ، لا يتكلَّمون إلا مَنْ أذِنَ له الرحمنُ وقالَ صَوابا » [٢] :

هما شريطتان: أن يكون المتكلم منهم مأذونا له فى الكلام ، وأن يتكلم بالصواب ، فلا يشفع لغير مرتضى ، لقوله تعالى: «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى» [٣] .

وعلق ابن المنير بقوله :

يعرض بأن الشفاعة لا تحل على مرتكبى الكبائر من الموحدين ، وقد صرح بذلك فى مواضع تقدمت ، ويذهب إلى أنها مخصوصة بالمرتضين ، وذوو الكبائر ليسوا مرتضين ، ومن ثم أخطأ ، فإن الله عز وجل ما خصهم بالإيمان والتوحيد وتوفاهم عليه إلا وقد ارتضاهم ، بدليل قوله تعالى : « ولا يَرْضَى لعباده الكفر. وإن تشكروا يَرْضَهُ لكم [٤] » فجعل الشكر بمعنى الإيمان المقابل للكفر مرضيا لله تعالى ، وصاحبه مرتضى [٥] .

(٥) المنزلة بين المنزلتين

دخل رجل على الحسن البصرى فقال : يا إمام الدين لقد ظهرت فى زمننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر هم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب

(١) هامش الكشاف ١ / ٥٤
(٢) سورة النبأ ٢٨
(٣) سورة الأنبياء ٢٨ والكشاف ٢/٥٢٠
(٤) سورة الزمر ٧
(٥) هامش الكشاف ٢ / ٥٢٠

الـكبائر ، والـكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان ، ولا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الـكفر طاعة ، هم مرجئة الأمة ، فـكيف تحكم لنا فى ذلك ؟

ففـكر الحسن ، وقبل أن يجيب قال تلميذه واصل بن عطاء : أنا لا أقول أن صاحب الـكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين. ثم قام واعتزل إلى أسطوانة بالمسجد ، وجعل يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسمى هو وأصحابه معتزلة .

وقد دار خلاف كبير دائم حول وصف مرتـكبى الـكبيرة ، فالحسن رأى أنه منافق ، وواصل بن عطاء ذهب إلىّ أنه فى منزلة بين الـكفر والإيمان، وتابعه على رأيه عمرو بن عبيد ، والمرجئة وصفوه بأنه مؤمن ، والأزارقة وصفوه بأنه كافر ، وأهل السنة قالوا إنه فاسق [١] .

ودليل المعتزلة أن الإيمان اجتماع التصديق والاعتقاد القلبى وأداء الواجبات ، فمن صدق بأن الله واحد وأن محمدا رسوله ، ولم يقم بالفرائض لم يكن مؤمنا ، لأنه لم يستكمل خصال الخير .

وبنى المعتزلة على رأيهم هذا أن المعاصى قسمان : كبائر وصغائر ، واختلفوا فى تعريف كل منهما ، وإن كان أكثرهم على أن الـكبيرة ما أتى فيها وعيد ، والصغيرة مالم يأت فيها وعيد ، وقالوا إن بعض الـكبائر تصل إلى حد الـكفر ، فمن شبه الله بخلقه أو نسب إليه الظلم أو كذبه فى خبر ، فقد كفر .

وهناك كبائر أقل منها منزلة ، يسمى مرتـكبها فاسقا ، والفسق منزلة بين

---

(١) الملل والنحل ١/٥٢ ووفيات الأعيان فى ترجمة قتادة وتاج العروس مادة عزل

الـكفر والإيمان ، ولهذا فإن الفاسق ليس مؤمنا وليس كافرا ، وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين [١] .

وعلى هذا الرأى أول الزمخشرى بعض الآيات

١ — فمن تأويله للآيات المتصلة بالمنزلة بين المنزلتين أنه قال فى تفسير قوله تعالى: «الذين يُؤْمنون بالغَيْبِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ ومَّما رزقناهم يُنْفِقون» [٢] :

الإيمان الصحيح أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ويصدقه بعمله . فمن أخل بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق ، ومن أخل بالشهادة فهو كافر ، ومن أخل بالعمل فهو فاسق .

وعلق ابن المنير بقوله : إنه أراد بالفاسق غير المؤمن وغير الـكافر ، وهذا من الأسماء التى سماها القدرية ، وما أنزل الله بها من سلطان .

ومعتقد أهل السنة أن الموحد لله الذى لا خلل فى عقيدته مؤمن وإن ارتـكب الـكبائر ،وهذا الصحيح لغة وشرعا. أما لغةً فإن الإيمان هو التصديق، وهو مصدق ، وأما شرعا فأقرب شاهد عليه هذه الآية ، فإنه لما عطف فيها العمل الصالح على الإيمان دل على أن الإيمان معقول بدونه ، ولو كان العمل الصالح من الإيمان لـكان العطف تـكرارا [٣] .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « الذين قال لهم الناسُ إنّ الناسَ قد جمعوا لـكم فاخْشَوْهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا حسْبُنا اللهُ ونعم الوكيلُ » [٤] :

لما لم يسمعوا قول المثبط ، وأخلصوا النية والعزم على الجهاد ، وأظهروا

---

(١) الملل والنحل ١/٥٢

(٢) سورة البقرة ٣

(٣) الكشاف وهامشه ١/١٧

(٤) سورة آل عمران ١٧٣

حمية الإسلام ، كان ذلك أثبت ليقينهم ، وأقوى لاعتقادهم ، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج، ولأن خروجهم على أثر التثبيط إلى وجهة العدو طاعة قطعية ، والطاعات من جملة الإيمان ، لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل .

وعن ابن عمر : قلنا يا رسول الله هل الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار .

وعن عمر رضى الله عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول : قم بنا نزدد إيمانا . وعنه : لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به [١] .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « وبَشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أَعْتَدْنا لهم عذابا أليما » [٢] :

إن الله ذكر المؤمنين الأبرار وذكر الكفار ، ولم يذكر الفسقة ، لأن الناس حينئذ إما مؤمن تقى وإما مشرك،وإنما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك [٣]

٢ — ومن تأويله للآيات المتصلة بالكبائر والصغائر أنه قال فى تفسير قوله تعالى : « ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه ، هُدىً للمتقين » [٤] :

المتقى هو الذى يقى نفسه تعاطى ما يستحق من العقوبة من فعل أو ترك . واختلف فى الصغائر ، وقيل الصحيح أنه لا يتناولها، لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر [٥] .

(١) الكشاف ١/١٧٦
(٢) سورة الإسراء ٩ — ١٠
(٣) الكشاف ١/٥٤١
(٤) سورة البقرة ٢
(٥) الكشاف ١/١٦

وعلق ابن المنير بقوله : من تمنى القدرية على الله تعالى اعتقادهم أن الصغائر ممحوة عنهم ما اجتنبوا الكبائر ، وأنه يجب أن يعفو الله عنها لمجتنب الكبائر، كما يجب عندهم ألا يعفو عن مرتكب الكبائر ، وهذا هو الخطأ الصراح والمحادة لآيات الله البينات وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم الصحاح .

والحق أن غفران الصغائر وإن اجتنبت الكبائر موكول إلى المشيئة ، كما أن غفران الكبائر موكول إليها أيضا .

ومن لا يعتقد ذلك وهم القدرية يضطرون إلى الوقوف عند قوله تعالى : « فمن يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَه ، ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه » [١] فإنه ناطق بالمؤاخذه بالصغائر ، ويتحيرون عند قوله تعالى : « إن الله يغفر الذنوب جميعا » [٢] فإنه يصرح بمغفرة الكبائر .

أما أهل السنة فقد ألفوا بين هاتين الآيتين بقوله تعالى: «إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به و يغفر ما دُونَ ذلك لمن يشاء » [٣] فإن التقييد بالمشيئة فى هذه يقضى على الآيتين المطلقتين [٤] :

وقال فى تفسير قوله تعالى : « وإن ربك لذو مغفِرة للناس على ظُلْمِهِم ، وإنَّ ربك لشديدُ العقاب » [٥] .

أى مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب، ومحله الحال ، بمعنى ظالمين لأنفسهم . وفيه أوجه : أن يريد السيئات المكَفَّرة لمجتنب الكبائر ، أو يريد الكبائر بشرط التوبة ، أو يريد بالمغفرة الستر والإمهال .

(١) سورة الزلزلة ٧ — ٨
(٢) سورة الزمر ٥٣
(٣) سورة النساء ١١٦
(٤) هامش الكشاف ١/١٦
(٥) سورة الرعد ٦

وروى أنها لما نزلت قال النبى عليه الصلاة والسلام : لولا عفو الله وتجاوزه ما تهنأ أحدا العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد[1].

وعلق ابن المنير بقوله : الوجه الحق بقاء الوعد على إطلاقه ، إلا حيث دل الدليل على التقييد فى غير الموحد،فإن ظاهره أعنى شركه لا يغفر، وماعدا الشرك فغفرانه فى المشيئة،والزمخشرى يبنى على عقيدته التى وضح فسادها استحالة الغفران لصاحب الكبائر وإن كان موحدا إلا بالتوبة، فيقيد مطلقا، ويحجر واسعا[2].

وقال فى تفسير قوله تعالى : « قل ياعبادىِ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم »[3] :

يعنى بشرط التوبة ، وقد تكرر هذا الشرط فى القرآن ، فكان ذكره فى مواضع مغنيا عن عدم ذكره فى مواضع ، لأن القرآن فى حكم كلام واحد ، ولا يجوز فيه التناقض . وفى قراءة ابن عباس وابن مسعود « يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء » والمراد بمن يشاء من تاب ، لأن مشيئة الله تابعة لحكمه وعدله لا لملكه وجبروته . وقيل فى قراءة النبى صلى الله عليه وسلم وفاطمة رضى الله عنها « يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى » ونظير نفى المبالاة نفى الخوف فى قوله تعالى : « ولا يخاف عقباها »[4] .

ثم ذكر ما قيل فى أسباب نزول الآية[5] :

وقال فى تفسير قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر

(١) الكشاف ٤٨٩/١
(٢) هامش الكشاف ٤٨٩/١
(٣) سورة الزمر ٥٣
(٤) سورة الشمس ١٥
(٥) الكشاف ٣٠٢/٢

عنكم سيئاتكم »[1] : الكبيرة والصغيرة إنما وصفتا بالكبر والصغر بإضافتهما إما إلى طاعة أو معصية أو ثواب أو عقاب فاعلهما[2].

وقال فى تفسير قوله تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة »[3] :

الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر ، والكبائر الذنوب التى لا يسقط عقابها إلا بالتوبة ، وقيل التى يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها . والفواحش ما فحش من الكبائر ، كأنه قال والفواحش منها خاصة ، واللمم ما قل وصغر من الذنوب ، وعن أبى سعيد الخدرى : اللمم هو النظرة والغمزة والقبلة ، وعن السدى الخطرة من الذنب ، وعن الكلبى كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا ولا عذابا .

والله واسع المغفرة ، حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر ، ويكفر الكبائر بالتوبة[4] .

(٦) الأمر بالمعرف والنهى عن المنكر

رأى المعتزلة أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على المسلمين ، كما رأى غيرهم .

ولكنهم ذهبوا إلى الاقتصار على القلب إن كفى ، فإن لم يكف القلب فباللسان ، فإن لم يغن القلب واللسان فباليد ، فإن لم تنفع اليد فبالسيف[5].

(١) سورة النساء ٣١
(٢) الكشاف ٢٠٢/١
(٣) سورة النجم ٣٣
(٤) الكشاف ٤١٨/٢
(٥) الملل والنحل ٤٩/١ ومروج الذهب ١٩٠/٢

قال الزمخشرى إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات، لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف ونهى عن المنكر، وعلم كيف يرتب الأمر فى أوقاته، وكيف يباشره، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وقد يغلظ فى موضع اللين ويلين فى موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا، أو على من الإنكار عليه عبث.

والأمر بالمعروف تابع للمأمور به، إن كان واجبا فواجب، وإن كان ندبا فندب، وأما النهى عن المنكر فواجب كله، لأن جميع المنكر تركه واجب، لاتصافه بالقبح. وشرط الوجوب أن يغلب على ظنه وقوع المعصية، نحو أن يرى الشارب قد تهيأ لشرب الخمر بإعداد آلاته، وألا يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة، ويبتدىء فى إنكاره بالسهل، فإن لم ينفع ترق إلى الصعب، لأن الغرض كف المنكر ....

فمن رأى غيره تاركا للصلاة وجب عليه الإنكار، وأما ما يحتاج إلى قتال فإنما يقوم به من فى استطاعته القتال، كالإمام وخلفائه، لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها[١].

(١) الكشاف ١/١٥٨

ثانيا - مذاهب فقهية

عرض الزمخشرى لمسائل فقهية كثيرة، ولكنه لم يقتصر على مذهبه الحنفى، بل أورد الأحكام فى المذاهب الأخرى، وكان أحيانا يرجح مذهب الشافعى على مذهب أبى حنيفة.

وهذه أمثلة مما ذكره:

١ - قال تعالى: « فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم[١] ».

الهدى هدى المتعة وهو نسك عند أبى حنيفة، ويأكل منه، وعند الشافعى يجرى مجرى الجنايات ولا يأكل منه.

ويذبحه يوم النحر عندنا، وعنده يجوز ذبحه إذا أحرم بحجته، فمن لم يجد الهدى فعليه صيام ثلاثة أيام فى وقت الحج، وهو أشهره ما بين الإحرامين إحرام العمرة وإحرام الحج، وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله، والأفضل أن يصوم يوم التروية وعرفة ويوما قبلهما، وإن مضى هذا الوقت لم يجزئه إلا الدم. وعند الشافعى لا تصام إلا بعد الإحرام بالحج، تمسكا بظاهر قوله (فى الحج وسبعة إذا رجعتم) بمعنى إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبى حنيفة، وعند الشافعى هو الرجوع إلى أهاليهم[٢].

٢ — وقال تعالى:

« واذكروا الله فى أيام معدودات، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه »[٣]

الأيام المعدودات أيام التشريق، وذكر الله فيها والتكبير فى أدبار الصلوات وعند رمى الجمرات. (فى يومين) بعد يوم النحر يوم النفر، وهو الذى يسميه

(١) سورة البقرة ١٩٦
(٢) الكشاف ١/٩٣
(٣) سورة البقرة ٢٠٣

أهل مكة يوم الرءوس ، واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمى الجمار كما يفعل الناس اليوم ، وهو مذهب الشافعى. ويروى عن قتادة، وعن أبى حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر (ومن تأخر) حتى رمى فى اليوم الثالث ، والرمى فى اليوم الثالث يجوز تقديمه على الزوال عند أبى حنيفة وعند الشافعى لايجوز(١) .

٣ — وقال تعالى: « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى . فاعتزلوا النساء فى المحيض »(٢).

بين الفقهاء خلاف فى الاعتزال ، فأبو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار ، ومحمد بن الحسن لايوجب إلا اعتزال الفرج ، وروى محمد حديث عائشة رضى الله عنها أن عبد الله بن عمر سألها : هل يباشر الرجل امرأته وهى حائض ؟ فقالت : تشد إزارها على سفلتها ، ثم ليباشرها إن شاء ، وماروى زيد بن أسلم أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم : مايحل لى من امرأتى وهى حائض ؟ قال : لتشد عليها إزارها ثم شأنك بأعلاها . ثم قال: وهذا قول أبى حنيفة ، وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة ، قالت : يجتنب شعار الدم وله ماسوى ذلك(٣) .

٤ — وقال تعالى : « والوالداتُ يُرضِعْنَ أولادَهُنّ حولَيْن كاملَيْن لمن أراد أن يُتِمّ الرّضاعةَ ، وعلى المولود له رزقُهنّ وكسوتُهنّ بالمعروف... »(٤)

يجب على الأب إرضاع الولد دون الأم ، وعليه أن يتخذ له ظئرا ، إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه ، وهى مندوبة إلى ذلك ، ولا تجبر عليه ، ولايجوز استئجارها عند أبى حنيفة ما دامت زوجة أو معتدة من نكاح ، وعند الشافعى يجوز ، فإن انقضت عدتها جاز بالاتفاق(٥).

٥ — وقال تعالى : واستَشهِدُوا شهيدَيْن من رجالكم(٦) » .

(١) الكشاف ١/٩٧
(٢) سورة البقرة ٢٢٢
(٣) الكشاف ١/١٠٣
(٤) سورة البقرة ٢٣٣
(٥) الكشاف ١/١٠٩
(٦) سورة البقرة ٢٨٢

اطلبوا أن يشهد لكم شهيدان على الدين من رجال المؤمنين ، والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام عند عامة العلماء ، وعن على رضى الله عنه : لاتجوز شهادة العبد فى شىء ، وعند شريح وابن سيرين وعثمان البتى أنها جائزة . ويجوز عند أبى حنيفة شهادة الكفار بعضهم على اختلاف الملل(١) .

٦ — قال تعالى : « ولله على الناسِ حِجُّ البيْتِ مَن استطاعَ إليه سبيلا(٢) » .

فسر رسول الله الاستطاعة بالزاد والراحلة ، وكذا عن ابن عباس وابن عمر ، وعليه أكثر العلماء ، وعن ابن الزبير هو على قدر القوة .

ومذهب مالك أن الرجل إذا وثق بقوته لزمه ، وروى عنه أن ذلك على قدر الطاقة .

وقد يجد الزاد والراحلة من لايقدر على السفر ، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة .

وعن الضحاك إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع ، وقيل له فى ذلك ، فقال إن كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ بل كان ينطلق إليه ، فكذلك يجب عليه الحج(٣) .

٧ — وقال تعالى :

«وابتَلُوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رُشْدا فادفعوا إليهم أموالهم»(٤) .

(١) الكشاف ١/١٢٩
(٢) سورة آل عمران ٩٧
(٣) الكشاف ١/١٠٦
(٤) سورة النساء ٦

الابتلاء عنـد أبى حنيفة وأصحابه أن يدفع إليه ما يتصرف فيه ، حتى يستبين حاله فيما يجيء منه .

والرشد التهدى إلى وجوه التصرف ، وعن ابن عباس الصلاح فى العقل والحفظ للمال .

وعند مالك والشافعى الابتلاء أن يتتبع أحـواله وتصرفه فى الأخـذ والعطاء ، ويتبصر مخايله وميله إلى الدين ، والرشد الصلاح فى الدين ، لأن الفسق مفسدة فى المال .

فإن قلت : فإن لم يؤنس منه رشد إلى حد البلوغ ؟

قلت : عند أبى حنيفة رحمه الله ينتظر إلى خمس وعشرين سنة ، لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثمانى عشرة سنة ، فإذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة فى تغير أحوال الإنسان لقوله عليه السلام « مروهم بالصلاة لسبع » دفع إليه ماله ، سواء أونس منه الرشد أو لم يؤنس . وعند أصحابه لا يدفع إليه إلا بإيناس الرشد (١) .

٨ — وقال تعالى : « لا يُؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يُؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تُطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم » (٢) .

ومعنى من أوسط ما تطعمون أهليكم من أقصده ، لأن منهم من يسرف فى إطعام أهله ، ومنهم من يقتر . وهو عند أبى حنيفة رحمه الله نصف صاع من بر أو صاع من غيره لكل مسكين ، أو يغديهم ويعشيهم .

---

(١) الكشاف ١/١٨٩
(٢) سورة ~~البقرة~~ المائدة ٨٩

وعند الشافعى رحمه الله مُدٌّ لكل مسكين .

والكسوة ثوب يغطى العورة . وعن ابن عباس كانت العباءة تجزىء يومئذ .

وعن ابن عمر إزار أو قميص أو رداء أو كساء . وعن مجاهد ثوب جامع . وعن الحسن ثوبان أبيضان .

وقد اشترط الشافعى فى تحرير الرقبة أن يكون العبد مؤمنا قياسا على كفارة القتل .

وأما أبو حنيفه وأصحابه فقد جوزوا تحرير الرقبة الكافرة فى كل كفارة سوى كفارة القتل ، واشترط أبو حنيفة فى الصوم أن يكون متتابعاً ، تمسكاً بقراءة أُبىّ وابن مسعود « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » وعن مجاهد كل صوم متتابع إلا قضاء رمضان ، ويخير فى كفارة اليمين .

والتكفير قبل الحنث لا يجوز عند أبى حنيفة وأصحابه ، ويجوز عند الشافعى بالمال إذا لم يعص الحانث (١) .

٩ — وقال تعالى : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (٢) . بعد عام تسع من الهجرة حين أُمِّر أبو بكر على الموسم ، وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه ، ويدل عليه قول علىّ حين نادى ببراءة «ألا يحج بعد عامنا هذا مشرك» ، ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم .

وعند الشافعى يمنعون من دخول المسجد الحرام خاصة .

---

(١) الكشاف ١/٢٢٢
(٢) سورة التوبة ٢٨

وعند مالك يمنعون منه ومن غيره من المساجد .

وعن عطاء أن المراد بالمسجد الحرام الحرم ، وأنه على المسلمين ألا يمكنوهم من دخوله .

ونهى المشركين أن يقربوه راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه .
وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ، ويعزلوا عن ذلك [١] .

١٠ — وقال تعالى : « الذين يُظاهرون منكم مِنْ نسائهم ما هُنَّ أمهاتِهِمْ إنْ أمهاتُهُمْ إلا اللائى وَلَدْنَهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً، وإن الله لعفوٌ غفور » [٢] .

فإن قلت : هل يصح الظهار بغير اللفظ ؟

قلت : نعم إذا وضع مكان (أنت) عضواً من الزوجة يعبر به عن الجملة، كالرأس والوجه والرقبة والفرج، أو وضع مكان(ظهر) عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ ، أو وضع مكان (أمى) ذات رحم محرم منه بسبب نسب أو رضاع أو صهر أو جماع، نحو أنه يقول أنت على كظهر أختى من الرضاع، أو عمتى من النسب، أو امرأة ابنى أو أبى أو أم امرأتى أو بنتها، فهو ظاهر ، وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه .

وعن الحسن والنخعى والزهرى والأوزاعى والثورى وغيرهم نحوه .

وقال الشافعى لا يكون الظهار إلا بالأم وحدها، وهو قول قتادة والشعبى.

(١) الكشاف ١/٣٨٩
(٢) سورة المجادلة ٢

وعن الشعبى : لم ينس الله أن يذكر البنات والأخوات والعمات والخالات، إذ أخبر أن الظهار إنما يكون بالأمهات الوالدة دون المرضعات . وعن بعضهم لابد من ذكر الظهر حتى يكون ظهارا [١] .

١١ — وقال تعالى : « يا أيُّها النبىُّ إذا طلَّقتمُ النساء فطلِّقوهُنَّ لعدَّتِهِنَّ » [٢]

روى عن إبراهيم النخعى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون ألا يطلقوا أزواجهم للسُنة إلا واحدة ، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضى العدة ، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً فى ثلاثة أطهار .

وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا مازاد على الواحدة فى طهر واحد ، فأما مفرقاً فى الأطهار فلا ، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهى حائض : ما هكذا أمرك الله ، إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا وتطلقها لكل قرء تطليقة، وروى أنه قال لعمر : مر ابنك فليراجعها ثم ليدعها حتى تحيض ، ثم تطهر ، ثم ليطلقها إن شاء ، فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق بها النساء .

وعند الشافعى رضى الله عنه لا بأس بإرسال الثلاث، وقال لا أعرف فى عدد الطلاق سنة ولا بدعة ، وهو مباح . فمالك يراعى فى طلاق السنة الوحدة والوقت، وأبو حنيفة يراعى التفريق والوقت ، والشافعى يراعى الوقت والوحدة.

فإن قلت : هل يقع الطلاق المخالف للسنة ؟ .

(١) الكشاف ٢/٤٤٠
(٢) سورة الطلاق ١

قلت : نعم وهو آثم ، لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلا طلق امرأته ثلاثاً بين يديه ، فقال : أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ وفى حديث ابن عمر أنه قال يارسول الله أرأيت لو طلقتها ثلاثاً ؟ فقال له : إذن عصيت وبانت منك امرأتك . وعن عمر رضى الله عنه أنه كان لا يؤتى برجل طلق امرأته ثلاثاً إلا أوجعه ضرباً ، وأجاز ذلك عليه. وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين أن من خالف السنة فى الطلاق فأوقع فى حيض أو ثلاث لم يقع[١] .

(١) الكشاف ٢/٤٦٦

ثالثاً - قراءات

الزمخشرى لغوى نحوى أديب ذواقة ، ولهذا أكثر من ذكر القراءات منسوبة إلى أصحابها فى أكثر الأحيان ، وغير منسوبة فى قليل من الأحيان ، وكان فى الأغلب الأعم لا يعقب بشىء ، ولا يفضل قراءة على قراءة ، وأحياناً كان يعقب باختيار أروع القراءات تعبيراً ، وأبلغها معنى ، وأشبهها بنظم القرآن الكريم .

وهو يذكر مصحف عبد الله بن مسعود[١] ، ومصحف أبى[٢] ، ومصحف الحارث بن سويد صاحب عبد الله ، وهو الذى دفن مصحفه أيام الحجاج[٣] ، ومصاحف أهل الكوفة وأهل الحرمين والبصرة والشام[٤] ، ومصاحف أهل العراق[٥] ، وعكرمة والأعرج وابن يعمر[٦] ، وبعض المصاحف[٧] ، كما يذكر روايات عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وزيد بن على ونافع وابن جريج وحمزة والحسن وعمرو بن عبيد وغيرهم .

(١) الكشاف ١/٥٥ ، ٥٩ و٢/٢٦٣ ، ٣٦٤
(٢) الكشاف ١/٩٤ و٢/٨٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣
(٣) الكشاف ١/٣٨٧
(٤) الكشاف ٢/٨٠
(٥) الكشاف ٢/٣٤١
(٦) الكشاف ٢/٥١٨
(٧) الكشاف ٢/٤٦٠

من أمثلة ذلك ما ذكره فى هذه الآيات :

١ — ولا تُسأَلُ عنْ أصحاب الجحيم(١) » .

قرأ عبد الله « ولن تُسأل » وقرأ أبيّ « وما تُسأل »(٢) .

٢ — « وإذا ابْتلى إبراهيمَ ربُّه »(٣) .

قرأ أبو حنيفة ـ وهى قراءة ابن عباس ـ « إبراهيمُ ربَّه » برفع إبراهيم ونصب ربه ، والمعنى أنه دعاه بكلمات من الدعاء(٤) .

٣ — « وعلى الذين يُطيقونَهُ فِديةٌ طعامُ مِسكين(٥) » .

قرأ ابن عباس : « وعلى الذين يُطَوَّقونه »(٦) من الطَّوْق أو من الطاقة أو القلادة أى يكلفونه ويقلدونه . وعن ابن عباس يتطوقونه بمعنى يتكلفونه أوْ يتقلدونه ، ويَطَّوَّقون بإدغام التاء فى الطاء .

٤ — « وأتِمّوا الحجَّ والعُمْرةَ لله »(٧) .

قرأ على وابن مسعود والشعبى : (وأتموا الحج ، والعُمْرةُ لله(٨)) برفع العمرة ، كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحج وهو الوجوب(٩) .

---

(١) سورة البقرة ١١٩
(٢) الكشاف ٧٢/١
(٣) سورة البقرة ١٢٤
(٤) الكشاف ٧٢/١
(٥) سورة البقرة ١٨٤
(٦) الكشاف ٨٨/١
(٧) سورة البقرة ١٩٦
(٨) الكشاف ٩٣/١
(٩) الكشاف ٩٣/١

٥ — « والوالداتُ يُرضِعْنَ أولادَهُنَّ حَوْلَيْن كاملين لمن أراد أن يتم الرَّضاعة(١) » قرأ قتادة (حولين كاملين)(٢) .

٦ — « فمن جاءه موعظةٌ من ربِّه فانتَهَى فله ما سلَف »(٣) .

قرأ أبيّ والحسن « فمن جاءته »(٤) .

٧ — « هو الذى يُصَوِّرُكُمْ فى الأرحام كَيْفَ يشاء »(٥) .

قرأ طاوس « هو الذى تَصَوَّرَكم » أى صوَّركم لنفسه .

٨ — « وما يَعلَمُ تأويلَهُ إلا اللهُ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به »(٦) .

قرأ أبي : « ويقول الراسخون فى العلم »(٧) .

٩ — « شهد الله أنه لا إلهَ إلا هو والملائكةُ وأولُو العلمِ قائماً بالقِسْط »(٨)
قال : إن قائماً منصوب على الحال أو المدح ، وقرأ عبد الله « القائم بالقسط » على أنه بدل من هو أو خبر مبتدأ محذوف ، وقرأ أبو حنيفة « قيما بالقسط »(٩) .

١٠ — إنَّ الذين يكفرون بآياتِ الله ويقتلون النَّبيِّين بغير حَقٍّ ويَقتُلون الذين يأمرون بالقِسْطِ من الناس فبشرهم بعذاب أليم »(١٠) .

---

(١) سورة البقرة ٢٣٣
(٢) الكشاف ١٠٩/١
(٣) سورة البقرة ٢٧٥
(٤) الكشاف ١٢٧/١
(٥) سورة آل عمران ٦
(٦) سورة آل عمران ٧
(٧) الكشاف ١٣٥/١
(٨) سورة آل عمران ١٨
(٩) الكشاف ١٣٧/١
(١٠) سورة آل عمران ٢١

قرأ الحسن « يقتلون النبيين » وقرأ حمزة «ويقاتلون الذين يأمرون» وقرأ عبد الله « وقاتلوا » وقرأ أُبيّ « يقتلون النبيين والذين يأمرون»(١) .

١١ ــ « قال ربِّ اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلمَ الناسَ ثلاثة أيام إلا رَمْزاً »(٢) .

قرأ يحيى بن وثاب إلا رُمُزا بضمتين جمع رَمُوز كرسول ورسل ، وقرىء رَمَزاً بفتحتين مثل خادم وخدم وهو حال منه ومن الناس كقوله :

متى ما تلقَنى فَرْدَين ترجُفْ   روانفُ إليتيكَ وتُستطارا

يعنى إلا مترامزين كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة ويكلمهم(٣) .

١٢ ــ « أم لهم نصيبٌ من المُلكِ، فإذن لا يُؤتُون الناس نَقيرًا »(٤) .

القراءة العامة على أن (إذن) ملغاة ، كأنه قيل فلا يؤتون الناس نقيراً إذن ، وقرأ ابن مسعود « فإذن لا يؤتوا الناس » . على إعمال إذن(٥) .

١٣ ــ « سمّاعون للكذب أكّالون للسُّحْت »(٦) قرىء السحت بالتخفيف والتثقيل ، والسَّحْت بفتح السين على لفظ المصدر من سحته ، والسَّحَت بفتحتين والسِّحْت بكسر السين(٧) .

---

(١) الكشاف ١٣٩/١
(٢) سورة آل عمران ٤١
(٣) الكشاف ١٤٤/١
(٤) سورة النساء ٥٣
(٥) الكشاف ٢٠٩/١
(٦) سورة المائدة ٤٢
(٧) الكشاف ٢٥٦/١

١٤ ــ « لكلٍّ جعلنا منكم شِرعةً ومنهاجاً »(١) .

الشرعة الشريعة ، وقرأ يحيى بن وثاب الشَّرعة بفتح الشين(٢) .

١٥ ــ « لا يؤاخذُكم اللهُ باللغوِ في أيمانكم، ولكن يؤاخِذُكم بما عقّدتم الأيمان، فكفارتُه إطعام عشرة مساكين من أوسَطِ ما تطعمون أهليكم أو كِسْوَتُهم أو تحريرُ رقبةٍ، فمن لم يجد فصيامُ ثلاثة أيامٍ، ذلك كفارةُ أيمانكم إذا حلفتم »(٣) قرىء عقدتم بالتخفيف وعاقدتم ، وقرأ جعفر بن محمد (أهاليكم) بسكون الياء والأهالى اسم جمع لأهل كالليالى فى جمع ليلة ، والأراضى فى جمع أرض ، وقولهم أهلون كقولهم أرضون بسكون الراء. أما تسكين الياء فى حال النصب فللتخفيف، كما قالوا رأيت معديكرب تشبيها للياء بالألف. وقرىء (كُسوتهم) بضم الكاف ونحوه قدوة فى قِدْوة وأُسوة فى إِسوة .

وقرأ سعيد بن المسيب واليمانى (أو كأُسوتهم) بمعنى أو مثل ما تطعمون أهليكم إسرافاً أو تقتيراً ، وقرأ أبى وابن مسعود « فثلاثة أيام متتابعات »(٤)

١٦ ــ لِيُكفِّرَ عنهم أسوأ الذى عملوا(٥) .

قرىء أسواء الذى عملوا ، جمع سوء(٦) .

١٧ ــ « وما هو على الغيب بِضَنِينٍ »(٧) .

فى مصحف عبد الله بالظاء (بظنين) وفى مصحف أبى بالضاد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها ، وإتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب

---

(١) سورة المائدة ٤٨
(٢) الكشاف ٢٥٨/١
(٣) سورة المائدة ٨٩
(٤) الكشاف ٢٧٢/١
(٥) سورة الزمر ٣٥
(٦) الكشاف ٢٩٩/٢
(٧) سورة التكوير ٢٤

ومعرفة مخرجيها لا بد منه للقارىء ، فإن أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين وإن فرقوا ففرقاً غير صواب . وبينهما بون بعيد ، فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليهـا من الأضراس من يمين اللسان أو يساره ، كان عمر بن الخطاب أضبط يعمل بكلتا يديه ، وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه . وهي أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين، وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا ، وهي أحد الأحرف الذولقية أخت الذال والثاء . ولو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الكلمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب(١) .

وقد يفاضل بين القراءات ويختار إحداها .

١٨ — ففي الآية الكريمة « وإنا لجميعٌ حاذرون »(٢) ذكر أن بعضهم قرأ (حذرون) وبعضهم قرأ (حادرون) بالدال غير المعجمة ، وقال إن الحذر اليقظ ، والحاذر الذي يجدد حذره ، وقيل المتقوى بالسلاح إنما يفعل ذلك حذراً، والحادر السمين القوى قال :

أحب الصبيّ السوء من أجل أمه   وأبغضُه من بُغضها وهو حادرُ

أراد أنهم أقوياء أشداء، وقيل مدججون بالسلاح قد أكسبهم ذلك حدارة في أجسامهم(٣)

١٩ — وعند تفسير قوله تعالى:«ضرب الله مثلا كلمةً طيبةً كشجرة طيبة أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء »(٤) قال : قرأ أنس بن مالك كشجرة طيبة ثابت أصلها فإن قلت أي فرق بين القراءتين ؟

(١) الكشاف ٢/٥٢٨
(٢) سورة الشعراء ٥٦
(٣) الكشاف ٢/١٢٤
(٤) سورة إبراهيم ٢٤

قلت قراءة الجماعة أقوى ، لأن في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة، وإذا قلت مررت برجل أبوه قائم فهو أقوى معنى من قولك مررت برجل قائم أبوه ، لأن الخبر عنه إنما هو الأب لا رجل(١) .

٢٠ — وفي تفسير قوله تعالى : « كَبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم »(٢)

ذكر أن (كلمة) قرئت بالنصب على التمييز وبالرفع على الفاعلية ، والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة(٣) .

٢١ — على أنه استبعد القراءات الشاذة وأنكرها ، فقال في تفسير قوله تعالى : « أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناسَ جميعا»(٤) .

أفلم ييأس أي أفلم يعلم ، قيل هي لغة قوم من النخع . . . ويدل عليه أن علياوابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرأوا أفلم يتبين ، وهو تفسير أفلم ييأس .

وقيل إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوىَ السينات ، وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتا بين دفتي الإمام ـ يريد المصحف الإمام ـ وكان متقلبا في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله، المهيمنين عليه ، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه ، خصوصا عن القانون الذي إليه المرجع ، والقاعدة التي عليها البناء، وهذه والله فِرْيةٌ ما فيها مِرْية(٥) .

(١) الكشاف ١/٥٠٤
(٢) سورة الكهف ٥
(٣) الكشاف ١/٥٦٣
(٤) سورة الرعد ٣١
(٥) الكشاف ١/٤٩٥

رابعًا - آراء نحوية

عرفنا أن الزمخشرى ألف كتبا فى النحو ، منها المفصل ، وكان كلفا بالنحو بصيرا بدقائقه مثل كلفه باللغة وبصره بها .

ولهذا تعرض كثيرا للإعراب فى تفسيره ، فأعرب كلمات ، وأورد آراء النحاة فى إعراب كلمات ، وناقش الأعاريب ، واختار ماراه أصح وأصوب ، وكثيرا ما كان يمثل بالنصوص الأدبية .

وهذه أمثلة من الآيات الكريمة التى عرض فيها للنحو :

١ — «شَهِدَ اللهُ أنه لا إله إلا هو والملائكةُ وأولو العلم قائما بالقسط»(١)

قال : إن قائما منصوب على الحال من لفظ الجلالة ، فإن قلت : لم جاز إفراده بنصب الحال دون المعطوفين عليه ، ولو قلت جاءنى زيد وعمرو راكبا لم يجز ؟

قلت : إنما جاز هذا لعدم الإلباس كما جاز فى قوله تعالى: «ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلةً » (٢) إن انتصب (نافلة) حالا من يعقوب ، ولو قلت جاءنى زيد وهند راكبا جاز ، لتميز الحال بالذكورة ، ويجوز أن يكون (قائما) منصوبا على المدح .

فإن قلت : أليس من حق المنتصب على المدح أن يكون معرفة ، كقولك الحمدُ للهِ الحميدَ — بفتح الدال — وإنا معشرَ — بفتح الراء — الأنبياء لا نورث ؟

(١) سورة آل عمران ١٨

(٢) سورة الأنبياء ٩٢

قلت : قد جاء نكرة كما جاء معرفة ، وأنشد سيبويه فيما جاء منه نكرة قول الهذلى :

ويأوى إلى نسوةٍ عُطّلٍ وشُعْثًا مراضيعَ مثلَ السعالى

فإن قلت : هل يجوز أن يكون صفة للمنفى ، كأنه قيل لا إله قائما بالقسط إلا هو ؟

قلت: لا يبعد ، فقد رأيناهم يتسعون فى الفصل بين الصفة والموصوف .

فإن قلت : قد جعلته حالا من فاعل (شهد) فهل يصح أن ينتصب حالا من هو فى (لا إله إلا هو) ؟

قلت : نعم لأنها حال مؤكدة ، والحال المؤكدة لا تستدعى أن يكون فى الجملة التى هى زيادة فى فائدتها عامل فيها ، كقولك أنا عبد الله شجاعا ، وكذلك لو قلت لا رجل إلا عبد الله شجاعا ، وهو أوجه من انتصابه عن فاعل (شهد) وكذلك انتصابه على المدح (١).

٢ — « ذلكم الله فأنى تُؤفكون ، فالقُ الإصباحِ وجعلَ الليلَ سكنًا والشمسَ والقمرَ حسبانًا »(٢)

(الشمس والقمر) قرئا بالحركات الثلاث .

فالنصب على إضمار فعل دل عليه جاعل الليل ، أى وجعل الشمس والقمر حسبانا ، أو يعطفان على محل الليل .

فإن قلت : كيف يكون لليل محل والإضافة حقيقية ، لأن اسم الفاعلَ المضاف إليه فى معنى المضى ، ولا تقول زيد ضارب عمرو أمس ؟

(١) الكشاف ١٣٧/١

(٢) سورة الأنعام ٩٥

قلت ما هو فى معنى المضى ، وإنما هو دال على جَعْلٍ مستمر فى الأزمنة المختلفة ، وكذلك فالق الحب وفالق الإصباح ، كما تقول الله قادر عالم ، فلا تقصد زمانا دون زمان .

والجر عطف على لفظ الليل ، والرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره والشمس والقمر مجعولان حسبانا أو محسوبان حسبانا ، ومعنى جعلهما حسبانا أن حساب الأوقات يعلم بدورانهما وسيرهما [١] .

٣ — « إن يشأ يُسْكِنِ الريح فيظلَلْنَ رواكدَ على ظهره ، إن فى ذلك لآيات لكل صَبَّارٍ شكور . أو يُوبِقْهُنَّ بما كسبوا ، ويَعْفُ عن كثير ، ويَعْلَمَ الذين يجادلون فى آياتنا مالهم من مَحِيصٍ » [٢] .

فإن قلت : فما وجوه القراءات الثلاث فى (يعلم) ؟

قلت أما الجزم فعلى ظاهر العطف ، وأما الرفع فعلى الاستئناف ، وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ، ونحوه فى العطف على التعليل المحذوف غير عزيز فى القرآن ، منه قوله تعالى : « ولنجعله آية للناس » [٣] ، وقوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولِتُجْزَى كل نفس بما كسبت [٤] » .

وأما قول الزجاج : النصب على إضمار أنْ ، لأن قبلها جزاء ، تقول ماتصنع أصنعْ مثله وأُكرِمَك ، وإن شئت وأكرمُك ، على تقدير وأنا أكرمك ، وإن شئت وأكرمْكَ جزْماً ففيه نظر ، لما أورده سيبويه فى كتابه إذ قال:

(١) الكشاف ٣٠٢/١
(٢) سورة الشورى ٣٥
(٣) سورة مريم ٢١
(٤) سورة الجاثية ٢٢

واعلم أن النصب بالفاء والواو فى قوله إن تأتنى آتك وأعطيَك ، ضعيف وهو نحوٌ من قوله : وأَلْحَقُ بالحجاز فأستريحا ، فهذا يجوز وليس بحد الكلام ولا وجهه ، إلا أنه فى الجزاء صار أقوى قليلا ، لأنه ليس بواجب أنه يفعل ، إلا أن يكون من الأول فعل ، فلما ضارع الذى لا يوجبه كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه .

ثم عقب الزمخشرى بقوله : ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ، ليس بحد الكلام ولا وجهه ، ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه ، وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة [١] .

٤ — « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقيَّةٍ ينهَوْنَ عن الفساد فى الأرض [٢] » فهلا كان ، وقد حكوا عن الخليل أن كل « لولا » فى القرآن معناها هلا إلا التى فى سورة الصافات [٣] ، ولكن هذه الحكاية غير صحيحة ، لأن لولا وردت فى سور أخرى وليس معناها هلا ، مثل قوله تعالى : « لولا أن تَدارَكَهُ نعمة من ربه لنُبِذَ بالعراء » [٤] . وقوله « ولولا رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمناتٌ لم تعلمُوهم أن تطئوهم [٥] » . وقوله : « ولولا أن ثبَّتْناك لقد كدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئا قليلا » [٦] .

٥ — « وقال الملك إنى أرى سَبْعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكلُهنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابسات » [٧] .

(١) الكشاف ٣٤٢/٢ (٢) سورة هود ١١٦ .
(٣) يريد قوله تعالى فى شأن يونس : « وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوتُ وهو مُليم ، فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون » سورة يونس ١٣٩ — ١٤٤
(٤) سورة القلم ٤٩ (٥) سورة الفتح ٢٥
(٦) سورة الإسراء ٧٤ والكشاف ٤٥٦/١
(٧) سورة يوسف ٤٣

فإن قلت : هل من فرق بين إيقاع سمان صفة للمُمَيَّز ، وهو بقرات دون المُمَيِّز وهو سبع ، وأن يقال بقرات سماناً ؟

قلت : إذا أوقعتها صفة لبقرات فقد قصدت إلى أن تميز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها ، ثم رجعت فوصفتَ المميز بالجنس بالسمن .

فإن قلت : هلا قيل سبع عجافٍ على الإضافة ؟ .

قلت : التمييز موضوع لبيان الجنس ، والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده .

فإن قلت : فقد يقولون ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب ؟ .

قلت : الفارس والصاحب والراكب ونحوها صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها ، وجاز فيها ما لم يجز في غيرها ، ألا تراك لا تقول عندى ثلاثة ضخام ٍ وأربعة غلاظٍ .

فإن قلت : ذاك مما يشكل ، وما نحن بسبيله لا إشكال فيه ، ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف ، لوقوع العلم بأن المراد البقرات ؟ .

قلت : ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل ؛ وقد وقع الاستغناء بقولك سبع عجاف عما تقترحه من التمييز بالوصف .

والعَجَفُ الهزال الذى ليس بعده ، والسبب فى وقوع عجاف جمعاً لعجفاء مع أن أفعل وفعلاء لا يجمعان على فِعال حمله على سِمان ، لأنه نقيضه ، ومن رأيهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض[1] .

٦ — « هو الذى يُريكمُ البَرْقَ خوفاً وطَمعاً[2] » .

(١) الكشاف ١/٤٧٢

(٢) سورة الرعد ١٣

. لا يصح أن يكون (خوفاً وطمعاً) مفعولاً لهما ، لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف ، أى إرادة خوف وطمع ، أو على معنى إخافة وإطماعاً .

ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق ، كأنه فى نفسه خوف وطمع ، أو على ذا خوف وذا طمع ، أو من المخاطبين أى خائفين وطامعين[1] .

٧ — « لا أُقسِمُ بيَوْمِ القيامةِ[2] » .

إدخال (لا) النافية على فعل القسم مستفيض فى كلامهم وأشعارهم ، قال امرؤ القيس :

لا وأبيك ابنة العامرى   لا يَدَّعى القوم أنى أفرّ

وقال غُوَيّة بن سلمى :

ألا نادت أمامةُ باحتمال   لتحزننى فلا بك ما أبالى

وفائدتها تأكيد القسم ، وقالوا إنها صلة (زائدة) مثلها فى (لئلا يَعلَمَ أهل الكتاب) وفى قوله :

فى بئر لا حُورٍ سَرَى وما شعر[3] .

واعترضوا عليه بأنها إنما تزاد فى وسط الكلام لا فى أوله ، وأجابوا بأن القرآن فى حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض .

والاعتراض صحيح ، لأنها لم تقع مزيدة إلا فى وسط الكلام ، ولكن الجواب غير سديد ، ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها فى مستهل قصيدته؟ والوجه أن يقال هى للنفى ، والمعنى أنه لم يقسم بالشىء إلا إعظاماً له ، يدلك عليه قول الله تعالى : « فلا أُقسمُ بمَواقعِ النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » .

(١) الكشاف ١/٤٩٠

(٢) سورة القيامة ١

(٣) قال ابن يعيش فى شرح المفصل ٨/١٣٦ إن المراد فى بئر حور ولا مزيدة ، كذا فسره أبو عبيدة ، والحور الهلكة .

فكأنه بإدخال حرف النفي يقول إن إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام ، يعني أنه يستأهل فوق ذلك .

وقيل إن (لا) نفي لكلام ورد له قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث فقيل لا ، أي ليس الأمر كما ذكرتم ، ثم قيل أقسم بيوم القيامة .

فإن قلت : قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون » ، والأبيات التي أنشدتها ، المقسم عليه فيها منفي ، فهلا زعمت أن (لا) التي قبل القسم زيدت موطئة للنفي ، ومؤكدة له ، وقدرت المقسم عليه المحذوف هاهنا منفيا ، كقولك لا أقسم بيوم القيامة لا تتركون سدى ؟ .

قلت : لو قصر الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ، ولكن لم يقصر ، ألا ترى كيف لقي لا أقسم بهذا البلد بقوله لقد خلقنا الإنسان في كبد ، وكذلك فلا أقسم بمواقع النجوم بقوله إنه لقرآن كريم .

وقرئ (لَأُقْسِمُ) على أن اللام للابتداء ، وأقسم خبر مبتدأ محذوف معناه لأنا أقسم ، قالوا ويعضده أنه في المصحف الإمام بغير ألف[1] .

---

(١) الكشاف ٢ / ٥٠٧

خامسا - مسائل لغوية

من الطبيعي والزمخشري لغوي أديب بصير بحقائق اللغة ومجازاتها أن يستعين بعلمه وذوقه على تجلية بعض الدلالات الدقيقة للكلمات ، وأن يناقش سابقيه ومعاصريه في بعض الكلمات .

١ — قال في تفسير قوله تعالى: « والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »[1] .

معنى إقامة الصلاة تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ في فرائضها وسننها وآدابها ، من أقام العمود إذا قومه .

أو الدوام عليها والمحافظة عليها ، كما قال عز وعلا : « الذين هم عن صلاتهم ساهون » و « والذين هم على صلواتهم يحافظون » من قامت السوق إذا نفقت ، لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النافق الذي تتوجه إليه الرغبات ، ويتنافس فيه المحصلون ، وإذا عطلت وأضيعت كانت كالشيء الكاسد الذي لا يُرغب فيه .

أو التجلد والتشمر لأدائها ، وألا يكون في مؤديها فتور عنها ولا توان ، من قولهم قام بالأمر وقامت الحرب على ساقها ، وفي ضده قعد عن الأمر وتقاعد عنه إذا تقاعس وتثبط .

أو أداؤها ، فعبر عن الأداء بالإقامة ، لأن القيام بعض أركانها ، كما عبر عنه بالقنوت ، والقنوت القيام ، وبالركوع وبالسجود ، وقالوا سبح إذا صلى ، لوجود التسبيح فيها[2] .

---

(١) سورة البقرة ٣
(٢) الكشاف ١ / ١٧

٢ — وقال فى تفسير قوله تعالى : « ذَهَبَ اللهُ بنورهم »(١) .

الفرق بين أذهبه وذهب به أن معنى أذهبه أزاله وجعله ذاهباً ، ويقال ذهب به إذا اصطحبه ومضى به معه ، وذهب السلطان بماله أخذه ، ومنه ذهبت به الخيلاء ، والمعنى أخذ الله نورهم وأمسكه وما يمسك الله فلا مرسل له ، فهذا أبلغ من الإذهاب ، وقرأ اليمانى أذهب الله نورهم(٢) .

٣ — وقال فى تفسير قوله تعالى :«فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون»(٣) .

النِّدُّ المثل ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوى ، قال جرير :

أتيماً تجعلون إلى نِدًّا   وما تيمٌ لذى حسب نَديدُ

ونادَدت الرجل خالفته ونافرته ومعنى قولهم : ليس لله ند ولا ضد تعنى ما يسد مسده ونفى ما ينافيه(٤) .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « فمن تَعَجَّلَ فى يَوْمَيْنِ فلا إثْمَ عليه(٥) » .

فمن تعجل عَجِلَ فى النَّفْر أو استعجل النفر ، وتعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى عَجِل ، يقال تعجل فى الأمر واستعجل، ويجيئان متعديين ، يقال تعجل الذهاب واستعجله . والمطاوعة أوفق ، لقوله «ومن تأخَّر» كما هى كذلك فى قول الشاعر :

قد يدرك المتأنّى بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل

لأجل المتأنى(٦) .

(١) سورة البقرة ١٧
(٢) الكشاف ١ / ٣١
(٣) سورة البقرة ٢٢
(٤) الكشاف ١ / ٣٨
(٥) سورة البقرة ٢٠٣
(٦) الكشاف ١ / ٩٧

٥ — وقال فى تفسير قوله تعالى : «وإذْ آتينا موسى الكتاب والفُرْقانَ لعلكم تهتدون(١)» .

قال : الكتاب والفرقان يعنى الجامع بين كونه كتاباً منزلا وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل ، يعنى التوراة ، كذلك رأيت الغيث والليث ، تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة ، ونحوه قوله تعالى : « لقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذِكْرًا للمتقين(٢) » يعنى الكتاب الجامع بين كونه فرقانا وضياء وذكرا ، أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات ، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام .

وقيل الفرقان انفراق البحر ، وقيل النصر الذى فرق بينه وبين عدوه ، كقوله تعالى : « يوم الفرقان »(٣) يريد به يوم بدر(٤) .

٦ — وقال فى تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يَرْتَدَّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذِلَّةٍ على المؤمنين أعِزَّةٍ على الكافرين(٥) » .

أذلة جمع ذليل ، وأما ذلول فجمعه ذُلُل ، ومن زعم أنه من الذل الذى هو نقيض الصعوبة فقد غبى عنه أن ذلولا لا يجمع على أذلة . فإن قلت : هلا قيل : أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين ؟

قلت : فيه وجهان :

(١) سورة البقرة ٥٣
(٢) سورة الأنبياء ١٤٨
(٣) سورة الأنفال ٤١
(٤) الكشاف ١ / ٥٥
(٥) سورة المائدة ٥٤

أحدهما أن يضمّن الذل معنى الحنو والعطف ، كأنه قيل عاطفين عليهم على وجه التذليل والتواضع .

والثانى أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم ، ونحوه قوله تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » (١) .

٧ — وقال فى تفسير قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أُخْفيها لتُجْزَى كلُّ نفسٍ بما تَسْعى » (٢) .

أى أكاد أخفيها فلا أقول هى آتية لفرط إرادتى إخفاءها ، ولولا ما فى الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به .

وقيل معناه أكاد أخفيها من نفسى ، ولا دليل فى الكلام على هذا المحذوف ، ومحذوف لا دليل عليه مطّرح ، والذى غرهم منه أن فى مصحف أُبَىّ أكاد أخفيها من نفسى فكيف أظهركم عليها ؟

وعن أبى الدرداء وسعيد بن جبير (أخفيها) بفتح الهمزة من خفاه إذا أظهره ، أى قرب إظهارها ، كقوله تعالى : « اقتربت الساعة » (٣) وقد جاء فى بعض اللغات أخفاه بمعنى خفاه ، وبه فسر بيت امرىء القيس :

فإن تَدْفِنوا الداء لا نُخْفِه   وإن تَبْعَثوا الحَرْبَ لا نَقْعُد

فأكاد أخفيها تحتمل المعنيين (٤) .

وقال فى الأساس : خَفِىَ الشىء واختفى واستخفى تستر ، وهو يخفى

(١) سورة الفتح ٢٩ والكشاف ١ / ٢٦٢
(٢) سورة طه ١٥
(٣) سورة القمر ١
(٤) الكشاف ٢ / ٢١

صوته ، وخَفَى الشىء الخفىّ واختفاه أخرجه ، يقال خفيتُ الحوزة من تحت التراب ، واختفى النباش الكفن (١) .

٨ — وقال فى تفسير قوله تعالى : « ويُسْقَوْنَ فيها كأسا كان مِزاجها زَنْجَبيلا، عيناً فيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلا » (٢) .

سميت العين زنجبيلا لطعم الزنجبيل فيها ، والعرب تستلذه وتستطيبه . قال الأعشى :

كأن القرنفل والزنجبيـ   ـل باتا بفيها وأريا مشورا

وقال المسيَّب بن علس :

وكأن طعم الزنجبيل به   إذ ذُقْتَه وسُلافَةَ الخمر

و (سلسبيلا) لسلاسة انحدارها فى الحلق ، وسهولة مساغها ، يعنى أنها فى طعم الزنجبيل ، وليس فيها لذعة ، ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة . يقال شراب سَلْسَل وسلسال وسلسبيل . وقد زيدت الباء فى التركيب حتى صارت الكلمة خماسية ، ودلت على غاية السلاسة . قال الزجاج : السلسبيل فى اللغة صفة لما كان فى غاية السلاسة . وقد عزوا إلى على بن أبى طالب أن معناه سل سبيلا ، وهذا غير مستقيم على ظاهره ، إلا أن يراد أن علة قول القائل (سل سبيلا) جعلت علما للعين ، كما قيل تأبط شرا ، وسميت بذلك لأنه لا يشرب إليها إلا من سأل إليها سبيلا بالعمل الصالح (٣) . وهو مع استقامته فى العربية تكلف وابتداع ، وعَزْوُه إلى مثل على رضى الله عنه أبدع .

(١) أساس البلاغة مادة خفى
(٢) سورة الإنسان ١٧
(٣) الكشاف ٢/ ٥١٢

٩ — وقال فى تفسير الآية الكريمة : « وأنْزَلْنا من المُعصِراتِ ماء ثَجّاجا ، لنُخْرِجَ به حَبًّا ونباتًا وجناتٍ ألْفَافا » (١) .

المعصرات: السحائب إذا أعصَرت أى شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر، كقولك أجزَّ الزرع إذا حان له أن يُجَز ، ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض . وذكر فى الأساس أن السحابة أعصرت واستدل بالآية .

ثجاجا : منصبا بكثرة ، يقال ثَجَّهُ وثج بنفسه ، وفى الحديث أفضل الحج العجُّ والثَّجُّ ، أى رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى ، وكان ابن عباس مِثَجًّا يسيل غرْبا ، يعنى يَثُجُّ الكلام ثجًّا فى خطبته .

ألفافا : ملتفة ، ولا واحد له كالأوزاع والأضياف ، وقيل الواحد لِفٌّ ، وقال صاحب الإقليد : أنشدنى الحسن بن على الطوسى :

جنَّةٌ لِفٌّ وعيشٌ مُغْدِقٌ ... ونَدَامَى كلهم بيضٌ زُهُر

وزعم ابن قتيبة أن المفرد لفاء والجمع لُفٌّ ثم ألفاف ، وما أظنه واجدا له نظيرا من نحو خضر وأخضار وحمر وأحمار . ولو قيل هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولا وجيها (٢) .

١٠ — وفى الآية الكريمة : « وكذَّبوا بآياتنا كِذَّابا » (٣)

أى تكذيبا ، وفِعَّال فى باب فَعَّل كله فاش فى كلام فصحاء العرب ، لا يقولون غيره . وسمعنى بعضهم أفسر آية فقال : لقد فسرتها فِسَّارا ماسمع بمثله (٤) .

(١) سورة النبأ ١٤ — ١٦
(٢) الكشاف ٢ / ٥١٨
(٣) سورة النبأ ٢٨
(٤) الكشاف ٢ / ٥١٩

سادسًا - نصوص شعرية

استن الزمخشرى نهج ابن عباس والطبرى وغيرهما فى الاستشهاد بالشعر والاستدلال به على تفسير معانى الكلمات ، فقد روى ابن عباس أن أعرابيا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فتكلم بكلام بيِّن ، فقال النبى إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحُكمًا. وكان ابن عباس يُسْأل عن الشئ من القرآن، فيقول : فيه كذا وكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا كذا . وقال عكرمة : ما سمعت ابن عباس فسر آية من كتاب الله عز وجل إلا نزع فيها بيتا من الشعر . وكان يقول : إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه فى الشعر ، فإنه ديوان العرب (١) .

أما الطبرى فكثيرا ما اعتمد على الشعر فى بيان المعنى المراد من الكلمة، تارة يذكر اسم الشاعر ، وتارة يذكر النص مجردا من الاسم .

وفى رأى الزمخشرى ورأى سابقيه أن الإسلام لم يحرم الشعر كله ، بل حرم ما يخالف العقيدة ، وينافى الخلق الكريم . ولهذا قال فى تفسير قوله تعالى : « والشعراء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وليَعْلَمَنَّ الذين ظلموا أىَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون (٢) » .

إن الله استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاء

(١) مقدمة شرح التبريزى للحماسة ١/٣
(٢) سورة الشعراء ٢٢٤ — ٢٢٦

القرآن ، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر ، وإذا قالوا شعرا قالوا فى توحيد الله والثناء عليه، والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة وصلحاء الأمة، ومالا بأس به من المعانى ، لايتلطخون فيها بذنب، ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة ، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم ، قال الله تعالى : « لا يُحبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوء من القول إلا من ظُلِمَ »[1] وذلك غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب ، لقوله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم »[2] .وعن عمرو بن عبيد أن رجلا من العلوية قال له إن صدرى ليجيش بالشعر ، فقال : فما يمنعك منه مما لا بأس به ؟ .

والقول فيه أن الشعر باب من الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام . وقيل المراد بالمستثنين عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير، والذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكافحون هُجاةَ قريش . وعن كعب بن مالك أن النبى قال له: اهجهم ، فو الذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من النَّبْل ، وكان يقول لحسان: قل وروح القدس معك[3] .

ولهذا استشهد بالشعر فى الكشف عن دلالات كثير من الألفاظ ، ولم يتقيد بعصر ولا بصفة خاصة فى الشاعر .

١ — ففى تفسير قوله تعالى : « والمُحْصَنات من النساء إلا ما مَلَكَتْ أيمانُكم »[4] .

(١) سورة النساء ١٤٨
(٢) سورة البقرة ١٩٤
(٣) الكشاف ٢/١٣٥
(٤) سورة النساء ٢٤

قال إن المراد ما ملكت أيمانكم من اللاتى سُبين ولهن أزواج فى دار الكفر ، فهن حلال لفقراء المسلمين وإن كن محصنات ، وفى معناه قول الفرزدق :

وذاتِ حليلٍ أنكحتْها رماحُنا   حلالٌ لمن يَبْنى بها لم تُطلَّق[1]

٢ — وفى تفسير قوله تعالى : « فاضْرِبُوا فَوْقَ الأعناق ، واضربوا منهم كلَّ بَنان »[2] .قال إن المراد أعالى الأعناق التى هى المذابح ،لأنها مفاصل، وكان إيقاع الضرب فيها حزًّا وتطييرا للرءوس .

وقيل أراد الرءوس ، لأنها فوق الأعناق ، يعنى ضرب الهام، قال الشاعر :

وأضرب هامة البطل المشيح .

وقال آخر .

غَشَّيْتُه وهو فى جأواء باسلةٍ   عَضْبًا أصاب سواء الرأس فانفلقا

والبنان الأصابع ، يريد الأطراف ، والمعنى فاضربوا المفاصل والشَّوى[3] .

٣ — وقال فى تفسير قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العُسْرة »[4] :إن ساعة العسرة وقتها، والساعة مستعملة فى معنى الزمان المطلق ، كما استعملت الغداة والعشية واليوم.قال الشاعر :

وكنا حسبنا كلَّ بيضاء شحمةً   عشيَّةَ قارعْنا جُذامَ وحِمْيرا

(١) الكشاف ١/١٩٩
(٢) سورة الأنفال ١٢
(٣) الكشاف ١/٣٦٨
(٤) سوره التوبة ١١٧

وقال آخر :

إذا جاء يوما وارثى يبتغى الغنى يَجِدْ جُمْعَ كفٍ غيرَ ملأى ولا صِفْرِ [١]

والعسرة حالهم فى غزوة تبوك[٢] .

٤ — ويستشهد ببيت لأبى نواس عند تفسيره قوله تعالى :

« إنَّ إبراهيم كان أُمّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين »[٣] .

فيقول : فيه وجهان : أحدهما أنه كان وحده أمة من الأمم ، لكماله فى جميع صفات الخير ، كقول الشاعر :

وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد[٤] .

ومعلوم أن البيت لأبى نواس كما فى ديوانه وفى أوضح المسالك لابن هشام فى باب أداة التعريف .

وإذا كان لم يصرح باسم أبى نواس فى هذا البيت ، فقد صرح باسمه مرات أخرى ، كما نجد عند تفسير قوله تعالى : « أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله فرآه حسناً ، فإن الله يُضِلُّ من يشاء ويهدى من يشاء[٥] » .

إذ يقول : ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد ، وهو أن يكون العاصى على صفة لا تجدى عليه المصالح حتى طاعة الهوى ، فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحاً ، ويقع تحت قول أبى نواس :

اسقـنى حتى ترانى حسنا عنـدى القبيح[٦]

(١) يد صفر بتثليث الصاد : خالية
(٢) الكشاف ١/٤١٠
(٣) سورة النحل ١٢٠
(٤) الكشاف ١/٥٣٨
(٥) سورة فاطر ٨
(٦) الكشاف ٢/٢٣٩

٥ — ويستشهد بقول الشاعر :

وكأس شربت على لذة [وأخرى تداويت منها بها]

عند تفسير قوله تعالى : « يطاف عليهم بكأس من مَعِين »[١] .

ويذكر أنه يقال للزجاجة فيها الخمر كأس ، وتسمى الخمر كأساً[٢] .

٦ — ويستشهد بقول طرفة :

أرى الموت يَعتامُ الكرامَ ويصطفى عقيلةَ مال الفاحش المتشدد[٣]

عند تفسير قوله تعالى : « وإنّه لحبِّ الخيرِ لشديد[٤] » .

ليوضح أن الشديد هو البخيل الممسك[٥] .

٧ — واستشهد بشعره وإن لم يصرح بأنه له .

فعند تفسيره لقوله تعالى : « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها »[٦] .

ذكر هذه الأبيات على أنها لبعضهم :

يامن يرى مَدَّ البعوض جناحها فى ظلمة الليل البهيم الأَليَلِ
ويرى عروق نياطها فى نحرها والمخ فى تلك العظام النُّحَّل
اغفرْ لعبد تاب من فرطاته ما كان منه فى الزمان الأول

وهذه الأبيات له ، كما يتبين من ديوانه[٧] .

وعند تفسير قوله تعالى : « ولتُنذرَ أمَّ القرى ومن حولها »[٨] .

ذكر هذا البيت على أنه لبعض المجاورين :

فمن يلق فى بعض القرى رحاله فأم القرى ملقى رحالى ومنتابى[٩]

(١) سورة الصافات ٤٥
(٢) الكشاف ٢/٢٦٢
(٣) يعتام : يختار
(٤) سورة العاديات ٨
(٥) الكشاف ٣/٥٥٧
(٦) سورة البقرة ٢٦
(٧) ديوان الزمخشرى ٩٦
(٨) سورة الأنعام ٩٢
(٩) الديوان ٥ والكشاف ١/٣٠٣

سابعاً - بلاغة ونقد

تمهيد

سارع المعتزلة إلى دراسة اللغة والأدب والعلوم الدينية والفلسفة والمنطق ، لأن مكانتهم المذهبية أملت عليهم أن يحيطوا باللغة وأدبها ، ليتخيروا التعبير الجيد الملائم للفكرة ، وليتفهموا النصوص ، ويغوصوا إلى أسرارها ، ولأنهم كانوا يعدون أنفسهم للانتصار فى الجدل الدائر بينهم وبين اليهود والنصارى ، وبينهم وبين مخالفيهم من المسلمين ، وفى هؤلاء وأولئك أصحاب لسن وأصحاب فلسفة .

لهذا كثر فى المعتزلة البلغاء والفلاسفة ، فكان منهم أساتذة المناظرة ، وأعلام الجدال ، وجهابذة الكتابة والخطابة ، ورواد البلاغة ، وكانوا يروون الشعر ويقرضونه ، وكان بشر بن المعتمر أرواهم له [1] ، وله قصيدة من أربعين ألف بيت ضمنها نقضه لآراء مخالفيه ، وشهد الجاحظ أنه لم ير أحدا استطاع من النظم المخمس والمزدوج ما استطاعه بشر [2] ، وله قصيدتان أخريان [3] .

كذلك كان الجاحظ حفاظة للشعر ، كثير الاستدلال به فى مؤلفاته كلها ، وكان يستطيع نظمه .

ولهم فى وضع أصول البلاغة سبق لا ينكر ، منذ كتب بشر بن المعتمر صحيفته للأدباء [4] ، ومنذ كتب الجاحظ فصولا فى البلاغة منثورة فى كتبه وبخاصة البيان والتبيين .

(١) الحيوان ٦/٤٠٥ (٢) المنية والأمل ٣٠

(٣) الحيوان ٦/٢٨٤ — ٢٩٧

(٤) البيان والتبيين ١/١٣٥

ولهذا ازدهى الجاحظ ببلاغة المعتزلة فى قوله: [1] «فإن عبر الخطيب عن شىء من صناعة الكلام ، واصفاً أو مجيبا أو سائلا كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين ، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، وإلى تلك الألفاظ أميل ، وإليها أحسن ، وبها أشغف ؛ لأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء ، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعانى ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم فصاروا فى ذلك سلفاً لكل خلف ، وقدوة لكل تابع ، ولذلك قالوا : العرَض والجوهر ، وأيس وليس ، وفرقوا بين البطلان والتلاشى ، وذكروا الهذيّة والهُويّة والماهية [2] وأشباه ذلك» .

ولقد عنى المعتزلة بالكشف عن وجوه الإعجاز البلاغى ، فالجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥هـ) كتاب فيه سماه (نظم القرآن) لم يصل إلينا ، ولعلى بن عيسى الرمانى (٣٨٤) رسالة سماها (النكت فى إعجاز القرآن) [3] تناولت سبعة أسباب لإعجازه منها : البلاغة ، والعجز عن المعارضة ، والتحدى للكافة .

ثم ألف أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادى قاضى قضاة الدولة البويهية (٤١٥هـ) [4] كتابه (المغنى فى أبواب التوحيد والعدل [5]) تناول فى الجزء السادس عشر منه إعجاز القرآن ، فأرجعه إلى فصاحة الأسلوب .

ثم جاء الزمخشرى فطبق فى تفسيره آراء المعتزلة والأشعرية [6] إذ درس

(١) البيان والتبيين ١/١٣٩

(٢) الهذية نسبة إلى هذا ، والهوية نسبة إلى هو ، والماهية نسبة إلى ما هو

(٣) معجم الأدباء ١٤/٧٣ وطبعت الرسالة ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن

(٤) طبقات الشافعية ٣/١١٤

(٥) تنشره وزارة الثقافة والإرشاد القومى

(٦) ألف الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ كتابه إعجاز القرآن بين فيه وجوه الإعجاز التى يعتقدها هو وأصحابه الأشاعرة وردها إلى أسباب منها النواحى البلاغية المتصلة بالنظم أو التعبير ، وقد طبع كتابه مرات .

ما ألفه سابقوه ، وتأثر بما كتبه عبد القاهر الجرجانى (٤٧١ هـ) فى كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) .

وكان من آثارهذا أنه عنى بعلوم البلاغة ، وبخاصة المعانى والبيان ، وكشف عن كثير من ألوانهما فى الآيات القرآنية ، وجلا أسرار مافيها من روعة وجمال ، ليبين سر الإعجاز .

وقد نبه على هذه النزعة فى مقدمة الكشاف ، فقال : إن طبقات العلماء تتساوى وتتدانى فى متن كل علم وعمود كل صناعة ، ولكنهم يتباينون ويتفاضلون فى إدراك مافى العلوم والصناعات من محاسن النكت ، ولطائف المعانى ، وغوامض الأسرار .

ثم قال إن علم التفسير حافل بما يغمر القرائح ، ويبهر الألباب ، من غرائب النكت ودقائق الأسرار ، ولهذا لا يستطيع أن يجيل النظر فيه كل ذى علم ، كما ذكر الجاحظ فى كتاب نظم القرآن ، فالفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا فى صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار ، والواعظ الخلاب ، والنحوى المدقق ، واللغوى المتعمق ، لا يتصدى أحد منهم لسلوك تلك الطرائق ، إلا إذا كان بارعا فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان ، متمهلا فى ارتيادهما والتنقير عنهما ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، كثير التحقيق والحفظ[1] .. إلخ .

وتلاحظ أنه فرق بين علمى البيان والمعانى فى قوله[2] : « لا يتصدى منهم

---

(١) المقدمة ٣

(٢) أطلق ابن المعتز وقدامة بن جعفر وأبو هلال العسكرى وابن رشيق كلمة البديع على مباحث علم البيان ، فجعلوا من البديع الاستعارة والمجاز والكناية والتعريض ، وهم لا يريدون علم البديع ، بل يريدون الطريف الجميل . وكذا عبد القاهر فى أسرار البلاغة إذ قال فى صفحة ١٣ «وأما التطبيق (الطباق) والاستعارة وسائر أقسام البديع ... الخ

أحد لسلوك تلك الطرائق ... إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعانى وعلم البيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة ، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة»

وذكر هذه التفرقة فى مقدمة كتابه (أعجب العجب فى شرح لامية العرب) وفى مقدمة كتابه (أساس البلاغة)[1] .

والحق أن عبد القاهر الجرجانى كان يريد بالنظم علم المعانى أى الأسلوب ، وكان قد ردد فى كتابه أسرار البلاغة كلمة البيان ، فجاء الزمخشرى وأطلق علم المعانى وعلم البيان على ما يطلقان عليه اليوم ، وبهذا فصل العلمين بعضهما عن بعض .

أما علم البديع فهو فى رأى الزمخشرى تابع للمعانى والبيان ، وليس علما قائما بذاته .

وقد تأثر السكاكى (٦٢٦ هـ) برأى الزمخشرى ، ففصله ودلل عليه ، وفضله على غيره من الآراء[2] فقال : إن السبب فى الإعجاز هو مايجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة ، ولا طريق لك إلى هذا الأمر إلا طول خدمة هذين العلمين — المعانى والبيان — بعد فضل إلهى من هبة يهبها بحكمته من يشاء ، وهى النفس المستعدة لذلك ، فكل ميسر لما خلق له . ولا استبعاد فى إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه ، فلكم سحبنا

---

(١) أما قوله بعد تفسير الآية الكريمة (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) هذا من الصنعة البديعية التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقفى بأشكال لها وأخوات ، وهو المجاز المرشح (الكشاف ١/٣٩) فإنه لا يريد بالصنعة البديعة علم البديع كما فهم بعض الدارسين .

(٢) أرجع الرمانى وجوه الإعجاز إلى سبعة : الأول ترك المعارضة مع توافر الدواعى وشدة الحاجة ، والثانى التحدى للكافة ، والثالث الصرفة ، والرابع البلاغة ، والخامس الأنباء الصادقة عن الأمور المستقبلة ، والسادس نقض العادة ، والسابع قياس القرآن بكل معجزة [النكت فى إعجاز القرآن] وردها الباقلانى إلى ثلاثة الإنباء بالأمور الغيبية ، والقصص الدينية وأخبار الأنبياء ، والمناحى البلاغية المتصلة بالنظم (إعجاز القرآن)

الذيل فى إنكاره ، ثم ضممنا الذيل ما إن ننكره ، فلله الشكر على جزيل ما أولى ، وله الحمد فى الآخرة والأولى[1] .

وقال : ولا سبيل إلى إدراك هذه البلاغة وهذا الإعجاز إلا بالذوق والتشبع من علمى البيان والمعانى ، وإماطة اللثام عن الأسرار البلاغية لجلائها ، أما نفس وجه الإعجاز فلا يدرك[2] .

ثم تأثر به يحيى بن حمزة العلوى (٧٤٩ هـ) فقال فى مقدمة كتابه (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز): إن الباعث على تأليف كتابه هو أن جماعة من الإخوان شرعوا فى قراءة كتاب الكشاف تفسير الشيخ العالم المحقق أستاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشرى، فإنه أسسه على قواعد هذا العلم ، فاتضح عند ذلك وجه الإعجاز من التنزيل ، وعرف من أجله وجه التفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل، وتحققوا أنه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بإدراكه والوقوف على أسراره وأغواره، ومن أجل هذا الوجه كان متميزا عن سائر التفاسير ، لأنى لم أعلم تفسيرا مؤسسا على المعانى والبيان سواه ، فسألنى بعضهم أن أملى فيه كتاباً يشتمل على التهذيب والتحقيق ، فالتهذيب يرجع إلى اللفظ ، والتحقيق يرجع إلى المعانى ، إذ كان لا مندوحة لأحدهما عن الثانى[3] .

وبحسب الزمخشرى من التقدير أن ابن خلدون أرجع تفوق المشارقة على المغاربة فى الدراسات البلاغية إلى أن المشرق أوفر عمرانا من المغرب، وإلى عناية العجم — وهم معظم أهل المشرق — بعلوم البلاغة وبخاصة المعانى والبيان، كما صنع الزمخشرى فى تفسيره لأنه كله مبنى على البلاغة ، وهو أصل لها .

(١) مفتاح العلوم ٢٤٣
(٢) مفتاح العلوم ١٩٦
(٣) الطراز ١/٥

ثم قال: واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هى فى فهم الإعجاز من القرآن . . . وأكثر تفاسير المتقدمين غُفْلٌ عنه، حتى ظهر الزمخشرى ووضع كتابه فى التفسير، وتتبع آى القرآن بأحكام هذا الفن، بما يبدى البعض من إعجازه، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير ، لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ، ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة ، مع وفور بضاعته من البلاغة[1] .

أما بعد فقد عرض الزمخشرى لمسائل بلاغية كثيرة فى توضيح وتفصيل وتجلية لأسرار الجمال ، وتنظير بآيات قرآنية أخرى ، وتمثيل بنصوص من الشعر البليغ والنثر الرائع .

ولست أريد استقصاء ما عرض له، بل أريد التمثيل ببعضه ، فمنه ما يتصل بعلم البيان ، ومنه ما يتصل بعلم المعانى .

(١) فى علم البيان

١ — التشبيه

عرض للتشبيه المفرد فى آيات كثيرة، منها قوله فى تفسير الآية الكريمة: « إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر »[2] : إنها ترمى بشرر عظيم كالقصور أو كالشجر الغليظ أو مثل القَصَر — على وزن سبب — وهى أعناق الإبل أو أعناق النخل ، كأنه جمال تضرب إلى الصفرة .

وفى شعر عمران بن حِطّان الخارجى :

دعتهم بأعلى صوتها ورمتهم   بمثل الجمال الصفر نزّاعة الشوى

(١) مقدمة ابن خلدون ١٢٦٥   (٢) سورة المرسلات ٣٢

وقال أبو العلاء :

حمراء ساطعة الذوائب فى الدجى ترمى بكل شرارة كطرافِ

فشبهها بالطراف وهو بيت الأدم فى العظم والحمرة، وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن، ولتبجحه توهم الزيادة ، فجاء فى صدر بيته بقوله حمراء ، توطئة لها، ومناداة عليها ، وتنبيها للسامعين على مكانها. ولقد عمى — جمع الله له عمى الدارين — عن قوله عز وعلا (كأنه جمالة صفر) فإنه بمنزلة قوله (كبيت أحمر) على أن فى التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيها من جهتين : من جهة العظم ، ومن جهة الطول فى الهواء ، وفى التشبيه بالجمال تشبيه من ثلاث جهات : من جهة العظم والطول والصفرة ، فأبعد الله إغرابه فى طرافه ، وما نفخ به شدقيه من استطرافه»(١) .

ولست أجد مبررا لهذه الحملة العنيفة على المعرى، لأنه شبه الشرارة الكبيرة بالخيمة، والقرآن الكريم شبه الشرر بالجمال أو بالشجر الغليظ أو بأعناق الإبل أو بجذوع النخل، وسواء أكان تشبيه المعرى جيدا أم غير جيد، فإنه لم يدّع أن تشبيهه يسامى تشبيه القرآن الكريم ، ولا يستطيع أحد أن يدعى له ذلك .

٢ — تشبيه التمثيل:

عرض له فى قوله تعالى :« أولئكَ الذين اشترَوُا الضلالةَ بالهدَى فما ربحتْ تجارتهُمْ ، وما كانوا مُهتدين . مثلهم كمَثَل الذى استوقدَ ناراً ، فلمّا أضاءتْ ماحولَه ذهبَ اللهُ بنورِهِمْ، وتركهُمْ فى ظلماتٍ لا يُبصِرُون ، صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهُمْ لا يَرْجعُون . أوْ كصَيِّبٍ منَ السماء فيه ظُلماتٌ ورَعدٌ وبرْقٌ ، يجعلون أصابعَهُمْ فى آذانِهمْ من الصَّواعق حَذَرَ الموْت،واللهُ مُحيطٌ بالكافرين(٢) » .

(١) الكشاف ٢/٥١٦ (٢) سورة البقرة ١٦—١٩

فقال : الصحيح الذى عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة ، لا يتكلف لواحد واحدٍ شيء يقدر شبهه به ، وهو القول الفحل والمذهب الجزل .

وبيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض لم يأخذ هذا بحجزة ذاك ، فتشبهها بنظائرها(١) ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى مثلها ، كقوله تعالى «مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا» (٢) الغرض تشبيه حال اليهود فى جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار فى جهله بما يحمل من أسفار الحكمة ، وتساوى الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ماسواها من الأوقار ، لايشعر من ذلك إلا بما يمر بدفتيه ـ بجانبيه ـ من الكد والتعب .

وكقوله تعالى : « واضرب لهم مَثَلَ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح (٣) » المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر .

فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد ، غير منوط بعضها ببعض ، ومُصيّرا شيئا واحدا . . فلا ، فكذلك لما وصف وقوع المنافقين فى ضلالتهم ، وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة ،شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها فى ظلمة الليل ، وكذلك من أخذته السماء فى الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق .

وذكر بعد ذلك أن التشبيه يجىء بأداة وبغير أداة .

(١) هذا هو التشبيه المتعدد
(٢) سورة الجمعة ٥
(٣) سورة الكهف ٤٥

وفى تعليقه على الآيات نفسها ما يدل على أن التشبيه التمثيلى ينطبق أيضا على تشبيه حال بحال، وهو ماسماه التمثيل[1] أو ضرب المثل ، لأن المثل يشمل الحال والصفة والقصة ؛ فإنه قال فى تفسير « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا » :

لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة فى الكشف وتتميما للبيان .

ولضرب العرب الأمثال،واستحضار العلماء المثل والنظائر، شأن ليس بالخفى فى إبراز خبيئات المعانى، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل فى صورة المحقق ، والمتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد،وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبىّ ، ولأمر ما أكثر الله فى كتابه المبين وفى سائر كتبه أمثاله ، وفشت فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء . قال الله تعالى : « وتلك الأمثالُ نضربُها للناس وما يعقلُها إلا العالمون[2] »

والمثل فى أصل كلامهم بمعنى المِثل وهو النظير ، يقال مثل ومثل ومثيل كشَبَه وشِبْه وشبيه[3].

فإن قلت : ما معنى مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ؟ وما مثل المنافقين ومثل الذى استوقد ناراً حتى شبه أحد المثلين بصاحبه ؟

قلت : قد استعير المثل استعارة الأسد للمقدام ، للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل: حالهم العجيبة الشأن كحال الذى استوقد ناراً، وكذلك قوله تعالى « مثل الجنة التى وعد المتقون » [4] .

أى وفيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة، ثم أخذ فى بيان عجائبها.

---

(١) ذكر فى شرحه لمقاماته صفحة ١٥٦ أن الذى يسمى تمثيلا نحو قوله تعالى (سنسمه على الخرطوم) مثلت حاله فى الذل والمهانة بحال الموسوم على أعز موضع منه
(٢) سورة العنكبوت ٤٣
(٣) الكشاف ١/٣٠ — ٣٣
(٤) سورة الرعد ٣٥

وقال فى تفسير قوله تعالى: « يوم نقول لجهنم هل امتلأت . وتقول هل من مزيد ؟ »[1] :

إن سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذى يقصد به تصوير المعنى فى القلب وتثبيته، وفيه معنيان : أحدهما أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها ، حتى لا يسعها شىء، ولا يزاد على امتلائها؛ لقوله تعالى : « لأملأنّ جهنم من الجِنّة والنّاس أجمعين »[2]

والثانى أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد[3] .

وقد فرق السكاكى بين التشبيه والتمثيل ، ورأى أن التمثيل هو ما كان وجهه وصفاً غير حقيقى ومنتزعاً من عدة أمور[4] .

٣ - الاستعارة

عرض للاستعارة، فقال فى تفسير الآية الكريمة : « أولئك الذين اشترَوُا الضلالةَ بالهدى » : إن الضلالة الجور عن القصد ، وفقد الاهتداء ، استعير للذهاب عن القصد فى الدين[5] .

وقال فى تفسير قوله تعالى: « ثمّ جعلناكمْ خلائفَ فى الأرض منْ بعدهم، لننْظر كيف تعْملون[6] » :

أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكناها ، لننظر أتعملون

---

(١) سورة ق ٣٠
(٢) سورة السجدة ١٣
(٣) الكشاف ٢/٢٠٥
(٤) مفتاح العلوم ١٨٥
(٥) الكشاف ١/٢٩
(٦) سورة يونس ١٤

خيراً أم شراً ، فنعاملكم على حسب أعمالكم ، والنظر هنا مستعار للعلم المحقق الذى هو العلم بالشىء الموجود ، شبه بنظر الناظر وعيان المعاين فى تحققه .

ويتضح من تعليقه على الآية الكريمة : « صُمٌّ بُكْمٌ عمى فهم لا يبصرون » أنه لا يطلق الاستعارة إلا على ما يصح أن تطلق عليه ، فلا بد فيها من حذف المشبه أو المشبه به ، لأنه يفترض سائلا يسأل : هل يسمى ما فى الآية استعارة ؟ .

ويجيب على هذا بأن الحكم مختلف فيه، ولكن المحققين على تسمية ما فى الآية تشبيها بليغاً لا استعارة، لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون ، والاستعارة إنما تطلب حيث يطوى ذكر المستعار له ، ويجعل الكلام خلوا عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه أو المنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام ، كقول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح مقذّف ... له لِبَدٌ أظفاره لم تُقَلَّم

وليس لقائل أن يقول : طوى ذكرهم عن الجملة بحذف المبتدأ، فأتسلق بذلك إلى تسميته استعارة ، لأنه فى حكم المنطوق به، نظيره قول من يخاطب الحجاج :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر

وعرض للاستعارة المكنية فى قوله تعالى: « وما يضِلُّ به إلا الفاسقين الذين يَنقُضون عَهْدَ اللهِ مِنْ بعدِ ميثاقه[1] » فقال: النقض الفسخ وفك التركيب، فإن قلت من أين ساغ استعماله فى إبطال العهد ؟ قلت : من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة ، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين . . . ومن أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشىء المستعار ثم يرمزوا إليه

(١) سورة البقرة ٢٧

بذكر شىء من روادفه ، فينبهوا بتلك الرَّمْزة على مكانه ، ونحوه قولك شجاع يفترس أقرانه ، وعالم يغترف منه الناس ، لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر[1] .

وتنبه إلى الترشيح فى الاستعارة فى تعقيبه على قوله تعالى: « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » فقال : إن قلت هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً فى معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح والتجارة ، كأن ثم مبايعة على الحقيقة ؟

قلنا : إن هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقفى بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقاً ، وهو المجاز المرشح . وذلك نحو قول العرب فى البليد : كأن أذنى قلبه خَطْلاوان — مسترخيتان — جعلوه كالحمار ، ثم رشحوا ذلك روما لتحقيق البلادة، فادعوا لقلبه أذنين ، وادعوا لهما الخطل — الاسترخاء — ليمثلوا البلادة تمثيلا يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معاينة . . . فكذلك لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكله ويواخيه وما يكمل ويتم بانضمامه إليه ؛ تمثيلا لخسارهم وتصويرا لحقيقته[2] .

كذلك عقب على الآية الكريمة : « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم » بأن النار يصح أن تكون مجازية كنار الفتنة والعداوة للإسلام ، ويصح أن تكون ناراً حقيقية أوقدها الغواة ليتوصلوا بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصى ، فأطفأها الله . وجاز فى النار المجازية أن توصف بإضاءة ما حول المستوقد على طريقة المجاز المرشح، فأحسن تدبره[3] .

(١) الكشاف ٤٨/١
(٢) الكشاف ٢٩/١
(٣) الكشاف ٣١/١

وقد تأثره السكاكى فى شرحه الاستعارة فى قوله تعالى : « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون[1] » وراد عليه أن الـكلام يحتمل أن يكون على الحقيقة[2] .

٤ — الـكناية

ذكر الـكناية ، وفرق بينها وبين التعريض[3] ، فالـكناية فى رأيه أن تذكر الشىء بغير لفظه الموضـــوع له ، كقولك طويل النجاد والحمائل لطويل القامة .

والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شىء لم تذكره ، ويسمى التلويح ، لأنه يلوح منه ما يريده[4] .

قال فى تفسير الآية الـكريمة : « ولا جُناح عليكم فيما عرّضتم به من خِطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم »[5] : هو أن يقول لها : إنك لجميلة ، أو صالحة ، أو نافعة ، ومن غرضى أن أتزوج ، وعسى الله أن ييسر لى امرأة صالحة . . . ولا يصرح بالنـكاح ... فإن قلت : أى فرق بين الـكناية والتعريض ؟

قلت : الـكناية أن تذكر الشىء بغير لفظه الموضوع له ، كقولك طويل النجاد والحمائل لطويل القامة ، وكثير الرماد للمضياف .

والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شىء لم تذكره ، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلم عليك ، ولأنظر إلى وجهك الـكريم ، ولذلك قالوا :

(١) سورة النمل ١١٢ والـكشاف ٥٣٧/١

(٢) مفتاح العلوم ٢٠١

(٣) جعل الزمخشرى كل نوع من هذه مستقلا عن الآخر ، على حين أن السكاكى أدخل فى الكناية التعريض والتلويح والإيماء (مفتاح العلوم ٢١٨)

(٤) الكشاف ١١١/١

(٥) سورة البقرة ٢٣٥

وحسبك بالتسليم منى تقاضياً .

وكأنه إمالة الـكلام إلى عُرْض يدل على الغرض ، ويسمى التلويح ، لأنه يلوح منه ما يريده[1] .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « الرَّحمٰنُ على العرش استوى[2] » :

لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك ، فقالوا استوى فلان على العرش ، يريدون مَلَكَ ، وإن لم يقعد على السرير البتة ، وقالوا أيضاً لشهرته فى ذلك المعنى ومساواته مَلَكَ فى مؤداه ، وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر[3] .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « وقالت اليهودُ يدُ الله مغلولة ، غُلّتْ أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداهُ مبسوطتان ، يُنفق كيف يشاء[4] » .

غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ، ومنه قوله تعالى : « ولا تجعل يدكَ مَغْلُولةً إلى عنقك ولا تَبْسُطْها كل البسط[5] » : ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط ، ولا فرق عنده بين هذا الـكلام وبين ما وقع مجازاً عنه ، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة ، حتى إنه يستعمله فى ملك لا يعطى عطاء قط ، ولا يمنعه إلا بإشارته ، من غـــير استعمال يده وبسطها وقبضها ، ولو أعطى الأقطع إلى المَنْكِب عطاء جزيلا لقالوا : ما أبسط يده بالنوال ، لأن

(١) الـكشاف ١١١/١

(٢) سورة طه ٥

(٣) الـكشاف ٣٠/٢

(٤) سورة المائدة ٦٤

(٥) سورة الإسراء ٢٩

بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود ، وقد استعملوهما حيث لا تصح اليد كقوله:

جاد الحمى بَسْط اليدين بوابل   شكرت نداه قلاعه ووهاده

ولقد جعل لبيد للشَّمال يداً فقال : إذ أصبحت بيد الشَّمال زمامها .

ويقال بسط اليأس كفيه فى صدرى ، فجعلت لليأس الذى هو من المعانى لا من الأعيان كفين. ومن لم ينظر فى علم البيان عجز عن تبصر محجة الصواب فى تأويل أمثال هذه الآية[1] .

وقال فى تفسير قوله تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان ونعلمُ ماتوسوسُ به نفسُه، ونحنُ أقرب إليه من حبْلِ الوريد[2]» : هذا مجاز ، والمراد قرب علمه منه ، وأنه يتعلق بأحواله تعليقاً لا يخفى عليه فيه شىء من خفياته ، فكأن ذاته قريبة منه، كما يقال الله فى كل مكان ، وقد جل عن الأمكنة[3] .

وقال فى تفسير الآية الكريمة: « إذا زُلزلت الأرضُ زلزالها ، وأخرجتِ الأرض أثقالها، وقال الإنسانُ : مالها ؟ يومئذٍ تحدِّث أخبارَها ، بأنَّ ربك أوْحى لها[4] »: فإن قلت ما معنى تحديث الأرض والإيحاء لها ؟

قلت : هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان ، حتى ينظر من يقول مالها إلى تلك الأحوال، فيعلم لم زلزلت، ولم لفظت الأموات ، وأن هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه .

وقيل ينطقها على الحقيقة ، وتخبر عما عمل عليها من خير وشر[5] .

وقال فى تفسير الآية الكريمة: « قالوا أضغاثُ أحلامٍ وما نحنُ بتأويل الأحلامِ بعالمين[6]» :

(١) الكشاف ١/٢٦٤   (٢) سورة ق ١٦
(٣) الكشاف ٢/٤٠٢   (٤) سورة الزلزلة ١ — ٥
(٥) الكشاف ٢/٥٥٦   (٦) سورة يوسف ٤٤

أضغاث الأحلام تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان ، وأصل الأضغاث ما جمع بين أخلاط النبات وحزمه ، والواحد ضِغْث ، فاستعيرت لذلك[1] .

وقال فى الأساس : الضغث القبضة من قضبان صغار أو حشيش بعضه فى بعض ، وضَغثه جعله أضغاثاً . ومن المجاز : هذه أضغاث أحلام ، وهى ما التبس منها ، ويقال للحالم : أضغثت الرؤيا : جئت بها ملتبسة . وضَغَث الحديث : خلطه[2] .

٥ — المجاز المرسل

هو كل كلمة استعملت فى غير معناها الأصلى بعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ، ومن علاقاته السببية والمسببية والجزئية والكلية والمحلية والحالية واعتبار ما كان واعتبار ما سيكون . وقد عرض الزمخشرى له فى كثير من الآيات .

قال فى تفسير قوله تعالى: « إنَّ السَّاعةَ آتيةٌ أكادُ أُخفيها ، لتُجزى كلُّ نفسٍ بما تسعى ،فلا يصدَّنك عنها من لا يُؤمنُ بها واتَّبع هواهُ فتَرْدى»[3] .

فإن قلت : العبارة لنهى من لا يؤمن عن صد موسى ، والمقصود نهى موسى عن التكذيب بالبعث ، أو أمره بالتصديق ، فكيف صلحت هذه العبارة لأداء المقصود ؟

قلت : فيه وجهان أحدهما أن فى صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب، فذكر السبب ليدل على المسبب، والثانى أن صد الكافر سبب عن رخاوة الرجل

(١) الكشاف ٢/٤٧٣   (٢) أساس البلاغة : مادة ضغث
(٣) سورة طه ١٥ — ١٦

فى الدين ولين شكيمته ، فذكر المسبب ليدل على السبب . كقولهم لا أرينك ها هنا ، المراد نهيه عن مشاهدته ، والحضور بمجلسه ، وذلك سبب رؤيته إياه ، فكان ذكر المسبب دليلا على السبب ، كأنه قيل فكن شديد الشكيمة حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالبعث أن يطمع فى صدك عما أنت عليه[1] .

وقال فى تفسير الآية الكريمة: « كلُّ شىءٍ هالكٌ إلا وجهَه[2] » : كل شىء هالك إلا إياه ، والوجه يعبر به عن الذات[3] .

وقال فى تفسير قوله تعالى: « كلُّ مَنْ عليها فانٍ ، ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلال والإكرام[4] »: المراد بالوجه الذات ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات، ومساكين مكة يقولون: أين وجه عربى كريم ينقذنى من الهوان[5] .

٦ — المجاز العقلى

هو إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى غير ما هو له، لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقى وهو يكون إلى سبب الفعل أو زمانه أو مكانه أو مصدره أو بإسناد المبنى للفاعل إلى المفعول أو المبنى للمفعول إلى الفاعل . وقد اعتمد الزمخشرى على هذا المجاز كثيرا فى تأويل الآيات المتصلة بحرية العباد واختيارهم وفقا لمذهب المعتزلة .

فقال فى الآية الكريمة : « يُضِلُّ به كثيراً ويَهدى به كثيراً »[6]: إن إسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب ، لأنه لما ضرب المثل فضلَّ به قوم واهتدى قوم تسبب لضلالهم وهداهم ، وعن مالك بن دينار رحمه الله أنه دخل على محبوس قد أخذ بمال عليه وقيد ، فقال : يا أبا يحيى أما ترى ما نحن فيه من القيود؟ فرفع مالك رأسه ، فرأى سلة ، فقال : لمن هذه السلة ؟

(١) الكشاف ٢/٢٢
(٢) سورة القصص ٨٨ (٣) الكشاف ٢/١٧٣
(٤) سورة الرحمن ٢٧ (٥) الكشاف ٢/٤٢٥
(٦) سورة البقرة ٢٦

فقال الرجل : لى . فأمر بها تنزل ، فإذا دجاج وأخبصة[1] ، فقال مالك : هذه وضعت القيود على رجلك[2] .

وقال فى تفسير قوله تعالى «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين[3] » أسند الخسران إلى التجارة ، وهو لأصحابها على طريقة الإسناد المجازى ، وهو أن يسند الفعل إلى شىء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له ، كما تلبست التجارة بالمشترين .

فإن قلت : هل يصح ربح عبدك وخسرت جاريتك إلى الإسناد المجازى؟ قلت: نعم إذا دلت الحال ، وكذلك الشرط فى صحة رأيت أسدا ، وأنت تريد المقدام ، إن لم تقم حال دالة لم يصح .

وقال فى تفسير قوله تعالى: « اللهُ يعلمُ ما تحمِلُ كلُّ أنثى . وما تغيضُ الأرحامُ وما تزدادُ ، وكلُّ شىءٍ عنده بمقدار »[4].

(ما) فى الأفعال الثلاثة : إما موصولة ، وإما مصدرية ، فإن كانت موصولة فالمعنى أنه يعلم ما تحمله من الولد على أى حال من ذكورة وأنوثة . . . ويعلم ماتغيضه الأرحام ، أى تنقصه ، يقال غاض الماء ، وغضته أنا ، ويعلم ماتزداده أى تأخذه زائدا ، ومنه قوله تعالى: « وازدادوا تسعا »[5].

وإن كانت مصدرية فالمعنى أنه يعلم حمل كل أنثى ، ويعلم غيض الأرحام وازديادها. ويجوز أن يراد غيض مافى الأرحام وزيادته ، فأسند الفعل إلى الأرحام ، وهو لما فيها[6].

(١) أخبصة : جمع خبيص وهو المعمول من السمن والتمر .
(٢) الكشاف ١/٤٧ (٣) سورة البقرة ١٦
(٤) سورة الرعد ٨ (٥) سورة الكهف ٢٥
(٦) الكشاف ١/٤٨٩

٢ — فى علم المعــانى

تناول كثيرا من موضوعات علم المعانى ، مثل :

١ — القصر

قال فى تفسيره لقوله تعالى: «وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون » (1) .

إنما القصر الحكم على شىء ، كقولك إنما ينطلق زيد ، أو لقصر الشىء على حكم كقولك إنما زيد كاتب ، ومعنى « إنما نحن مصلحون » أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قدح فيها (2) .

وقد رد الله عليهم أبلغ رد فى قوله: «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» لما فى ألا من التأكيد ، وتعريف الخبر ، وتوسيط الفصل — الضمير هم — .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » (3) . قدم المفعول لقصد الاختصاص ، كقوله تعالى : « قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون » (4) : والمعنى نخصك بالعبادة ونخصك بطلب المعونة .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » (5) . اختص هداهم بالاقتداء ، أى لا تهتد إلا بهم ، وهذا معنى تقديم المفعول ، والمراد بهداهم طريقهم فى الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع فإنها مختلفة (6) .

---

(1) سورة البقرة ١١ — ١٢ (2) الكشاف ١/٢٦
(3) سورة الفاتحة ٤ (4) سورة الزمر ٣٩
(5) سورة الأنعام ٩٠ (6) الكشاف ١/٣٠٠

وقال فى تفسير قوله تعالى: «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » (1) .

تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره ، وهذا معنى تقديم المفعول ، ألا ترى إلى قوله: « إلى ربك يومئذ المستقر » (2) .

و : « إلى ربك يومئذ المساق » (3) .

و : « إلى الله تصير الأمور » (4) .

و : « إلى الله المصير » (5) .

و : « إلى الله ترجعون » (6) .

و : « عليه توكلت وإليه أنيب » (7) .

كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص (8) .

٢ — الفصل والوصل

عرض لهما (9) ، فقال فى تفسير قوله تعالى: « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » : (10) الذى هو أرسخ فى البلاغة عرقا أن يضرب عن هذه المحال صفحا — يريد المحال النحوية — وأن يقال إن قوله (الم) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و: « ذلك الكتاب » جملة ثانية، و« لا ريب فيه »

---

(1) سورة القيامة ٢٢ (2) سورة القيامة ١٢
(3) سورة القيامة ٣٠ (4) سورة الشورى ٥٣
(5) سورة النور ٤٢ (6) سورة القصص ٧٠
(7) سورة هود ٨٨ (8) الكشاف ٢/٥٠٩
(9) اعتبرهما من علم البيان كما صرح بذلك فى الكشاف ١/٤٥٢
(10) سورة البقرة ١

ثالثة ، و « هدى للمتقين » رابعة . وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض (١) . . .

وقال فى تفسير الآية الكريمة: «قالوا إنّا معكم ، إنما نحن مُستهزِئون» (٢) :

الجملة الثانية توكيد للأولى ، لأن قولهم (إنا معكم) معناه الثبوت على اليهودية ، وقولهم (إنما نحن مُستهزئون) رد للإسلام ودفع له ، لأن المستهزئ بالشئ المستخف به منكر له ، أو بدل منه ، لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر ، أو استئناف كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم إنا معكم ، فقالوا : فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام ؟ فقالوا : إنما نحن مستهزئون (٣) .

فالفصل هنا سببه أن الجملة الثانية مؤكدة للأولى ، أو بدل منها ، أو استئناف ، أو بيان لها ، أو جواب عن سؤال مقدر ، وهذه الأسباب هى التى يسميها علماء البلاغة الفصل لكمال الاتصال أو لشبه كمال الاتصال .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه هُدًى للمتقين ، الذين يُؤْمنون بالغيبِ ويُقيمونَ الصلاةَ ومما رزقناهم يُنفقون ، والذين يُؤْمنونَ بما أُنزل إليكَ وما أُنزِل من قبلك وبالآخرةِ هم يُوقنون » (٤) :

فإن قلت « والذين يؤمنون » أهم غير الأولين ؟ أم هم الأولون؟ وإنما وسط العاطف ، كما يوسط بين الصفات فى قولك هو الشجاع والجواد وفى قوله :

إلى الملك القَرْمِ وابن الهُمام ... ولَيْث الكتيبة فى المُزْدَحَمْ

(١) الكشاف ١/١٦
(٢) سورة البقرة ١٥
(٣) الكشاف ١/٢٨
(٤) سورة البقرة ٢ — ٤

قلت : يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه ، فيكون المعطوف غير المعطوف عليه ، ويحتمل أن يراد وصف الأولين ، ووسط العاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه (١) .

٣ — التوكيد

قال فى تفسير قوله تعالى: « واضرب لهم مثلاً أصحابَ القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ، فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مثلُنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ، إن أنتم إلا تكذبون ، قالوا ربُّنا يعلَمُ إنّا إليكم لمرسلون » (٢) .

فإن قلت : لم قيل « إنا إليكم مرسلون » أولا و « وإنا إليكم لمرسلون » آخرا؟ قلت : لأن الأول ابتداء إخبار ، والثانى جواب عن إنكار ، وقوله « ربنا يعلم » جارٍ مجرى القسم فى التوكيد (٣) .

والمعروف فى علم المعانى أن الخبر إن كان لخالى الذهن لا يؤكد ، فإن كان لشاك أكد بمؤكد واحد ، فإن كان لمنكر أكد بمؤكدين أو أكثر .

فهل أراد الزمخشرى بالخبر الأول أنه لخالى الذهن ؟ لا ، لأن المرسل إليهم كانوا فى شك من صدق الرسل ، ولكنه أراد بقوله إن الأول ابتداء إخبار أى بالنسبة لهؤلاء الشاكين .

٤ — التقديم والتأخير

قال فى تفسير الآية الكريمة: « قل أغيرَ الله أتّخذُ وليًّا » (٤) .

(١) الكشاف ١/١٨
(٢) سورة يس ١٣ — ١٦
(٣) الكشاف ٢/٢٤٩
(٤) سورة الأنعام ٩

إن «غير الله» وليت همزة الاستفهام دون الفعل (أتخذ) لأن الإنكار فى اتخاذ غير الله وليا ، لا فى اتخاذ الولى ، فكان أولى بالتقديم (١) .

ونحوه: «أفغيرَ الله تأمرونّى أعبدُ أيها الجاهلون» (٢)

فالتقديم هنا للاهتمام بنفى المقدم :

وقال فى قوله تعالى: «ذلك الكتاب لاريب فيه» (٣) : لم يقدم الظرف على الريب كما قدم على الغول فى قوله تعالى: «لا فيها غَوْلٌ ، ولاهم عنها يُنزَفون» (٤) . لأن القصد فى إيلاء الريب حرف النفى نفى الريب عنه ، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدعون ، ولو جاء الظرف بعد حرف النفى لبعد النفى عن المراد ، وهو أن كتابا آخر فيه الريب لا هذا الكتاب ، كما قصد فى قوله «لافيها غول» تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هى ، كأنه قيل ليس فيها ما فى غيرها من هذا العيب والنقيصة» (٥) .

وقال فى تفسير قوله تعالى: «وظنوا أنهم مانِعَتُهُمْ حصونُهُمْ من الله» (٦) :

إن الفرق بين ظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم ، وبين النظم الذى جاء عليه أن فى تقديم الخبر على المبتدأ دليلا على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعتها إياهم ، وفى تصيير ضميرهم اسماً لأن ، وإسناد الجملة إليه ، دليل على اعتقادهم فى أنفسهم أنهم فى عزة ومنعة لا يبالون معها بأحد يتعرض لهم ، وليس ذلك فى قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم (٧) .

(١) الكشاف ١/٢٨٥ (٣) سورة البقرة ٢
(٢) سورة الزمر ٣٩ (٥) الكشاف ١/١٥
(٤) سورة الصافات ٤٧ (٧) الكشاف ٢/٤٤٥
(٦) سورة الحشر ٢

٥ — الحذف

قال فى تفسير قوله تعالى: «فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون (١)» :

إن مفعول تعلمون متروك ، كأنه قيل وأنتم من أهل العلم والمعرفة ، والتوبيخ فيه أوكد ، أى أنتم العرافون ، المميزون ، ثم إن ما أنتم عليه فى أمر ديانتكم من جعل الأصنام لله أنداداً هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل. ويجوز أن يقدر وأنتم تعلمون أنه لا يماثل ، أو وأنتم تعلمون مابينه وبينها من التفاوت ، أو أنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله ، كقوله: «هل من شركائكم من يَفْعَلُ من ذلكم من شىء» (٢) .

وقال فى تفسير قوله تعالى «والضحى والليل إذا سجى ، ما ودّعك ربك وما قلَى (٣)» :

حذف الضمير من قلى كحذفه من «والذاكرين الله كثيراً والذاكرات (٤)» .

يريد والذاكراته ، ونحوه فآوى ، فهدى ، فأغنى ، وهو اختصار لفظى لظهور المحذوف (٥) .

٦ — الالتفات

عرض للالتفات (٦) ، فقال فى الآية الكريمة: «إياك نعبدُ وإياك نستعين» فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب ؟

(١) سورة البقرة ٢٢ (٢) الكشاف ١/٣٨
(٣) سورة الضحى ١ (٤) سورة الاحزاب ٣٣
(٥) الكشاف ٣/٥٤٩
(٦) اعتبر الالتفاف من علم البيان واعتبره البلاغيون بعده من علم المعانى

قلت: هذا يسمى لالتفات فى علم البيان، وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: «حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم[١]»، وقوله تعالى: «والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه[٢]».

وقد التفت امرؤ القيس ثلاثة التفاتات فى ثلاثة أبيات:

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلى ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة كليلة ذى العائر الأرمد[٣]

وذلك من نبأ جاءنى وخبرته عن بنى الأسود

وذلك على عادة افتنانهم فى الكلام، وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد. وقد تختص مواقعه بفوائد، ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة به فى المهمات، فخوطب ذلك المعلوم، المتميز بتلك الصفات، فقيل إياك يامن هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك، ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذى لا تحق العبادة إلا به[٤].

ومما يدل على تأثر السكاكى بالزمخشرى أنه عرف الالتفات بأنه نقل الكلام من الحكاية والتكلم والخطاب والغيبة إلى واحد منها، وقال إن العرب يستكثرون منه، ويرون أن الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب

(١) سورة يونس ٢٢ (٢) سورة فاطر ٩

(٣) العائر: كل ما أمرض العين والرمد والبثر فى الجفن الأسفل.

(٤) الكشاف ١/٨

أدخل فى القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأ فى استدرار إصغائه، وهم أحرياء بذلك ... ثم ذكر عدة أمثلة ختمها بأبيات امرىء القيس الثلاثة التى ذكرها الزمخشرى.

ثم عقب بما يقطع بأنه نقل عن الزمخشرى إذ قال: وهذا النوع قد تختص مواقعه بلطائف معان قلما تتضح إلا لأفراد بلغائهم، أو للحذاق المهرة فى هذا الفن، ومتى اختص موقعه بشىء من ذلك كساه فضل بهاء ورونق، وأورث السامع زيادة هزة ونشاط ... أصغ إلى قوله تعالى: «إياك نعبد وإياك نستعين» بعد تلاوتك لما قبله، لتعلم ما موقعه، وكيف أصاب المحز، وطبق مفصل البلاغة، لكونه منبهاً على أن العبد المنعم عليه بتلك النعم العظام الفائتة للحصر إذا قدر أنه ماثل بين يدى موليه، من حقه إذا أخذ فى القراءة أن تكون قراءته على وجه يجد معها نفسه شبه محرك إلى الإقبال على من يحمد[١].

٧ — التعبير بالمضارع عن الماضى

قال فى تفسير قوله تعالى: «والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً، فسقناه إلى بلد ميت، فأحيينا به الأرض بعد موتها، كذلك النشور»[٢].

فإن قلت لم جاء «فتثير» على المضارعة دون ماقبله وما بعده؟

قلت: ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه تميز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك، كما قال تأبط شرا:

بأنى قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان[٣]

(١) مفتاح العلوم ١٠٧.

(٢) سورة فاطر ٩.

(٣) الغول: حيوان خرافى. سهب: فلاة. صحصحان: أرض مستوية.

فأضربُها بلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ صريعاً لليدين وللجران (١)

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التى تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياها، ويطلعهم على كنهها، مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدة. وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها، لما كان من الدلائل على القدرة الباهرة قيل (فسقناه) (وأحيينا) معدولا بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدل عليه(٢).

وقد نقل السكاكى ماقاله الزمخشرى تعقيباً على هذه الآية (٣).

٨ — التعبير بالماضى عن المستقبل

قال فى تفسير الآية الكريمة: « أَتَى أمرُ اللهِ فلا تَستَعْجِلوه (٤) »: إنهم كانوا يستعجلون ماوعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم، فقيل لهم « أتى أمر الله » الذى هو بمنزلة الآتى الواقع، وإن كان منتظراً لقرب وقوعه (٥).

وقال فى الآية الكريمة: «ويوم يُنفَخُ فى الصُّورِ فَفَزِعَ من فى السموات ومَن فى الأرض إلا مَن شاء الله(٦)»: إنه عبر بالماضى لنكتة، وهى الإشعار بتحقق الفزع وثبوته، وأنه كائن لامحالة واقع على أهل السموات والأرض، لأن الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به، والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون (٧).

---

(١) الجران: مقدم عنق البعير.
(٢) الكشاف ٢/٢٣٩
(٣) مفتاح العلوم ١٣٣
(٤) سورة النحل ١
(٥) الكشاف ١/٥١٩
(٦) سورة النمل ٨٧
(٧) الكشاف ٢/١٥٣

٩ – الجملة الاسمية والفعلية

ذكر أن الجملة الاسمية والفعلية تدل على الدوام والاستمرار، والجملة الفعلية تدل على التجدد.

قال فى تفسير الآية الكريمة: « يا أيها الناس اتقوا ربكم، واخشوا يوما لايَجْزِى والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئا »(١): إن الجزء الثانى من الآية وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه الجزء الأول، لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية، والسبب فى مجيئه على هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين، وعِلْيَتُهُمْ قبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلى، فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم أن ينفعوا آباءهم فى الآخرة، وأن يشفعوا لهم، وأن يغنوا عنهم من الله شيئا، فلذلك جىء به فى الطريق الآكد (٢).

وقال فى تفسير الآية الكريمة: « وإذا خلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، الله يستهزىء بهم (٣) »:

فإن قلت: فهلا قيل: الله مستهزىء بهم طبقا لقوله إنما نحن مستهزئون؟

قلت: لأن يستهزىء يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتاً بعد وقت، وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم (٤).

---

(١) سورة لقمان ٣٣
(٢) الكشاف ٢/١٩٩
(٣) سورة البقرة ١٥
(٤) الكشاف ١/٢٨.

٣ – فى علم البديع

١ – الجناس :

قال فى تفسير قوله تعالى : « وجئتك من سَبَإٍ بنَبَإٍ يقين »[١] : إن هذا من جنس الكلام الذى سماه المحدَثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذى يتعلق باللفظ ، بشرط أن يجىء مطبوعا ، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام ، يحفظ معه صحة المعنى وسداده .

ولقد جاء هاهنا زائدا على الصحة ، فحَسُن وبدُع لفظا ومعنى . ألا ترى أنه لو وضع مكان (بنبأ) بخبر لكان المعنى صحيحا ، ولكنه كما جاء أصح ، لما فى النبأ من الزيادة التى يطابقها وصف الحال [٢] .

وقال فى تفسير الآية الكريمة «وقيل ياأرضُ ابلعى ماءكِ وياسماء أقلِعِى »[٣] : إن علماء البيان استفصحوا هذه الآية ، ورقصوا لها رءوسهم ، لا لتجانس الكلمتين وهما ابلعى وأقلعى ، وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن فهو كغير الملتفت إليه بإزاء المحاسن التى هى اللب وما عداها قشور ، وقد بين محاسن الآية [٤] .

٢ – الطباق :

فى الآية الكريمة : « ألاَ إنهم همُ السفهاء ولكن لا يعلمون[٥] » ذكر السفه وهو الجهل ، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقا له [٦] .

(١) سورة النمل ٢٢ (٢) الكشاف ٢/١٤٢
(٣) سورة هود ٤٤ (٤) الكشاف ١/٤٤١
(٥) سورة البقرة ١٣ (٦) الكشاف ١/٢٧

٣ – تأكيد المدح بما يشبه الذم :

قال فى تفسير قوله تعالى : « وما نقموا منهم إلا أن يُؤمِنوا بالله العزيز الحميد »[١] : وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان ، كقوله :

ولا عَيبَ فيهم غير أن سيوفهم   بهنّ فُلولٌ من قِراع الكتائبِ

وقال ابن الرقيات :

وما نقموا من بنى أمية إلا   أنهم يحلمون إن غضبوا [٢]

٤ – اللف والنشر :

هو ذكر متعددٍ على التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكر ما لكل واحد من آحاد هذا المتعدد من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرد كل شىء إلى ما هو له ، معتمداً على قرينة لفظية أو معنوية .

ذكر عند تفسير قوله تعالى : « شَهرُ رمضانَ الذى أُنزِلَ فيهِ القرآنُ هُدًى للنَّاسِ وبيِّناتٍ منَ الهُدَى والفُرقانِ ، فمن شَهِدَ منكمُ الشَّهرَ فَليَصُمْهُ ، ومَنْ كان مريضاً أو على سفرٍ فعِدَّةٌ من أيامٍ أُخَرَ ، يُريدُ اللهُ بكمُ اليُسْرَ ، ولا يريدُ بكمُ العُسْرَ ، ولِتُكمِلُوا العِدَّةَ ، ولِتُكبِّرُوا اللهَ على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون »[٣] :

إن قوله تعالى (لتكملوا) علة الأمر بمراعاة العدة ، و (لتكبروا) علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر ، و (لعلكم تشكرون) علة الترخيص والتيسير ، وقال إن هذا نوع من اللف لطيف المسلك ، لا يكاد يهتدى إلى تبيينه إلا النقَّاب المحدث من علماء البيان [٤] .

(١) سورة البروج ٨
(٢) الكشاف ٢/٥٣٥
(٣) سورة البقرة ١٨٥
(٤) الكشاف ١/٨٩

٥ — المشاكلة

هى ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، نحو قول الشاعر .

قالوا اقترح شيئا نُجِدْ لك طبخه   قلت اطبخوا لى جُبَّةً وقميصا

أى خيطوا ، وذكر خياطة الجبة بلفظ الطبخ لوقوعها فى صحبة طبخ الطعام . ومنه قوله تعالى : « تَعْلَمُ ما فى نفسى ولا أعلم مافى نفسك » حيث أطلق النفس على ذات الله تعالى ، لوقوعه فى صحبة نفسى .

وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره للآية الكريمة : « إن الله لا يَسْتَحِى أن يَضْرِبَ مثلاً مَّا بعوضةً فما فوقها » (١) أنه يجوز أن يقول الكفرة : أما يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ؟ فجاءت على سبيل المقابلة ، وإطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلامهم بديع ، وطراز عجيب ، منه قول أبى تمام :

مَنْ مبلغٌ أفناءَ يَعْرُبَ كلها   أنى بَنَيْتُ الجارَ قَبْلَ المنزلِ

وشهد رجل عند شُرَيْح فقال : إنك لسَبْط الشهادة ، فقال الرجل : إنها لم تَجْعَدْ عنى : فقال لله بلادك ، وقبل شهادته . فالذى سوغ بناء الجار ، وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة ، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار ، ولولا سبوطة الشهادة لامتنع تجعيدها . ولله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشُعَبِها ، لا تكاد تستغرب منها فنًّا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه ، وأسد مدارجه (٢) .

وقال فى تفسير الآية الكريمة : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » (٣) :

(١) سورة البقرة ٢٦
(٢) الكشاف ١/٤٥
(٣) سورة المائدة ١١٦

المعنى تعلم معلومى ، ولا أعلم معلومك ، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة ، وهو من فصيح الكلام وبيِّنه (١) .

وقد نقل كلام الزمخشرى بهاء الدين السبكى فى كتابه (عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح) (٢) .

(١) الكشاف ١/٢٨١
(٢) شروح التلخيص ٤/٣١٢

ثامنًا - تعليل وتمحيص

١ — تآزرت عوامل متعددة مكنت للزمخشرى أن يبرع فى تعليله ، فهو معتزلى ذكى ممن مرنوا على الجدل والمحاجة ، واستكناه ما وراء الظواهر ، وهو أديب ذواقة ، قدير على التعبير عما يختلج بنفسه ، وهو إلى هذا كله غيور على الإسلام ، غيور على القرآن ، لا يألو جهدا فى الدفاع عنهما ، ولا يدع تعليلا موصولا بتفسير الآية أو تأويلها إلا ذكره .

من ذلك أنه عند تفسيرقوله تعالى فى وصف أهل الجنة: « كلما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا : هذا الذى رُزِقْنا من قَبْلُ ، وأُوتوا به مُتشابهاً ، ولهم فيها أزواجٌ مطهرة ، وهم فيها خالدون » (١) .

قال : فإن قلت : لأى غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة؟ وما بال ثمر الجنة لم يكن أجناسا أخر ؟

قلت : لأن الإنسان بالمألوف آنس ، وللمعهود أميل ، وإذا رأى مالم يألف نفر عنه طبعه ، وعافته نفسه ، ولأنه إذا ظفر بشىء من جنس ما سلف له به عهد، وتقدم له معه إلف ، ورأى فيه مزية ظاهرة ، وفضيلة بينة ، وتفاوتا بينه وبين ماعهد ، أفرط ابتهاجه واغتباطه ، وطال استعجابه واستغرابه ، وتبين كنه النعمة فيه ، وتحقق مقدار الغبطة به . وإن كان جنسا لم يعهده — وإن كان فائقا — حسب أن ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك ، فلا يتبين موقع النعمة حق التبيُّن .

(١) سورة البقرة ٢٥

وترديدهم هذا القول ونطقهم به عند كل ثمرة يرزقونها ، دليل على تناهى الأمر ، وتمادى الحال فى ظهور المزية وتمام الفضيلة، وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذى يستملى تعجبهم ، ويستدعى تبجحهم فى كل أوان (١) .

وفى تفسير قوله تعالى : « هل يَنظرُونَ إلا أنْ يأتِيَهُمُ اللهُ فى ظُلَلٍ مِنَ الغمام (٢) » .

قال (٣) : فإن قلت: لم يأتيهم العذاب فى الغمام ؟ قلت: لأن الغمام مظنة الرحمة ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول ، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم ، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أسَرّ ، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير ؟

لذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظع ، لمجيئها من حيث يتوقع الغيث، ومن ثمة اشتد على المتفكرين فى كتاب الله قوله تعالى : « وبَدَا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (٤) » .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « يُوصِيكمُ اللهُ فى أولادكم ، للذكر مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْن (٥) » فإن قلت: هلا قيل للأنثيين مثل حظ الذكر ، أو للأنثى نصف حظ الذكر ؟

قلت : ليبدأ ببيان حظ الذكر لفضله ، كما ضوعف حظه لذلك ، ولأن قوله (للذكر مثل حظ الأنثيين)قصد إلى بيان فضل الذكر ، وقولك للأنثيين مثل حظ الذكر قصد إلى بيان نقص الأنثى، وما كان القصدمنه بيان فضل الذكر أدل على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره عنه ، ولأنهم كانوا يورثون الذكور

(١) الكشاف ١/٤٤
(٢) سورة البقرة ٢١٠ (٣) الكشاف ١/٩٩
(٤) سورة الزمر ٤٧ (٥) سورة النساء ١١

دون الإناث ، وهو السبب لورود الآية ، فقيل كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث ، فلا يتمادى فى حرمانهن مع إدلائهن من القرابة بمثل ما يدلى به الذكور [1] .

وقال عند تفسير قوله تعالى: «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم [2] » : لا تسبوا الآلهة الذين يدعون من دون الله ، فيسبوا الله ، ذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم [3] » لتنتهين عن سب آلهتنا ، أو لنهجون إلهك ، وقيل كان المسلمون يسبون آلهتهم ، فنهوا ، لئلا يكون سبهم سببا لسب الله سبحانه .

فإن قلت : سب آلهتهم حق وطاعة ، فكيف صح النهى عنه ، وإنما يصح النهى عن المعاصى ؟

قلت : رب طاعة علم أنها تكون مفسدة، فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهى عنها لأنها معصية ، لا لأنها طاعة ، كالنهى عن المنكر ، وهو من أجل الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر انقلب معصية ، ووجب الكف عنه كما يجب الكف عن المنكر .

فإن قلت : فقد روى عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا جنازة ، فرأى محمد نساء فرجع ، فقال الحسن : لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك فى ديننا .

قلت : ليس هذا مما نحن بصدده ، لأن حضور الرجال الجنازة طاعة ، وليس سببا لحضور النساء ، فإنهن يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا ، بخلاف سب الآلهة ، وإنما خيل إلى محمد أنه مثله حتى نبهه عليه الحسن [4] .

(١) الكشاف ١/١٩١ (٢) سورة الأنعام ١٠٨
(٣) سورة الأنبياء ٩٨ (٤) الكشاف ١/٣٠٥ .

٢ — وهو معتزلى يحتكم إلى العقل ، ويستند إلى التفكير فى تمحيص ماقرأ وما سمع ، فنفى رؤية الناس للجن ، ورفض الحسد على أنه قدرة من الحاسد على التأثير فى المحسود ، ولم يصدق السحر بمعنى التأثير فى المسحور ، وفق مايريده الساحر .

قال فى تفسير قوله تعالى : « يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم »[1] : ذلك دليل بين على أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس، وأن إظهارهم أنفسهم ليس فى استطاعتهم ، وأن زعم من يدعى رؤيتهم زور ومخرقة [2] .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « ومن شر حاسد إذا حسد»[3] : إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغى الغوائل للمحسود ، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده ، بل هو الضار لنفسه ، لاغتمامه بسرور غيره . وعن عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد.

ويجوز أن يراد بشر الحاسد إثمه وسماجة حاله فى وقت حسده وإظهاره أثره [4] .

وقال فى تفسير الآية الكريمة : « ومن شر النفاثات فى العقد »[5] :

النفاثات النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتى يعقدن عقدا فى خيوط، وينفثن عليها ويرقين ، والنفث النفخ مع ريق.

ولا تأثير لذلك ، اللهم إذا كان إطعام شىء ضار ، أوسقيه ، أو إشمامه ،

(١) سورة الأعراف ٢٧ (٢) الكشاف ١/٣٢٤
(٣) سورة الفلق ٥ (٤) الكشاف ٢/٥٦٨
(٥) سورة الفلق ٤

أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه . ولـكن الله قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذى يتميز به المتثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام ، فينسبه الحشوية والرعاع إليهن وإلى نفثهن ، والثابتون بالقول الثابت لايلتفتون إلى ذلك ، ولا يعبأون به .

فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن ؟

قلت فيها ثلاثة أوجه : أحدها أن يستعاذ من عملهن الذى هو صنعة السحر، أومن إثمهن فى ذلك . والثانى أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن ومايخدعن به من باطلهن . والثالث أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن . ويجوز أن يراد بهن النساء الـكيادات من قوله : « إن كيدهن عظيم »[1] ، تشبيها لـكيدهن بالسحر والنفث فى العقد ، أواللاتى يفتنّ الرجال بتعرضهن لهم، وعرضهن محاسنهن، كأنهن يسحرنهم بذلك[2] .

٣ — وكثيراً ما محص الأخبار والآراء التى ذكرها سابقوه تمحيصاً دالا على دقة نظره ، وحرصه على نقاء العقيدة وتصفيتها من شوائب الإسرائيليات والأساطير .

فسر قوله تعالى فى سورة يوسف : « ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه »[3] تفسيراً مفصلا انتهى إلى أنها همت بمخالطته وهم بمخالطتها ، لولا أن رأى برهان ربه .

ثم ذكر ما قاله سابقوه من المفسرين ، فقال إن بعضهم فسر همّ يوسف بأنه حل الهميان ، وجلس منها مجلس المجامع ، وبأنه حل سراويله ، وقعد بين

(١) سورة يوسف ٢٨ (٢) الكشاف ٢/٥٦٨
(٣) سورة يوسف ٢٤

شعبها الأربع ، وهى مستلقية على قفاها ، وفسر البرهان بأنه سمع صوتا إياك وإياها ، فلم يكترث له، فسمع ثانياً ، فلم يعمل به ، فسمع ثالثاً، فأعرض عنه ، فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضا على أنملته ، وقيل ضرب بيده فى صدره، فخرجت شهوته من أنامله ، وقيل كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولدا إلا يوسف، فإنه ولد له أحد عشر ولدا من أجل ما نقص من شهوته حين همّ .

وقيل صيح به يايوسف لا تكن كالطائر كان له ريش، فلما زنا قعد لاريش له ، وقيل زيدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها « وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين »[1] فلم ينصرف ، ثم رأى فيها « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا»[2] ، فلم ينته ، ثم رأى فيها « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله »[3] فلم ينجع فيه ، فقال الله لجبريل : أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة ، فانحط جبريل وهو يقول يايوسف أتعمل عمل السفهاء ، وأنت مكتوب فى ديوان الأنبياء ؟

وقيل رأى تمثال العزيز ، وقيل قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته ، وقالت: أستحى منه أن يرانا، فقال يوسف : استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا أستحيى من السميع البصير العليم بذات الصدور ؟

وعلق الزمخشرى على هذا بقوله : وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بَهْتُ الله تعالى وأنبيائه . وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم ـ بحمد الله ـ بسبيل .

(١) سورة الانفطار ١٠ (٢) سورة النساء ٣٢
(٣) سورة البقرة ٢٨١

ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه ، وذكرت توبته واستغفاره ، كما نعيت على آدم زلته ، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذى النون ، وذكرت توبتهم واستغفارهم .

كيف وقد أثنى الله عليه وسماه مخلصاً . فَعُلِمَ بالقطع أنه ثبت فى ذلك المقام الدَّحْض ، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم ، ناظرا فى دليل التحريم ووجه القبح ، حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين ، ثم فى القرآن الذى هو حجة على سائر كتبه ومصداق لها .

وقد استوفى القرآن الكريم قصته ، وضرب سورة كاملة عليها ، ليجعل له لسان صدق فى الآخرين ، كما جعله لجده الخليل إبراهيم عليه السلام ، وليقتدى به الصالحون فى العفة وطيب الإزار ، والتثبت فى مواقف العثار . فأخزى الله أولئك فى إيرادهم ما يؤدى إلى أن يكون إنزال الله السورة ليقتدى بنبى من أنبياء الله فى القعود بين شعب الزانية ، وفى حل تِكَّته للوقوع عليها ، وفى أن ينهاه ربه ثلاث كَرَّات ، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات ، بقوارع القرآن ، وبالتوبيخ العظيم ، وبالوعيد الشديد ، وبالتشبيه بالطائر الذى سقط ريشه حين سفد غير أنثاه ، وهو جاثم فى مَرْبَضِه لا ينتهى ولا ينتبه حتى يتداركه الله بجبريل وبإجباره .

ولو أن أوقح الزناة ، وأحدقهم حدقة ، وأجلحهم وجها ، لُقِيَ بأدنى مالقى به نبى الله مما ذكروا لما بقى له عرق ينبض ، ولا عضو يتحرك .

فياله من مذهب ما أفحشه ومن ضلال ما أبينه (١) .

كذلك استقبح ما ذكروه عن تعلق داود عليه السلام بامرأة ، وذكر أن

(١) الكشاف ١/٤٦٥

على بن أبى طالب قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مئة وستين جلدة ، وهو حد الفِرْية على الأنبياء (١) .

وعلق على ما يروى فى الحديث : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد ، فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه ، إلا مريم وابنها » فقال : الله أعلم بصحته ، وإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان فى إغوائه ، إلا مريم وابنها كانا معصومين ، وكذلك كل من كان فى صفتهما ، لقوله تعالى : « ولأُغْوِيَنَّهُم أجمعين إلا عبادك منهم المُخْلَصِين » (٢) .

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلاً ، ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخا وعياطا مما يبلونا من نخسه (٣) .

٤ — على أنه لم يسلم من أغلاط كان المفروض ألا يقع فيها كما وقع غيره ، وذلك أنه ذكر بعض الإسرائيليات بعد أن قدم لها أو عقب عليها ببطلانها ، ولكنه ذكر بعضها بغير أن يبدى رأيه فيها ، وكان المرجو منه أن يهملها إهمالا ، أو يذكرها على أنها من الأساطير .

قال فى تفسير الآية الكريمة : « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تَطْلُع على قوم لم نجعل لهم من دونها سِتْرا » (٤) : إن بعضهم قال : خرجت حتى جاوزت الصين ، فسألت عن هؤلاء ، فقيل إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ، فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى ، ومعى صاحب يعرف لسانهم ، فقالوا له : جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس ؟ فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة ، فغُشى علىّ ، ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هى فوقه كهيئة الزيت ، فأدخلونا سربا لهم ، فلما ارتفع النهار خرجوا

(١) الكشاف ٢/٢٢٩ (٢) سورة الحجر ٣٩ — ٤٠
(٣) الكشاف ١/١٤٢ (٤) سورة الكهف ٩٠

إلى البحر يصطادون السمك، ويطرحونه فى الشمس فينضج لهم[1] .

وعند تفسير قوله تعالى : « وقال فرعونُ يا أيها الملأُ ما علمتُ لكم من إله غيرى ، فأوْقِدْ لى ياهامان على الطين ، فاجعل لى صَرْحاً لعلِّى أَطَّلِع إلى إله موسى »[2] .

ذكر أنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال ، حتى اجتمع خمسون ألف بنّاء سوى الأتباع والأجراء ، وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير ، فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق ... فبعث الله جبريل عند غروب الشمس، فضربه بجناحه، فقطعه ثلاث قطع ، وقعت قطعة على عسكر فرعون ، فقتلت ألف ألف رجل...

ويروى فى هذه القصة أن فرعون ارتقى فوقه فرمى بنُشّابه إلى السماء ، فأراد الله أن يفتنهم ، فردت إليه ملطوخة بالدم ، فقال : قد قتلت إله موسى، فعندها بعث الله جبريل لهدمه ، والله أعلم بصحته[3] .

وفى تفسير قوله تعالى:«أو كَصَيِّبٍ من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق»[4] قال إن السحاب من السماء ينحدر ، ومنها يأخذ ماءه ، لا كزعم من يزعم أنه يأخذه من البحر، ويؤيده قوله تعالى: « ويُنَزِّلُ من السماء مِنْ جبالٍ فيها من بَرَدٍ »[5].

وذكر عند تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتَرْفَعُوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تَجْهَرُوا له بالقولِ كجهر بعضكم لبعض »[6] أن

(١) الكشاف ١/٥٧٧ (٢) سورة القصص ٣٨
(٣) الكشاف ٢/١٦٣
(٤) سورة البقرة ١٩
(٥) سورة النور ٤٣ والكشاف ١/٣٣
(٦) سورة الحجرات ٢

العباس بن عبد المطلب كان أجهر الناس صوتا ، ويروى أن غارة أتتهم يوما فصاح العباس : ياصباحاه ، فأسقطت الحوامل لشدة صوته .

وزعمت الرواة أن أبا عروة كان يزجر السباع عن الغنم،فيفتق مرارة السبع فى جوفه[1] .

وكلمة يروى فى الأخبار عن العباس ، وكلمة زعمت الرواة فى الإخبار عن أبى عروة،لا تعفيان الزمخشرى ، لأن هذا من الأساطير التى كان من واجبه أن يهملها ، إذ أنها من الاستطراد الذى لا علاقة له بتفسير الآية،أو يعقب عليها بنفيها .

(١) الكشاف ٢/٣٩٠

قيمة الكشاف وأثره

من هذه الجولة فى رحاب الكشاف يتبين أنه موسوعة فى التفسير حافلة بموضوعات كثيرة فى الاعتزال واللغة والنحو والبلاغة والأدب والفقه والقراءات، ومايتصل بها من تعليل وتدليل وتمحيص .

ويبدو أن الزمخشرى أعجب بتفسيره بعد إكماله، كما كان معجبا بأوائله التى أملاها على بعض المعتزلة ، فافتخر بقوله[1] :

وناهيك بالكشاف كنزا نضاره ... يعلم تمييز الجياد الصيارفا

وتخفق أوراق المصاحف هزة ... لهن معان يزدهين المصاحفا

فما فى بلاد الشرق والغرب ناقد ... يقلبها دهراً فيخرج زائفا

وكرر ثناءه على الكشاف فى قوله[2] :

إن التفاسير فى الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعمرى مثل كشافى

إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء والكشاف كالشافى

ولقد كان للكشاف دوى منذ ألفه صاحبه،ظهرت أصداؤه فى الثناء عليه آناء، كما ظهرت فى العناية به اختصاراً وتعليقا وردودا .

فمن الذين أثنوا عليه ابن خلدون ، إذ قسم كتب التفسير قسمين : نقلى مسند إلى الآثار المنقولة عن السلف ، وصنف آخر معتمد على اللغة والإعراب والبلاغة .

(١) ديوان الأدب ٧٨ (٢) بغية الوعاة ٣٨٨

ثم قال : ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشرى ، من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال فى العقائد، فيأتى بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة ، حيث تعرض له فى آى القرآن الكريم من طرق البلاغة ، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ، وتحذير للجمهور من مكامنه ، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة .

وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية ، محسنا للحجاج عنها ، فلا جرم أنه مأمون من غوائله ، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه فى اللسان[1] .

وعرض له مرة أخرى فأثنى عليه ، لتفوقه على غيره بالكشف عن الأسرار البلاغية ، ثم عقب بقوله: لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ، ولأجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة،مع وفور بضاعته من البلاغة .

فمن أحكم عقائد السنة ، وشارك فى هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه ، أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضر معتقده ، فإنه يتعين عليه النظر فى هذا الكتاب،للظفر بشىء من الإعجاز،مع السلامة من البدع والأهواء[2] .

ومنهم يحيى بن حمزة العلوى ، فقد ذكر فى مقدمة كتابه [الطراز] أن الباعث على تأليف كتابه هو أن جماعة من إخوانه قرأوا تفسير الشيخ العالم المحقق أستاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشرى ، الممتاز بأنه مؤسس على قواعد علم المعانى والبيان ، وتحققوا أنه لاسبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بإدراكه ، والوقوف على أسراره وأغواره ، ومن أجل هذا الوجه كان متميزا عن سائر التفاسير ، لأنى لم أعلم تفسيرا مؤسسا على المعانى والبيان سواه ، فسألنى بعضهم أن أملى فيه كتابا يشتمل على التهذيب والتحقيق ، فالتهذيب يرجع إلى

(١) مقدمة ابن خلدون ٩٩٨ . (٢) مقدمة ابن خلدون ١٢١٦

اللفظ ، والتحقيق إلى المعانى ، إذ كان لامندوحة لأحدهما عن الثانى [(١)].

ومن اختصروه البيضاوى بعد أن جرده من الاعتزال ، وقرر آراء أهل السنة ، ثم جاء النسفى فاختصر الكشاف وتفسير البيضاوى .

أما المعقبون عليه فكثير ، منهم أحمد بن محمد بن منصور الجذامى الإسكندرى المالكى قاضى الإسكندرية المشهور بأبى العباس ابن المنير ، كان إماما فى النحو والأدب والأصول والتفسير ، وله يد طولى فى علم البيان والإنشاء ، خطب بالإسكندرية ودرس فيها وناب فى الحكم بها ، ثم اشتغل بالقضاء . توفى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) وله مصنفات منها الانتصاف من صاحب الكشاف [(٢)] ، ناقش فيه الزمخشرى ، وعارضه ، ونصر مذهب أهل السنة على مذهب المعتزلة ، بدليل قوله : الحمد لله الذى أهّل عبده الفقير إلى التورّك عليه ، لأن آخذ من أهل البدعة بثأر أهل السنة ، فأصمى أفئدتهم من قواطع البراهين بمقدمات الأسنة [(٣)] .

ولكنه مع ذلك اعترف بفضل الزمخشرى فى الكشف عن وجوه إعجاز القرآن البلاغية التى تؤكد أنه كلام الله سبحانه [(٤)] .

ومنهم شرف الدين الحسن بن محمد الطيبى ٧٤٣ هـ (١٣٦١ م) فى كتابه (فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الريب) وقد ذكره ابن خلدون فى قوله : لقد وصل إلينا فى هذه العصور تأليفه الذى شرح فيه كتاب الزمخشرى ، وتتبع ألفاظه ، وتعرض لمذاهبه فى الاعتزال بأدلة تزيفها ، وتبين أن البلاغة إنما تقع فى الآية على مايراه أهل السنة لاعلى ما يراه المعتزلة ، فأحسن فى ذلك ماشاء ، مع إمتاعه فى سائر فنون البلاغة ، وفوق كل ذى علم عليم [(٥)] .

وهناك كثير غير هؤلاء [(٦)] .

---

(١) الطراز للعلوى ١/٥ (٢) بغية الوعاة ١٦٨ . (٣) هامش الكشاف ١/٣٩٩

(٤) هامش الكشاف ١/٥٧٢ (٥) مقدمة ابن خلدون ٩٩٩

(٦) كشف الظنون ٢/٣٠٩ — ٣١٦

الفصل السابع

فى بحر اللغة

تفوق الزمخشرى فى اللغة كما تفوق فى التفسير ، وقد تجلت عنايته باللغة وحقائقها ومجازاتها ونصوصها ونحوها فى تفسيره الكشاف .

ولكن له جهودا عظيمة أخرى فى اللغة العربية تتبين من مؤلفاته فيها ، حسبنا أن نذكر منها ما يأتى :

(١) أساس البلاغة

كان الخليل بن أحمد (١٨٠هـ) أول من دون معجما لغويا سماه كتاب العين ، جمع فيه كثيرا من ألفاظ اللغة ، ورتبها حسب مخارجها من الحلق فاللسان فالأسنان فالشفتين ، ووضع أحرف العلة فى آخر الكتاب ، وقد سمى كتابه العين ، لأنه بدأه بحرف العين .

ثم سار كثير من مؤلفى المعاجم على طريقة الخليل ، كما نجد فى البارع لأبى على القالى [(١)] (٣٥٦ هـ) وفى تهذيب اللغة الأزهرى (٣٧٠ هـ) وفى المحكم لابن سيده (٤٥٨ هـ) .

ولكن بعض اللغويين اتجهوا اتجاهين آخرين فى ترتيب المعاجم ، فألف الجوهرى (٣٩٨ هـ) « تاج اللغة وصحاح العربية » مراعيا فى ترتيب ألفاظه أواخر الكلمات ، كما فعل ابن منظور والفيروزابادى فيما بعد .

ورتب أحمد بن فارس (٣٩٠هـ) كتابه المجمل فى اللغة ، على أساس الحرف الأول والثانى والثالث ، غير أنه التزم فى ترتيبه الهجائى مابعد الحرف الأول من حروف

---

(١) بقيت منه نتف فى مكتبة باريس

الهجاء إلى أن يبلغ الياء ، ثم يعود فيذكر ما بعده من الهمزة إلى ذلك الحرف ، فمثلا عقد فصلا للراء ، ولكنه لم يذكر الراء مع الهمزة ثم مع الباء ثم مع التاء وهكذا ، بل ذكر الراء مع الزاى ، ومع السين ، ومع الشين ، ومع الصاد إلى الياء ، ثم عاد فذكر الراء مع الهمزة وما بعدها إلى الزاى .

طريقته

١ — ثم جاء الزمخشرى ، فألف كتابه أساس البلاغة على نهج هجائى أرق وأسهل من نهج ابن فارس ، إذ التزم الحرف الأول وما يليه من حروف الهجاء ، فعقد بابا للهمزة ، فرع منه الهمزة مع الباء (أب ، أبر ، أبس ، أبش ، أبص ، أبط وهكذا إلى أبى) وفرع منه الهمزة مع التاء (أتب ، أتم ، أتى) وفرع منه الهمزة مع الثاء (أثر ، أثف ، أثل أثم الخ) وفرع الهمزة مع الجيم (أج ، أجد ، أجر الخ) وفرع الهمزة مع الحاء ومع الخاء ومع الدال وهكذا ؛ وسار على هذا النهج فى كل حرف .

ولا شك أن هذا الترتيب الدقيق السهل جدير بقوله فى المقدمة : « وقد رتب الكتاب على أشهر ترتيب متداولا ، وأسهله متناولا ، يهجم فيه الطالب على طلبته موضوعة على طرف الثمام وحبل الذراع ، من غير أن يحتاج فى التنقير عنها إلى الإيجاف والإيضاع ، وإلى النظر فيما لا يوصل إلا بإعمال الفكر إليه ، وفيما دقق النظر فيه الخليل وسيبويه » .

٢ — شرح المعانى الحقيقية للكلمات ، وأضاف إلى هذه المعانى الاستعمالات المجازية ، فقال مثلا فى مادة ثقب : ثَقَبَ الشئ بالمثقب ، وثقب اللآل الدر ، ودر مُثَقَّبٌ ، وعنده دُرٌّ عذارى لم يثقبن ، وثقبن البراقع لعيونهن . . . .

ومن المجاز : كوكب ثاقب ودرى : شديد الإضاءة والتلألؤ ، كأنه يثقب الظلمة فينفذ فيها ويدرؤها ، وقد ثَقَبَ ثقوبا ، وكذلك السراج والنار ، وثقبتها وأثقبتها ، وأثقب نارك بثقوب ، وهو ماتثقب به من حُراق وبعر ونحوها . ورجل ثقيب وامرأة ثقيبة : مشبهان للهب النار فى شدة حمرتهما ، وفيهما ثقابة ، وحسب ثاقب : شهير ، ورجل ثاقب الرأى إذا كان جزلا نظارا ، وأتتنى عنك عين ثاقبة أى خبر يقين ، وثَقَبَ الطائر إذا حلق كأنه يثقب السكاك (الجو) وثقب الشيب فى اللحية أخذ فى نواحيها .

وقال فى مادة حلف : حلف بالله على كذا حَلْفا ، وهو حَلَّاف وحَلَّافة ، وحلف حَلْفَةَ فاجر ، وأُحْلُوفة كاذبة ، وحالفه على كذا ، وتحالفوا عليه واحتلفوا ، وحَلَّف خصمه وأَحْلَفَه ، واستحلفه القاضى .

ومن المجاز : بينهم حِلْفٌ أى عهد ، وهم حلفاء بنى فلان وأحلافهم ، وهذا حليفى ، وهو حليف الندى وحليف السَّهر ، وفلان محالف لفلان لازم له ؛ وسنان حليف ، ورجل حليف اللسان يوافق صاحبه على ما يريد لحدته كأنه حليفه ... الخ .

وقال فى مادة كبد : هو يأكل كبود الدجاج وأكبادها ؛ وكَبَدْتُهُ : أصبت كبده ؛ وكُبِدَ فلان فهو مكبود ، ورجل أكبد ؛ وأصابه الكُباد .

ومن المجاز : بلغ كبد السماء وكُبَيْداء السماء ، وتكبَّدت الشمس توسطت السماء ، وتكبَّدْت الفلاة : توسطتها ، وتكبَّد اللبن : خثر ، وفرس وجمل أكبد : واسع الجوف ناهد موضع الكبد ، وهو يبحث عن كبد الأرض وأكبادها : وهى معادنها ، ورمت إليه الأرض بأفلاذ كبدها : بكنوزها وذخائرها ، ووقع فى كَبَدٍ : فى مشقة ، وتقول للخصماء إنهم لفى كَبَدٍ من أمرهم ، وبعضهم يكابد بعضا ، والمسافر يكابد الليل إذا ركب هوله وصعوبته .

وقد يتعمق فيذكر مجاز المجاز ، كقوله فى مادة نطح : تناطحت الكباش وانتطحت ، ومن المجاز : تناطحت الأمواج والسيول ، وأصابه ناطح : أمر شديد ، وتطير من النَّطِيح والمناطح : وهو المستقبل مما يُزجَر . ومن مجاز المجاز : رجل نطيح : مشئوم .

وقوله فى مادة نطع : علىَّ بالسيف والنِّطع ، ومن المجاز : تنطع فى كلامه إذا تفصح فيه وتعمق . ومن مجاز المجاز تنطع الصانع : تَحَذَّق فى صناعته .

٣ — ذكر تصاريف الكلمات ومشتقاتها وجموعها ومزيداتها ومعانى كل منها ، مرتبا بعضها على بعض ، ومتدرجا بعضها وراء بعض ، وسلكها فى عبارات عدة تفصح عن معانيها ، وتميز مجازاتها من حقائقها ، سواء أكانت هذه العبارات شعرا أم نثرا ، قديمة أم محدثة ، وسواء أكانت من عصر الاحتجاج — من الجاهلية إلى القرن الثالث — أم مما بعده ، لأنه أراد أن يبين دلالات الكلمة فى نصوص بليغة ، وليس يعنيه أن تكون هذه النصوص قديمة أم حديثة .

على أنه فى كثير من الأحيان لم يقتصر على نصوص من كلام غيره ، بل أدار الكلمات فى عبارات من عنده ، لأنه طبق ما قاله فى المقدمة : « ومن خصائص هذا الكتاب تخير ماوقع فى عبارات المبدعين، وانطوى تحت استعمالات المفلقين ، أو ما جاز وقوعه فيها وانطواؤه تحتها ، من التراكيب التى تملح وتحسن ، ولا تنقبض عنها الألسن » .

وقد تكون عباراته من أحد كتبه الأدبية التى ألفها قبل الأساس .

وهذه أمثلة من أساس البلاغة على غير عمد :

قال فى مادة حصد : حَصَدَ الزرعَ : جزّه فهو حصيد ، وجمعه حصائد ، وهذا زمان الحصاد: « وآتوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ »[1] .

ومن المجاز : حَصَدَهم بالسيف : قتلهم ، « وهل يُكِبُّ الناس على مناخرهم فى النار إلا حصائدُ ألسنتهم »[2] .

وقال فى مادة (بلو) بُلِيَ فلانٌ : أصابته بلية ، قال :

بُليتُ وفِقدانُ الحبيب بليَّةٌ   وكم من كريم يُبتَلَى ثم يَصْبِرُ

ومنه قولهم : لا أباليه أى لا أخابره لقلة اكتراثى له ، وهو أفصح من لا أبالى به ، قال زهير :

لقد باليت مَظْعَنَ أم أوْفَى   ولكنْ أمُّ أوفى لا تُبالى

وقولهم : أبليتُه عذراً إذا بينت له بياناً لا لوم عليك بعده ، حقيقته جعلته باليا لعذرى ، أى خابراً له عالما بكنهه ، وكذلك أبليته يميناً ، قال جرير :

فأبلَى أميرَ المؤمنين أمانةً   وأبلاه صِدْقاً فى الأمور الشدائد

وابتليت الأمر : تعرفته ، قال :

تسائل أسماء الرِّفاقَ وتَبْتَلِى   ومن دون ما يَهْوَيْنَ بابٌ وحاجبُ

يريد أنه محبوس .

ومن المجاز : بلوت الشئ شممته ، قال يصف الماء الآجن القديم :

بأصفرَ وَرْدٍ آلٍ حتى كأنما   يَسُوفُ به البالى عُصارة خردل

وقال فى مادة رقن : رَقَّنَ الكتابَ : كتبه كتابة حسنة ، والترقين الترقيش ، قال رؤبة :

(١) سورة الأنعام ١٤١   (٢) حديث شريف .

دار كخط الـكاتب المُرَقِّنِ

وفى نوابغ الـكلم : العلم درس وتلقين ، لا طِرْسٌ وتلقين (٢) .

وقال فى مادة رنح : رُنِّح فلان وترنح إذا دِيرَ به وتمايل كالسكران، ورَنَّحه الشراب ، قال :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ دِهاقٍ تُرَنِّح مَنْ ذاقهـــا

ومن المجاز : رَنَّحت الريح الغضا فترنح ، ولقد ترنح علىَّ فلان إذا مال عليك بالتطاول والترفع ، قال أبو القريب البصرى :

تَرَنَّحُ بالـكلام علىَّ جَهْلاً كأنك ماجدٌ من آل بَدْرِ

ويقول فى مادة شب : شَبَبْتُ النار : رفعتها ، وشبَّ الصبى شباباً ، وقوم شبان وشباب وَشَبَبَة ، وتقول : كان عصر شبابى أحلى من العسل الشَّبابى ، منسوب إلى بنى شَبابة من أهـــل الطائف ، وتقول المرء فى شَبابه كالمهر فى شِبابه .

ومن المجاز والـكناية . شُبَّتْ الحرب بينهم ، وسمعت من يُحَيِّى النار وهو يقول :

تَشَبَّى تَشَبُّبَ النَّميمه تسعى بها زَهْراً إلى تَميمه

وهو كقولهم : أوقد بالنميمة ناراً ، قال عمر بن أبى ربيعة :

ليس كالعهد إذ علمت ولـكنْ أوقـدَ الناسُ بالنميمة نارا

وَشَبَّ الخمارُ وجهها ، وهو شَبوبٌ لوجهها ....

---

(١) نوابغ الـكلم ٢٥

وقال فى مادة نقد : تقول النَّقَدة إليهم كأنهم النَّقَد ، وقد عاث فيها الذئب الأعقد (١) .

وقال فى مادة مرى : ومن المجاز قَرَعَ مَرْوَتَه (٢)

ونلاحظ أنه يذكر موضوع النص أحياناً كقوله فى مادة : بضع .

قال أوس بن حجر فى صفة القوس :

ومَبْضوعةٍ من رأسِ فَرْعٍ شَظِيَّةٍ بطَوْدٍ تراه فى السحاب مكلّلا

وقوله فى مادة خرج : قال زهير يصف الخيل :

وخَرَّجها صوارخَ كلَّ يوم فقـد جعلت عرائكها تَلينُ

أراد وأدبها كما يُخَرَّج المتعلم .

وقال فى مادة طفل : هو طفل بين الطفولة، وامرأة وظبية مُطْفِل ، وطَفَّلَتْ ولدها : رشحته ، قال الأخطل يصف سحابا :

إذا زعزعته الريحُ جرَّ ذُيوله كما زَحَفَتْ عُوذٌ ثِقالٌ تُطَفِّل

وقال فى مادة نتخ : نَتَخْتُ الشوكة من رجلى بالمنتاخ، بالمنقاش ، ونتخ البازى اللحم بِمِنْسَره ، ونَتَخَ القلاَّعَ الضرس : نزعه . قال زهير يصف غزوا :

تَنْبذ أفلاءها فى كل منزلة تَنْتُخ أعيُنَها العِقبانُ والرَّخَمُ

وفى كثير من الأبيات لم يذكر القائل ، مكتفيا بكلمة قال ، وأغلب الظن أن القائل لم يكن معلوما له ولا لسابقيه الذين نقل عنهم .

كقوله فى مادة جرد : ومن المجاز : كيف حرثك أى امرأتك ، قال :

---

(١) هذه العبارة من مقامات الزمخشرى ١٠٠ النقد : جنس من الغنم قبيح - الأعقد : الملتوى

(٢) وردت فى المقامات ٧٢

إذا أكل الجرادُ حُروثَ قَوْمٍ   فَحَرْثِي هَمُّهُ أكلُ الجَــراد

وقوله فى مادة دوح : وفلان يلبس الدّاح وهو الوَشْىُ والنقش ، قال :

يالابسَ الوَشْيِ على شَيْبِه   ما أقبحَ الدّاحَ على الشَّيخِ

وقوله فى مادة نفج : وكانوا يقولون : هنيئالك النافجة ، وهى البنت ، لأنه كان يأخذ مهرها فينفج ماله أي يوسعه ويعظمه ،وأنشد الجاحظ :

وليس تلادى من وراثة والدى   ولا شأنُ مالى مُسْتَفَادُ النَّوافجِ

٤ — على أنه أغفل بعض المواد التى نجدها فى لسان العرب وفى القاموس المحيط ، ولعله وجدها ليست من المواد الثرية بالمعانى والمشتقات ، فذكر مثلا فى الجيم مع الهاء : جهر ثم جهش ، ولم يذكر جهز .

وذكر فى الحاء مع القاف حقل ثم حقن ولم يذكر حقم .

وذكر فى الراء مع التاء رتل وبعدها رتم ولم يذكر رتن ولا رتث.

وذكر فى السين مع الواو سود وبعدها سور ، ولم يذكر سوخ :

وذكر فى العين مع الكاف عكف وبعدها عكم ولم يذكر عكل .

وذكر فى النون مع التاء نتأ وبعدها نتج ولم يذكر نتب .

قيمته وأثره

١ — هذا الكتاب معجم لغوى جمع المفردات ومعانيها الحقيقية والمجازية، وكثيرا من النصوص البليغة التى وردت فيها ، فلم تجىء المفردات جوامد منقطعة عن الاستعمال ، بل جاءت فى سياق من التركيب أضفى عليها حياة.

وقد كان الزمخشرى يبتغى من تأليفه الكشف عن أسرار اللغة ، للوقوف على وجوه الإعجاز ، وليس من المستطاع هــذا الكشف إلا بتذوق معانى المفردات فى قوالبها ، ومعرفة حقائقها ومجازاتها كما قال فى المقدمة .

٢ — وهو إلى هذا ينبوع يغذى الملكة الأدبية ، ويزود الشداة بنفائس اللغة وآدابها ، وقد كان الزمخشرى أديباً بصيراً بما ينهض بأساليب الأدباء الناشئين ، لأنه جرب هذا الطور من قبل ، ولهذا قال فى المقدمة : فمن حصّل هذه الخصائص ، وكان له حظ من الإعراب ... وأصاب ذَرْواً من علم المعانى ، وحظى برشّ من علم البيان ، وكانت له قبل ذلك قريحة صحيحة وسليقة سليمة، فَحُل نثره ، وجزل شعره ولم يطل عليه أن يناهز المقدمين ، ويخاطر القُرمين .

٣ — وقد سلك مؤلفو المعاجم بعد الزمخشرى طريقتين ، فبعضهم حاكى الجوهرى فى ترتيبه كتابه الصحاح ، وبعضهم تأثر طريقة الزمخشرى فى الترتيب الهجائى الذى التزمه ، وكان أبرع فيه وأدق وأسهل .

أما الفريق الأول فيمثله ابن منظور (٦٣٠ — ٧١١ هـ) مؤلف لسان العرب ، والفيروزابادى (٧٢٩ — ٨١٧هـ) مؤلف القاموس المحيط ، فإنهما عدلا عن الترتيب الهجائى إلى نظام الحرف الأخير من الكلمة الذى سار عليه الجوهرى فى الصحاح .

وربما كان سبب ذلك أنهما لم يرتضيا طريقة الزمخشرى فى ترتيب الكلمات ولا مسلكه فى التفريق بين الحقيقة والمجاز ، ولا طريقته فى الاستشهاد بنصوص من البلغاء بعد عصر الاحتجاج ، وليس بمستبعد أن يضاف إلى هذين السببين سبب ثالث هو أن الزمخشرى زعيم المعتزلة فى عصره، وابن منظور والفيروزابادى من أهل السنة ، وبين الفريقين ما بينهما من خصومة وعداء .

وأما الفريق الثانى فيمثله الفيومى (توفى سنة ٧٦٦ هـ) مؤلف المصباح المنير، ثم اللجنة التى شكلتها وزارة المعارف المصرية برياسة محمود خاطر بك فرتبت مختار الصحاح للرازى (توفى عام ٧٨٠ هـ) ، وبطرس البستانى مؤلف محيط المحيط.

وسعيد الشرتونى مؤلف أقرب الموارد ؟ ومجمع اللغة العربية فى المعجم الوسيط .

٤ — ومازال أساس البلاغة فى صدارة معاجمنا اللغوية . نستشيره، ونستنبط منه، ونأنس إليه ونثق به ، لأن مؤلفه كما قال ابن حجر العسقلانى : « فى غاية المعرفة بفنون البلاغة ، وتصرف الكلام ، وكتابه من أحاسن الكتب ، وقد أجاد فيه، وبيّن الحقيقة من المجاز فى الألفاظ المستعملة إفراداً وتركيبا [1] » .

(٢) المستقصى فى أمثال العرب

منذ زمن مبكر عنى كثير من اللغويين والأدباء بتدوين أمثال العرب ، مثل أبى عُبَيْدة والأصمعى وأبى عُبَيْد وأبى زيد والمفضل بن محمد والمفضل ابن سلمة .

ثم جاء الزمخشرى والميدانى (٥١٨ هـ) فألفا كتابيهما فى زمن واحد .
أما كتاب الزمخشرى فهو (المستقصى فى أمثال العرب) فرغ من تأليفه سنة ٤٩٩ هـ .

وأما كتاب الميدانى فهو (مجمع الأمثال) .

وقد رتب الزمخشرى كتابه ترتيبا هجائيا، كما صنع فى أساس البلاغة،فبدأ بالأمثال التى أولها همزة ، ثم باء وهكذا إلى الياء،مراعياً فى الترتيب الحرف الثانى وما بعده ، فذكر مثلا فى حرف السين مع الراء : سرق السارق فانتحر ، وبعده سراك من دمك ؛ فإذا اتفقت كلمتان فى صدر المثل راعى مابعدهما،فذكر فى حرف العين مع النون : عند الشدائد تذهب الأحقاد ، وبعده : عند النطاح يغلب الكبش الأجَمّ .

---

(١) لسان الميزان ٦/٤

ولكنه ذكر فى باب الهمزة جميع الأمثال المبدوءة بهمزة ، سواء أ كانت الهمزة أصلية،مثل إنك لاتجنى من الشوك العنب ، أم همزة وصل مثل : احمل العبد على فرس، اختلط الحابل بالنابل ، أم كانت الكلمة مبدوءة بأل مثل الحمد مغنم،والمذمة مغرم،أم كانت الكلمة على وزن أفعل مثل : أحمق من نعامة .

وقد شرح الزمخشرى الأمثال ، وبيّن مواردها وأسبابها وملابساتها ؛ وذكر مضارب كثير منها، والأحوال التى يصح أن تقال فيها، وأضاف إلى شرحه مسائل من اللغة والنحو، واستشهد بنصوص شتى من شعر ونثر .

وفى كتاب الزمخشرى ثلاثة آلاف مثل وأربع مئة وواحد وستون .

أما الميدانى فقد رتب كتابه طبقاً لأصول الكلمات ، فذكر فى باب الهمزة الأمثال المبدوءة بهمزة قطع مثل : إن من البيان لسحراً ، ولم يذكر ما أوله أل ولا همزة وصل ، ثم ذكر ما جاء على وزن أفعل من هذا الباب مثل : آكل من حوت ، ثم سرد أمثال المولدين ،وهكذا صنع فى بقية الحروف ، فذكر فى باب الباء الأمثال المبدوءة بباء ، مثل بلغ السيل الزبى،ثم ماجاء على وزن أفعل مثل : أبلغ من قس.ثم أمثال المولدين، ولكنه لم يلتزم الترتيب طبقا لمابعد الحرف الأول من المثل فتجده يذكر مثلا فيما أوله تاء :ترك الظبى ظله ، ثم يذكر تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ، ثم يذكر تحسبها حمقاء وهى باخس،ويذكر فى باب القاف: قطعت جهيزة قول كل خطيب ، ثم يذكر قبل البكاء كان وجهك عابسا ، ثم يذكر قد استنوق الجمل وهكذا .

وبأمثال الميدانى ستة آلاف مثل كما ذكر فى مقدمته ، ويظهر أنه لم يراع أن كثيراً منها مكرور .

وفرق آخر بين العالمين ، هو أن الميدانى ذكر فى مقدمة كتابه عشرات من الكتب التى نقل منها ، على حين أن الزمخشرى لم يذكر مصادره التى اعتمد عليها .

وقد كان الزمخشرى أسبق إلى تأليف كتابه ، لأنهم يذكرون أنه لما اطلع على كتاب الميدانى ندم على أنه ألف المستقصى .

ويذكرون قصة أخرى ، أغلب الظن أنها من وضع المتفكهين أو العابثين، لأنها لا تلائم أخلاق الزمخشرى التى عرفناها ، فيقولون (١) إن الزمخشرى لما وقف على كتاب الميدانى أخذ القلم،وزاد نونا على كلمة الميدانى،فصارت النميدانى، ومعناها بالفارسية الذى لا يعلم شيئا ، فلما علم الميدانى بذلك أخذ بعض مؤلفات الزمخشرى فصير الميم نونا ، ومعنى الكلمة بالفارسية بائع زوجته .

نماذج منه

١ — إذا ضربت فأوْجِع ، وإذا نَعَرْتَ فأسمع .

يضرب فى إتقان الأمر والتشديد فيه (٢)

وفى مجمع الأمثال: من أمثال المولدين: إذا ضربت فأوجع، فإن الملامة واحدة ، يضرب فى الحث على المبالغة (٣)

٢ — أشأم من أحمر عاد

هو قُدار بن قُدَيْرة ، وهى أمه ، وأبوه سالف ، عقر ناقة صالح فهلكت بفعله ثمود . قال زهير :

فتُنْتِج لكم غِلْمَانَ أشْأمَ كلُّهُمْ   كأحمرِ عادٍ ثم تُرْضِعْ فتَفْطِمِ (٤)

وفى مجمع الأمثال بعد ذكر المثل أنه قدار بن سالف ويقال له ابن قديرة وهى أمه ، عقر ناقة صالح عليه السلام فأهلك الله بفعله ثمود (٥)

(١) معجم الأدباء ٥/٤٧ وإنباه الرواة ١/١٢١ وبغية الوعاة ١٠٥
(٢) المستقصى ١/١٢٥   (٣) مجمع الأمثال ١/٥٨
(٤) المستقصى ١/١٧٦   (٥) مجمع الأمثال ١/٢٠٦ .

٣ — أفرس من عامر بن الطُّفَيْل

هو ابن أخى عامر ملاعب الأسنة ، أفرس أهل زمانه وأسودهم ، وكان له منادٍ ينادى بعكاظ : هل من راجل فأحمله ، أو جائع فأطعمه ، أو خائف فأؤمنه؟ ووقف جبار بن سلمى على قبره فقال : أنعم ظلاما أبا على ، فوالله لقد كنت تشن الغارة ، وتحمى الجارة ، سريعا إلى المولى بوعدك ، بطيئا عنه بوعيدك ، وكنت لا تضل حتى يضل النجم ، ولا تهاب حتى يهاب السيل ، ولا تعطش حتى يعطش البعير ، وكنت والله خير ما تكون حين لا تظن نفس بنفس خيرا. ثم التفت فقال : هلا جعلتم قبر أبى علىّ ميلا فى ميل (١) .

وفى مجمع الأمثال هذا نفسه (٢)

٤ — أنجز حُرٌّ ما وعد

نجز الوعد إذا نفذ ، وأنجزته ، قاله الحارث بن عمرو بن حُجْر الكندى لصخر بن نهشل ، وكان له مرباع بنى حنظلة ، فجعل للحارث الخمس منه إن دله على غنيمة ، ففعل ، ووفى هو بوعده . يضرب فى استنجاز المواعيد (٣) .

وفى مجمع الأمثال هذا وزيادة عليه (٤)

٥ — أنقى من مرآة الغريبة

هى المرأة الناكح فى غير عشيرتها (٥)

وفى مجمع الأمثال : يعنون التى تتزوج من غير قومها ، فهى تجلو مرآتها أبدا ، لئلا يخفى عليها من وجهها شىء . قال ذو الرمة :

(١) المستقصى ١/٢٦٩   (٢) مجمع الأمثال ٢/٢٢
(٣) المستقصى ١/٣٨٤   (٤) مجمع الأمثال ٢/١٩٣
(٥) المستقصى ١/٣٩٨

لها أذن حَشْرٌ وذِفْرَى أسيلة وخد كمرآة الغريبة أسجح[1]

٦— إنّ من البيان لسحرا

سأل النبى صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزبرقان ، قال كيف هو فيكم ؟ فقال : شديد العارضة ، مطاع فى العشيرة، مانع لما وراءه . فقال الزبرقان : والله إنه ليعلم أنى أفضل مما قال ، ولكنه حسدنى . فقال ابن الأهتم : والله ما علمت (إلا) أنه زمر المروءة ، ضيق العَطَن ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، أما والله ما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الأخرى ، ولكن رضيت فقلت برضاى ، ثم أسخطنى فقلت بسخطى . فقال عليه السلام ذلك.

يضرب فى الثناء على البليغ[2] .

وفى مجمع الأمثال هذا المثل وشرحه بغير خلاف يذكر[3] .

٧ - ضرب أخماساً لأسداس

أى اعتمد وتعاطى أخماساً لأجل أسداس ، وهو جمع خِمْس وسِدْس من أظماء الإبل. وأصله أن الرجل حتى إذا أراد سفراً بعيداً عود إبله الصبر على العطش، فأخذ يترقى بها مدرجا فى الإظماء ، إذا فَوَّزَ بها - دخل الصحراء — صبرت ، فهو حين يسقيها أخماسا ثم يتجاوزها وينقلها إلى الأسداس عقيبها على سبيل التدريب لها إنما يتعاطى سقيها أخماسا لأجل سقيها أسداسا ، قال الكميت :

وذلك ضَرْبُ أخماسٍ أُرِيدَتْ لأسداس عَسَى ألا يكونا

وقال أيضاً :

ألستم أيقظ الأقوام أفئدةً وأضرب ناس اخماساً لأعشار

(١) مجمع الأمثال ٢/٢٠٧ حشر : لطيفة يستعمل للواحد والمثنى والجمع . ذفرى : المراد العنق .
(٢) المستقصى ١/٤١٤ (٣) مجمع الأمثال ١/١

وقال :

يضرب للمكار الذى يريد أمرا ويظهر غيره[1] .

وقد شرح الميدانى المثل هذا الشرح ، وذكر شعرا آخر غير النصوص الثلاثة التى ذكرها الزمخشرى[2] .

٨ — قطعت جَهِيزَةُ قول كل خطيب .

بينما قوم يخطبون فى صلح بين حيين — قتل أحدهما من الحى الآخر رجلا ويسألون الرضا بالدية — جاءت أَمَةٌ اسمها جهيزة فقالت : إن القاتل ظفر به بعض أولياء المقتول فقتله ، فقيل ذلك .

يضرب لأمر قد فات وأيس من صلاحه .

وقيل هى جهيزة التى يضرب بها المثل فى الحمق ، وإنه مثل فيمن يقطع على الناس ماهم فيه بحماقة يأتى بها[3] .

وفى مجمع الأمثال هذا الشرح نفسه[4] .

٩ — كالثور يُضْرَبُ لما عافت البقر

كانوا إذا عافت البقر الورود ضربوا الثور زاعمين أن الجن ركبته ، وأنها تزع البقر عن المشرب ، فينفرونها بإلقاء الضرب على الثور .

وقيل إنما يضرب لأنه قائد البقر وسائقها .

وقيل الثور: العَرْمَض أى الطحلب ، يضرب فيذهب فى نواحى الوِرْد — الماء — ثم تشرب حينئذ ، وإذا كان على وجه الماء عافته .

يضرب للمأخوذ بذنب غيره ، قال أنس بن مدركة الخثعمى :

(١) المستقصى ٢/١٤٥ (٢) مجمع الأمثال ١/٢٨٣
(٣) المستقصى ٢/١٩٧ (٤) مجمع الأمثال ٢/٢٥

إنى وقتلى سُلَيكاً ثم أعقِلَه   كالثور يُضْرَبُ لما عافت البقرُ

وقال : . . . . (١)

وبشبه هذا ما ذكره الميدانى (٢) .

(٣) الفائق فى غريب الحديث

كان جمع الأحاديث التى بها كلمات غريبة وترتيبها وشرح غريبها مناط كثير من علماء اللغة والحديث، فتوالت مؤلفاتهم حتى لم تكد تدع زيادة لمستزيد.

وقد ذكر ابن الأثير فى مقدمة كتابه (النهاية فى غريب الحديث والأثر) موجزاً لتطور التأليف فى غريب الحديث ، منها أن أبا عبيدة مَعْمَر بن المثنى التيمى أول من جمع من ألفاظ غريب الحديث والأثر كتيبا معدود الأوراق . ثم صنع مثل صنيعه أبو الحسن النضر بن شُمَيْل المازنى وعبد الملك بن قريب الأصمعى ، ومحمد بن المستنير المعروف بقُطْرُب .

ثم ألف أبو عُبَيْد القاسم بن سَلاَّم كتابه المشهور فى غريب الأحاديث والآثار ، فكان المرجع إلى زمن ابن قتيبة الدينورى ، إذ ألف كتابا على نهج كتاب أبى عُبَيْد ، أكثره لم يذكره أبو عبيد .

وتتابعت المؤلفات فى هذا الفن ، إلى أن صنف أبو عُبَيْد أحمد بن محمد الهَرَوى كتابا جمع فيه ما بين غريب القرآن والحديث ، ورتبه وفق حروف المعجم على وضع لم يسبق فى غريب القرآن والحديث ، وفسر الكلمات اللغوية ، وجمع فيه ماذكره سابقوه ، ولهذا صار المؤلفون من بعده يتبعون أثره ، ويستدركون مافاته ، إلى أن جاء الزمخشرى فصنف كتابه سنة ٥١٦ هـ ، وسماه الفائق

(١) المستقصى ٢/٢٠٤   (٢) مجمع الأمثال ٢/٥٩.

«ولقد صادف هذا الاسم مُسَمَّى ، وكشف عن غريب الحديث كل مُعَمَّى ، ورتبه على وضع اختاره مُقَفَّى على حروف المعجم ، ولكن فى العثور على طلب الحديث منه كلفة ومشقة ، وإن كانت دون غيره من متقدم الكتب ، لأنه جمع فى التقفية بين إيراد الحديث مسرودا جميعه أو أكثره أو أقله ، ثم شرح مافيه من غريب ، فجيء شرح كل كلمة غريبة يشتمل عليها ذلك الحديث فى حرف واحد من حروف المعجم ، فترد الكلمة فى غير حرفها (١) ، وإذا تطلبها الإنسان تعب حتى يجدها ، فكان كتاب الهروى أقرب متناولا ، وأسهل أخذا ، وإن كانت كلماته متفرقة فى حروفها ، وكان النفع به أتم ، والفائدة أعم (٢) » .

طريقته

١ — رتب الكلمات الغريبة من الأحاديث والآثار على حروف المعجم ، مراعيا الحرف الأول والثانى ، فيذكر مثلا فى الهمزة مع اللام ألب ثم ألت ، ثم ألف ، ويذكر فى الحاء مع الكاف حكك ثم حكة .

ولكنه لم يراع الحرف الثالث ، ففى الثاء مع القاف يذكر ثقل ثم ثقب ، وفى الجيم مع الدال يذكر الجدح ثم جدف ، ثم جدد ، ثم جدل ، وفى الخاء مع اللام يذكر خلف ثم خلج ، ثم خلل ، ثم خلب ، ثم خلص ، ثم خلى ، وهكذا.

٢ — قد يذكر الحديث كله ، وقد يذكر بعضه ، ناظرا إلى الكلمة أو إلى الكلمات الغريبة التى يريد شرحها ، ويستشهد بنصوص بليغة من الشعر والنثر ، وقد يعرب بعض الكلمات « إعراب المحقق البصرى الناظر فى نص سيبويه وتقرير الفسوى » (٣)

وقد أثنى عليه ابن حجر فى قوله : « وكتابه الفائق فى غريب الحديث من

(١) استدرك هذا بأن أشار إلى هذه الكلمات فى المواضع التى وردت فيها .
(٢) النهاية ١/٤   (٣) الفائق ١/٣

أنفس الكتب ، لجمعه المتفرق فى مكان واحد ، مع حسن الاختصار ، وصحة النقل[1] » .

نماذج منه

١ — النبى صلى الله عليه وسلم . أتى بكتف مُؤَرَّبة فأكلها وصلى ولم يتوضأ .

هى الموَفَّرة التى لم يؤخذ شىء من لحمها ، فهى متلبسة بما عليها من اللحم ، متعقدة به ، من أرَّبْتُ العقدة إذا أحكمت شدها . من الناس من يوجب الوضوء بأكل ما مسته النار . وعن أهل المدينة أنهم كانوا يرون هذا الرأى . وهذا الحديث وأشباهه ردٌّ عليهم[2] .

٢ — إن الإسلام لَيَأْرِزُ إلى المدينة كما تأرِزُ الحية إلى جحرها ، أى تنضوى إليه وتنضم . ومنه الأرُوز للبخيل المتقبض . وعن أبى الأسود الدؤلى إن فلانا إذا سئل أرَزَ وإذا دُعى انتهز[3] .

٣ — فى الحديث كانوا يتأمَّمُون شِرار ثمارهم فى الصدقة ، أى يقصدون . وفى قراءة عبد الله : « ولا تأمَّمُوا الخبيث »[4] .

٤ — النبى صلى الله عليه وسلم : لا يُوطِنُ من المسجد للصلاة والذكر رجل إلا يَتَبَشْبَشُ الله به من حين يخرج من بيته كما تَبَشْبَشَ أهل البيت بغائبهم إذا قدم عليهم .

التبشبش بالإنسان المسرة به والإقبال عليه ، وهو من معنى البشاشة لا من لفظها عند أصحابنا البصريين ، وهذا مثل لارتضاء الله فعله ووقوعه الموقع الجميل عنده .

---

(١) لسان الميزان ٦/٤ (٢) الفائق ١/٢١
(٣) الفائق ١/٢٢ (٤) الفائق ١/٤٥

يخرج فى موضع الجر بإضافة الحين إليه ، والأوقات تضاف إلى الجمل ، ومن لابتداء الغاية ، والمعنى أن التبشبش يبتدئ من وقت خروجه من بيته إلى أن يدخل المسجد ، فترك ذكر الانتهاء لأنه مفهوم ، ونظيره :

شِمْتُ البرقَ من خَلَلِ السحاب

ولا يجوز أن يفتح حين كما فتحه فى قوله :

على حينَ عاتبتُ المَشيبَ على الصِّبا

لأنه مضاف إلى معرب ، وذاك إلى مبنى[1] .

٥ — النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يتعوذ من الأيْهَمَيْن

هما السيل والحريق ، لأنه لا يهتدى لدفعهما ، من الفلاة اليَهْماء وهى التى لا يهتدى فيها ، لأنه لا أثر يستدل به .

وقال ابن الأعرابى . رجل أَيْهَم أعمى ، وامرأة يهماء ، ومنه قالوا : أرض يهماء ، ويقال للجبل الذى لا يرتقى أيهم .

وقيل اليَهَم الجنون ، ومنه الأيهم الفحل المغتلم[2]

---

(١) الفائق ١/٩٢
(٢) الفائق ٣/٢٣٣

(٤) أعجب العجب فى شرح لامية العرب

هذا كتاب شرح فيه الزمخشرى قصيدة الشّنفرى التى مطلعها :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم   فإنّى إلى قوم سِواكُمْ لأَمْيَلُ

وذكر فى مقدمة الشرح أنه ألفه « ليتحف به الخزانة السعيدية والحضرة العزّيّة ، ذا الآلاء المتظاهرة ، والنعم الوافرة . . . . المستولى على جوامع الحكم بالتوقير لأهلها والتعظيم ، والتقريب والتكريم ، وإحراز الكتب المؤلفة فيها ، وإعزاز أربابها ومصنفيها » .

ويفهم من المقدمة أنه ألفه بعد أساس البلاغة ، لأنه قال : « وخطابى لمن نشأ فى علم الإعراب . . . . . وطالع أساس البلاغة »

وقد شرح اللامية كثير من اللغويين ، مثل المبرد وثعلب والتبريزى والعكبرى ويحيى الحلبى الغسانى والزوزنى والنقشوانى وابن أكرم وابن زاكور وعطاء الله المصرى والسويدى والسعيدى الحميرى ، واستشهد بأبيات منها كثير من اللغويين والنقاد والمؤرخين .

ونلاحظ أن الزمخشرى ملأ شرحه بالنحو ، حتى لكأن النحو مقصود قصداً ، وأنه اقتصر من اللغة على شرح المفردات الصعبة ، ولم يعرض لشىء من علوم البلاغة .

وهو فى شرحه يستشهد بالآيات القرآنية ، وبأبيات شعرية

وقد عنى بها كثير من المستشرقين منذ نشرها (ده ساسى) فأكبوا على دراستها ، وترجموها شعراً ونثرا إلى لغاتهم مثل (فرنل) و (فيل) و (كوزجارتن) و (رويس) و (ديكرت) و (همبرجشتال) و (الفارت) و (أداما ميكيفتشا) و (فرن) و (ب . بليا) .

واتجه آخرون إلى اقتناء مخطوطاتها ، والموازنات بين بعضها وبعض ، مثل (بيترمان) و (شيرنجر) .

وفى عام ١٨٦٤ رأى نولدكه أن يعيد النظر فيها ، فألف كتابا فى الشعر الجاهلى عرض فيه لما قيل فى اللامية ، وناقشه ، ثم قال : لولا أنى رأيت على مخطوطة (بترمان) هذه الجملة (لامية الشنفرى ، وقيل إنها منحولة) ما تطرق إلى ذهنى شك فى صحتها ، فإنها إن كانت منحولة فالشاعر الذى قالها يجب أن يكون ملما بالحياة العربية والجاهلية إلماما تاما ، كما أن خياله غزير جداً ، حتى إنه ليستحق أن يتبوأ أسمى مكان بين الشعراء الجاهليين ، وإذا لم تكن هذه اللامية لبطل الصحراء ، فإنها صنعت لتنسب إلى مثله .

وفى الوقت الذى كان فيه مجمع ڤينا العلمى ينشر دراسة لنولدكه عن المعلقات كان المجمع العلمى البافارى بميونخ ينشر فى عامى ١٩١٤ ، ١٩١٥ بحثاً قيما حول لامية العرب للمستشرق الألمانى (جورج يعقوب) ، وقد ألف قبل هذا البحث كتابا عن حياة البدو فى العصر الجاهلى ، وجمع المصادر المختلفة للامية الشنفرى ، وعنى عناية خاصة بنبات الشرق العربى وحيوانه .

وقد ناقش ما أجمع عليه شراح اللامية من أن السِّمع فى قول الشنفرى :

فإنّى لَمَوْلَى الصبر أجتابُ بَزَّهُ   عَلَى مِثْلِ قلبِ السِّمْعِ والحَزْمَ أَنْعَلُ[1]

هو ولد الذئب من الضبع ، وخالفهم وقال إن مثل هذا التزاوج لم يحدث بين الذئب والضبع ، واستعان لإثبات رأيه بحديقة حيوان (هلابرن) بألمانيا التى

---

(١) قال الزمخشرى فى شرح اللامية ٥٤ مولى الصبر : وليه يريد أنا القائم به اجتاب : ألبس البز : أمتعة البزاز ، يريد أنى وليه ألبس ثوبه . السمع سبع مركب وهو ولد الذئب من الضبع ، وفى المثل أسمع من سمع قال الشاعر :

تراه حَديدَ الطَّرْفِ أبْلَجَ واضحا   أغرَّ طويلَ الباع أسْمَعَ من سِمْعِ

الحزم أنعل : أحتذى الحزم

نجحت فى تجربة التزاوج بين الذئب والثعلب ، وأخفت فى تحقيق ما قاله شراح اللامية ، لأن السمع كما قال الرحالة والعلماء وبخاصة علماء الحيوان : حيوان آخر يشبه الكلب ، وحجمه كالحمار ، إذا لم تصب الطلقة الأولى منه مقتلا اكتسب مناعة ضد الرصاص ، وهو يهاجم الإنسان ويضربه بمخلبه الأمامى ، فيبجر بطنه ويفترسه ، ويطلق عليه علماء الحيوان اسم (ليكاون بيكتوس — Lycaon Pictus) وهو مشهور بقوة السمع حتى يضرب به المثل [٢] .

على أن المناعة التى يكتسبها هذا الحيوان ضد الرصاص ليست مما يدخل فى نطاق المعقول ، لأن إخفاق الطلقة الأولى أو ما بعدها لا يكسب الحيوان هذه المناعة .

(٥) الجبال والأمكنة والمياه

تعريف بالجبال والأمكنة والمياه ومواقعها وأسمائها وبعض ما يتصل بها من أخبار وشعر ، مرتبة ترتيبا هجائيا ، بدأ بما فى أوله الهمزة ، فقال : أبو قبيس الجبل المشرف على الصفا ، يسمى برجل من مَذْحِج كان يكنى بأبى قبيس ، لأنه أول من بنى فيه ، ثم ذكر بعده ما فى أوله الباء ، وما فى أوله التاء ، وهكذا إلى الياء ، فقال : يَلَمْلَم : واد يحرم منه أهل اليمن .

نماذج منه

١ — الجَمَّاء : جبل بالمدينة ، سمى بذلك لأن ثم جبلين هى أقصرها ، فكأنها جماء ، وأنشدنى الشيبانى :

القصر والنخل فالجماء بينهما ... أشهى إلى القلب من أسياح جَيْرون

الجماء من المدينة على ثلاثة أميال ناحية العقيق إلى الجرف .

(١) من مقال بمجلة الرسالة العدد ١٨ فى ٤ فبراير سنة ١٩٦٥ الدكتور فؤاد حسنين على .

٢ — مُحَلِّم : نهر باليمامة ، قال الأعشى :

ونحن غداةَ العَيْنِ عَيْنِ فُطَيْمةٍ ... منعنا بنى شَيْبانَ شُرْبَ مُحَلِّمِ

٣ — عكاظ : سوق ، وقيل عكاظ ماء لهم ، قال :

إن عكاظا ماؤنا فخلّوه

وقيل عكاظ ما بين نخلة والطائف إلى بلد يقال له الفُتُق ، كانت سوقه تقام هلال ذى القعدة فلا تزال قائمة عشرين يوما .

٤ — منفوحة : بلد فيه منازل ونخيل ، وهى خطة بنى قيس بن ثعلبة ، قال الأعشى :

فقاعِ منفوحة ذى الحائرِ [١] .

(١) لا تزال منفوحة عامرة بالقرب من الرياض فى نجد ، وبها أطلال يقولون إنها كانت بيت الأعشى ، وقد زرتها مرات من سنة ١٩٥٧ إلى ١٩٦٠ .

الفصل الثامن

في شعاب النحو

درس الزمخشري النحو ، وتفوق فيه كما درس اللغة وبرع فيها ، وكان تابعا لمذهب سيبويه والبصريين في آرائه ، كما يتبين من مؤلفاته كلها ، وله في النحو ثلاثة كتب هي :

(١) المفصَّل

شرع في تأليفه في غرة رمضان سنة ٥١٣هـ ، وفرغ منه في غرة المحرم سنة ٥١٥هـ[1] .

وهو أربعة أقسام : الأول في الأسماء ، والثاني في الأفعال ، والثالث في الحروف ، والرابع في المشترك .

ويمتاز بأنه يورد أمثلة كثيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف وشعر البلغاء ونثرهم ، كقوله في حذف المفعول به :

وحذف المفعول به كثير ، وهو في ذلك على نوعين :

أحدهما أن يحذف لفظا ، ويراد معنى وتقديرا .

والثاني : أن يجعل بعد الحذف نسيا منسيا ، كأن فعله من جنس الأفعال غير المتعدية ، كما ينسى الفاعل عند بناء الفعل للمفعول به .

(١) وفيات الأعيان ٤/٢٥٥

فمن الأول قوله تعالى « اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لمن يشاءُ ويَقْدِر » وقوله « لا عاصِمَ اليومَ مِنْ أمْرِ اللهِ إلا مَنْ رَحِمَ » لأنه لابد لهذا الموصول من أن يرجع إليه من صلته مثل ما ترى في قوله تعالى « الذي يتخبَّطُه الشيطانُ من المسّ » ، وقرئ قوله تعالى : « وما عملَتْهُ أيديهم وما عملَتْ » .

ومن الثاني قولهم : فلان يعطي ويمنع ، ويصل ويقطع ، ومنه قوله عز وجل : « وأَصْلِحْ لي في ذريتي » وقول ذي الرمة

وإن تعتذر بالمَحْل من ذي ضُرُوعها　　إلى الضيف يَجْرَحْ في عراقيبها نَصْلي[1]

ولقد شرحه وعلق عليه كثير من النحاة[2] ، مثل أبي البقاء العكبري المتوفى سنة ٦١٦ هـ » واسم شرحه الإيضاح ، ومثل ابن الحاجب (٦٤٦ هـ) وشرحه اسمه الإيضاح أيضاً ، وعلى هذا الشرح حواش لآخرين .

وأكثر شراح المفصل شهرة موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الحلبي المولود بحلب سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨ م) درس النحو والحديث بحلب ودمشق والموصل ، وتوفي سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) وتتلمذ عليه ابن خلكان سنة ٦٢٦ هـ ، ٦٢٧ هـ وقال إنه حجة في الأدب .

ولابن يعيش هذا مؤلفات منها حاشية على شرح ابن جني على (تصريف المازني ، وشرح واف على (المفصل) عارض فيه الزمخشري في كثير من المواضع .

وقد تحدث ابن يعيش عن الباعث له على شرح المفصل ، فقال : لما كان الكتاب الموسوم بالمفصل من تأليف الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، رحمه الله ، جليلا قدره ، نابها ذكره ، قد جمعت أصول هذا العلم فصوله ، وأوجز لفظه فتيسر على الطالب تحصيله ، إلا أنه مشتمل على ضروب ، منها لفظ أغربت عبارته فأشكل ، ولفظ تتجاذبه معان فهو مجمل ، ومنها ما هو

(١) المفصل ٢/٣٩ . يجرح : المراد يجرحها

(٢) كشف الظنون ٢/٤٨٨ — ٤٨٩

بادٍ للأفهام إلا أنه خال من الدليل مهمل ، استخرت الله تعالى فى إملاء كتاب أشرح فيه مشكله ، وأوضح مجمله ، وأتبع كل حكم منه حججه وعلله .

ولا أدعى أنه — رحمه الله — أخل بذلك تقصيرا عما أتيت به فى هذا الكتاب ، إذ من المعلوم أن من كان قادرا على بلاغة الإيجاز كان قادرا على بلاغة الإطناب (١) .

وقد طبع هذا الشرح فى ليبسيك من سنة ١٨٨٢ إلى ١٨٨٦ م ثم طبع بإدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة فى عشرة أجزاء .

(٢) مقدمة الأدب

قسم هذا الكتاب خمسة أقسام :

القسم الأول فى الأسماء ، فذكر المفردات وجموعها التكسيرية ، مثل وقت وأوقات ، وحين وأحيان ، وأجل وآجال ، وأوان وآونة وأيايين ، ودهر وأدهار وأدهُر ، ونبت ونبات ، وعشب وعِشاب وأعشاب، ومزرعة ومزارع، وسنبلة وسنابل ، وهكذا ، مراعيا موضوعات عامة لكل طائفة من الكلمات .

والقسم الثانى فى الأفعال ، مثل : هَنأه الطعام يَهْنِئه ويَهْنُؤه ويَهْناه ، وهنئه يَهْنَؤه هُنوءًا ، وهنأ البعير بالقطران يَهْنِئه ويَهْنَؤه هَنأ وهو الهِناء

والقسم الثالث فى الحروف ، فتكلم عن الحروف ، وعملها فى الأسماء والأفعال ، وعقد لذلك فصولا ، منها فصل فى الحروف التى تنصب الاسم وترفع الخبر مثل : إن زيدا منطلق ، بلغنى أن زيدا منطلق ، كأن زيدا الأسد، ما جاءنى زيد لكنّ عمرا حاضر ، ليت زيدا خارج ، لعل عمرا حاضر ، فإذا

(١) مقدمة شرح المفصل

اتصل بها (ما) ارتفع الاسمان كقولك : إنما زيد منطلق وكذا الباقى .

القسم الرابع فى تصريف الأسماء ، فتكلم عن حركات الإعراب وحركات البناء ، وعن التذكير والتأنيث ، والنسب والتصغير . . الخ .

القسم الخامس : فى تصريف الأفعال ، فعرض للمبنى للفاعل ، والمبنى للمفعول ، وللصحيح والمعتل ، وللتعجب، ولاسم الفاعل واسم المفعول . . الخ .

والكتاب عربى فارسى فى قسميه الأولين ، أما الأقسام الثلاثة الباقية فعربية خالصة .

ويبدو من هذا التعريف الوجيز أن الكتاب نحو ولغة ، ولكن النحو أغلب . وقد أهداه إلى الأمير الأجل بهاء الدين علاء الدولة أبى المظفر أتسوز ابن خوارزم شاه ، ووصفه بقوله: « غاية لذته فى مجالسة الأفاضل ، وقصارى لهوه فى منادمة الأماثل ، ولايزال ظل كرمه الواسع عليهم ممدودا ، وجنابه بإنعامه الفائض مجُودا ، وصلاته وخلعه مترادفة عندهم متوالية ، رائحة إليهم غادية . وقد رسم لى أمره العالى — زيد علوا — بتحرير نسخة من كتاب مقدمة الأدب لخزانة كتبه المعمورة ، ففعلت على رسمه ، وجعلت الكتاب مرسوما باسمه (١) » .

(٣) الأنموذج

هذا كتاب موجز جداً فى النحو ، اقتضبه من المفصل ، ويظهر أنه أراد به المبتدئين ، عدد صفحاته ثلاث وعشرون صفحة .

وحسبنا هذه الإشارة ، لأن التفصيل فى هذا يحتاج إلى دراسة خاصة .

(١) مقدمة الأدب ٢

الفصل التاسع

فى حديقة النثر

مارس الزمخشرى النثر الفنى فى هذه الكتب الثلاثة : نوابغ الكلم ، ومقامات الزمخشرى ، وأطواق الذهب .

وله نثر فنى فى مقدمات كتبه الأخرى وفى ثنايا بعضها ، وبخاصة الكشاف ، وفى بعض فصول كتابه ربيع الأبرار .

أما موضوعاته فتدور حول الوعظ والإرشاد والدعوة إلى التحلى بالتقوى ومكارم الأخلاق .

وأما أسلوبه فالصبغة العامة له مجاراة كتاب عصره فى التكلف بالسجع ، وتكلف المحسنات ، والجنوح إلى حل المنظوم ، والتلاعب بالألفاظ الاصطلاحية .

ولقد كان المأمول من أبى القاسم أن يتحرر من هذه القيود التى كبلت النثر الفنى منذ القرن الثالث الهجرى إلى القرن العشرين ، لكنه لم يتحرر منه ، مع أنه قال فى مقدمة المقامات[1] : ولتعلم أن ماسماه الناس البديع ، من تحسين الألفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والتسجيع والترصيع ، لايملح ولا يبرع حتى يوازى مصنوعه مطبوعه ، وإلا فما قلق فى أماكنه ، ونبا عن مواقعه ، فمنبوذ بالعراء ، مرفوض عند الخطباء والشعراء .

على أن بعض سجعاته حلوة الوقع ، لايبدو عليها استكراه ، وبعض

(١) مقدمة المقامات ٣

محسناته أسعفت بها المهارة واللباقة فجاءت كأنها عفو الخاطر ، ووليدة المصادفة ، مثل قوله : « ألا إن اتقاء المحارم ، من أجل المكارم ، فاتقها إما لكرم الغريزة ، وإما للتوقف عند حدود الشارع ، وتخوف الزواجر والقوارع »[1] .

وقوله : « يا أيها المستجدى ، حسبك ، فبئس الكسب كسبك ، لا يخلق الديباجة مثل التعرض للحاجة ، فليرقع اليسير خصتك[2] ، ولتكن القناعة حصتك ، وأقلل فى الناس طمعك ، واستدم فضل الله معك[3] » .

ويكفى أن أذكر بعض الأمثلة من كلفه بالسجع والمحسنات المقتسرة المثقلة ببعض المفردات اللغوية التى لاباعث على استعمالها إلا الجنوح إلى الإغراب ، أو الدلالة على الإحاطة والمقدرة ، على حين أن غيرها أجمل منها وقعاً ، وأوضح دلالة ، وأثرى معنى .

من ذلك قوله فى مقامه العزلة : « قاتل الله بنى هذه الأيام ، حوارهم غوار[4] ونقالهم نقار[5] .... بينما أنت فى خلواتك إذ فوجئت بمثافنة بعضهم ، من الذين أخذك الله ببغضهم » ...

فهو يتعسف فى تعبيره ليسجع وليجانس بين حوار وغوار ، وبين نقال ونقار ، ويستعمل كلمة مثافنة على ثقلها .

(١) المقامات ٥٦

(٢) الخصة : الخصاصة الفقر ، وقال فى الأساس : سمعت أهل السراة يقولون : رفع الله خصتك .

(٣) أطباق الذهب ٣٢

(٤) الغوار : المغاورة

(٥) النقال : مناقلة الكلام . النقار : المناقرة والتجريح

ويقول فى المقامة نفسها [١] : « استبقتما إلى غاية الغواية مُعنِقين، وترديتما فى هوة الرأى مُعْتَنِقين [٢] » .

والتكلف واضح فى استعمال معنقين ومعتنقين لضمان السجع والجناس .

ويقول فى مقامة العمل [٣] :

« إن ذكر النثر فلو رآء ابنُ لسانِ الحُمَّرة حمرة لسانه لجهش وما بهش » [٤] .

فهو يستعمل (راء) بدلا من رأى ، ويستعمل بهش ليجانس بينها وبين جهش ، ويمثل بشخص غريب الاسم ، غير مشهور بالبلاغة إلى درجة أن يضرب به المثل .

ويسترسل فى هذه المقامة فى استعمال كلمات أربع متصلة بالقوس ، فيقول : « متى نظر إلى الرُّماة مُوتِرِين منبضين [٥] مُسَدِّدين غير مُخْبِضين [٦] أقبل على مقلاة الغم يتقلَّى ، وبجمرة الغيظ يتصلَّى » والتكلف بين فى تتابع هذه الكلمات .

على أنه كتب خمس مقامات مثقلة باصطلاحات نحوية وعروضية وغيرها ، سأعرض لها فيما بعد .

وهذا النثر فى كتبه : نوابغ الكلم ، ومقامات الزمخشرى ، وأطباق الذهب ، وربيع الأبرار .

(١) مقامات الزمخشرى ٧٢

(٢) معتقين : مسرعين

(٣) المقامات ١٠١

(٤) جهش : فزع أو هرب . بهش : هش وارتاح . ابن لسان الحمرة على وزن سكرة خطيب بليغ نسابة اسمه عبد الله بن حصين أو ورقاء بن الأشقر (القاموس مادة حمر) .

(٥) منبضين : جاذبين أوتار القسى

(٦) مخبضين : ساقطه سهامهم

(١) نوابغ الكلم

أما نوابغ الكلم فهى حكم قصار متوالية موجزة أقصى إيجاز ، مسجوعة سجعا ملتزما ، لاينتظمها موضوع أو فكرة ، كقوله : العرب نبع صلب المعاجم ، والغَرْب [١] مَثَلٌ للأعاجم .

إذا قَلَّت الأنصار كَلَّت الأبصار .

لاتمش بالريبة مُهَيْنِماً [٢] ولاتنس أن عليك مُهَيْمِناً .

صِفْوان من منح سائله ومَنّ ، ومنع نائله وضَنّ .

كم رأيت من أعرج فى درج المعالى أعرج [٣] ، ومن صحيح القدم ليس له فى الخير قدم .

قد جمع الأصل والفرع من تبع العقل والشرع .

رُبَّ صَدَقة من بين فكَّيك خيرٌ من صَدَقة من بطن كفَّيك .

لن يسود النَّقَّار [٤] ما اسودّ القار .

أم الزائر [٥] نَزُور [٦] ، وأم النابح نَثُور [٧] .

رب كلمة هى عند الناس فصيحة ، وهى عند الله فضيحة .

(١) الغرب : نوع من الشجر سهل الكسر

(٢) الهينمة : الصوت الخفى

(٣) أعرج (الثانية) : أصعد وأرق

(٤) النقار : الواشى العائب النمام

(٥) الزائر : الأسد

(٦) نزور : قليلة الولد

(٧) النابح : الكلب . نثور : كثيرة الأولاد .

(٢) المقامات

وأما المقامات فقد ألفها سنة ٥١٢ هـ ، لأنه قال إنه أصيب فى تلك السنة بالمرضة الناهكة التى سماها المنذرة ، فأخذ على نفسه الميثاق إن مَنَّ الله عليه بالصحة ألا يطأ عتبة السلطان ولا أعوانه ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم ، وأن يعف عن التطلع إلى عطاياهم ، ويجتهد فى محو اسمه من الديوان ، ويبتهل إلى ربه ويتنسك[1] .

وكان تأليفها أو شرحها بعد نوابغ الكلم ، لأنه شرح كلمة نقار فى صفحة ٧٢ من المقامات ، وقال : وفى نوابغ الكلم : لن يسور النَّقَّار ما اسود القار ، وشرح كلمة نثور فى صفحة ٢٣٠ فقال : وفى النوابغ أم الزائر نزور ، وأم الناجح نثور[2] .

ويفهم مما ذكره فى الشرح أن تأليفها أو شرحها كان بعد الكشاف[3] ، وكان بعد الفائق فى غريب الحديث[4] .

ويظهر أنه كتبها فى مكة ، لأنه أشار إلى البيت العتيق بقوله : أسأل الله أن يفعم لك سجال النعم ، ويعينك على إفادة أهل الحرم ، ويكتبك ببركة هذا البيت العتيق فى زمرة العتقاء من النار[5] .

وهى خمسون مقامة ، موضوعها النصح والإرشاد والعظة ، موجهة إلى نفسه ، مصدرة كل منها بقوله : يا أبا القاسم . ولكل منها عنوان مثل : مقامة المراشد ، مقامة التقوى ، مقامة الرضوان ، مقامة الزهد ، مقامة الصمت ، مقامة القناعة ، مقامة العفة ، مقامة التوحيد ، مقامة الشهامة ، مقامة العزم ، مقامة أيام العرب .

---

(١) المقامات ٦ (٢) سـ ق شرح الكلمات فى نماذج نوابغ الكلم
(٣) شرح المقامات ١٠٥ (٤) شرح المقامات ٥٥
(٥) مقدمة المقامات ٣

وهى وإن خالفت مقامات الحريرى فى الموضوعات والغاية فإنها محاكاة لها فى الأسلوب المسجع الحافل بالمحسنات .

وقد شرحها الزمخشرى نفسه شرحا مفصلا ، تعرض فيه للغة والبلاغة والنحو ، واستشهد بكثير من آيات القرآن الكريم والحديث النبوى وشعر العرب وأمثالهم وأخبارهم ، كقوله[1] :

الطائر يحمى بيضته ويرفرف عليها ، فضرب مثلا لما يذب عنه الإنسان من حوزته وحقيقته ، فيقال فلان يحمى بيضته ، ولو قيل فلان يرفرف بجناحه على بيضة الإسلام لكان مجازا مرشحا .

فإن قلت : مابالهم قالوا: أذل من بيضة البلد مع قولهم أعز من بيضة البلد ؟ قلت : هى بيضة النعامة ، وأضيفت إلى البلد وهى المفازة ، لأنها تباض فيها ، وأمها تتركها فتحضنها أخرى ، فلما كانت متروكة من ناحية محضونة من أخرى وصفت بالعزة والذلة ، فقيل :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته ما أقام الروح فى جسدى
لكن قاتله من لايعاب به وكان قِدْمًا يسمى بيضة البلد

والقائل أخت عمرو بن ودّ فى على رضى الله تعالى عنه وقتله أخاها .

وقيل المراد بالبيضة التى هى مثل فى الذل الكمأة البيضاء ، لأن الأرض تبيضها ، أو تشبيهها بالبيضة ، فهو كقولهم أذل من فَقْعٍ بقَرْقَر .

وقوله فى شرح « اسْتَنْبَقَلَ من الدهش » إنها كلمة موضوعة ، استفعل ، من باقل المضروب به المثل فى العىّ ، قيس على استنوق الجمل ونظائره ، نحو استنبط

---

(١) شرح المقامات ١٥

العرب ، واستعرب النبيط[1] . ولكن لم يذكر هذا الاستعمال فى أساس البلاغة .

وهذه نماذج من المقامات

١ — قال فى مقامة العزلة[2] :

يا أبا القاسم، أزلْ نفسك عن صحبة الناس واعْزِلها ، وائت قُرْعة من قراع الجبل فانْزِلها ، ولُذْ ببعض الكهوف والغيران ، بعيدا من الرفقاء والجيران ، حيث لا تُعَاقُ طرفك إلا بسوادك ،[3] ولا تجرى مؤامرتك[4] إلا مع فؤادك ، ولا توصِلْ إلى سمعك إلا همسك ومناجاتك ، وإلا جؤارك[5] ومناداتك . . .

قاتل الله بنى هذه الأيام ، فإنهم طلائع الشرور والآثام ، جوارهم غِوار ، ونقالهم[6] نِقار ، ووفاقهم نفاق ، تُشاق بألسنتهم الأعراض ، كما ترشق بسهامهم الأغراض[7] . . . .

٢ — ويختم بعضها بشعر من إنشائه ، كقوله فى مقامة الزهد[8]

طوبى لعبد بحبل الله مُعْتَصَمُهْ   على صراط سوىّ ثابتٍ قَدَمُهْ

رث اللباس جديد القلب مستتر   فى الأرض مشتهر فوق السماء سِمُهْ[9]

إذا العيون اجتلَتْه فى بَذاذته   تعلو نواظرها عنه وتقتحمهْ[10]

(١) المقامات ١٠١   (٢) المقامات ٧١

(٣) السواد : الشخص   (٤) المؤامرة : المشاورة

(٥) الجؤار : رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة ، وفى التنزيل (إذا هم يجأرون)

(٦) نقالهم : مناقلتهم الكلام . نقار : منافرة ينقر بعضهم بعضا بالعيب ، وفى نوابغ الكلم لن يسود النقار ، ما اسود القار .

(٧) تشاق : تضرب ، قال تعالى : سلقوكم بألسنة حداد

(٨) المقامات ٢٥

(٩) السم: الاسم ومعنى البيت مبنى على قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : كونوا جدد القلوب خلقان الثياب تخفون فى الأرض تعرفون فى السماء .

(١٠) البذاذة: ترك التكلف فى المطعم والملبس .

مازال يستحقر الدنيا بهمّتِهِ   حتى ترقّتْ إلى الأخرى به همه

فذاك أعظم من ذى التاج متكئا   على النمارق مُحتفًّا به حشمه

٣ — وفى نهايتها خمس مقامات ، ملأ الأولى باصطلاحات نحوية ، وسماها (مقامة النحو) وملأ الثانية باصطلاحات عروضية ، وسماها (مقامة العروض) وملأ الثالثة باصطلاحات القافية وسماها (مقامة القوافى) والرابعة اختص بها اصطلاحات ديوانية وسماها (مقامة الديوان) مثل الطّساسيج[1] والتأريج[2] والروزنامج[3] والأسكرار[4] ، والخامسة قصرها على ذكر أيام العرب وسماها (مقامة أيام العرب) وهذه المقامات الخمس مثقلة بالتكلف والتمحل ، وإن دلت على مهارة فى اللعب بالألفاظ .

فمن مقامة النحو قوله[5] :

يا أبا القاسم أعجزتَ أن تكون مثل همزة الاستفهام، إذْ أخذت على ضعفها صدر الكلام ؟ ليتك أشبهتها متقدما فى الخير مع المتقدمين ، ولم تشبه فى تأخُّرك حرف التأنيث والتنوين ، ضارع الأبرار بعمل التّواب الأوّاب ، فالفعل لمضارعته الاسم فاز بالإعراب ... ولا يكونن ضميرك عن الهم الدينى ساليا ، كما لا يكون أفْعَل من الضمير خاليا ...[6] .

ومن مقامة العروض قوله[7] :

يا أبا القاسم، لن تبلغ أسباب الهدى بمعونة الأسباب[8] والأوتاد[9] أو يبلغ

(١) الطساسيج : أقساط السواد سميت بأقساط المثقال وهو أربعة وعشرون طسوجا .

(٢) التأريج : تعريب تاريك وهو المظلم وهو سواد يعمل للعقد إذا احتاجوا إلى حل الأبواب

(٣) الروزنامج: تعريب روزنامه وهو ما يكتب فيه ما يجرى كل يوم من استخراج ونفقة

(٤) الأسكرار : كتاب يكتب فيه عدد الخرائط والكتب الواردة والنافذة

(٥) المقامات ١٨٠   (٦) شرح بتفصيل المراد من هذه المصطلحات

(٧) المقامات ١٨٦

(٨) السبب اسم لحرفين وهو سبب خفيف نحو قل وسبب ثقيل نحو بِمَ ...

(٩) الوتد اسم لثلاثة أحرف نحو نعم ونحو قال ...

أسباب السماوات فرعون ذو الأوتاد . إن الهُـدَى فى عَرُوض سِوَى علم العَرُوض [1] فى العلم والعمل بالسنن والفروض ، ما أحوج مثلك إلى الشغل بتعديل أفاعيله ، عن تعديل وزن الشعر بتفاعيله [2] .

(٣) أطواق الذهب

وأما أطواق الذهب فى المواعظ والخطب فإنه مئة مقالة ، كل منها فى بضعة أسطر بغير عنوان ، أنشأها فى مكة قبل تأليف الكشاف ، قال فى المقدمة : « أسألك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ، وأن تحفظ فيها ما وجب للجار ، من حق الذِّمام والذِّمار ، لأنها وجدت فى حرمك المطهر ، وولدت فى حِجْر بيتك المُستَّر » [3]

وقال الميرزا يوسف خان الأشتيانى فى شرحه لها : يريد أنه أنشأ تلك المقالات بمكة أجلها الله تعالى ، وذلك أنه كان يطوف بيت الله ، وإذا فرغ من الطواف ألف مقالة ، ثم يقوم ويطوف وينشئ بعد الفراغ ، ومازال على ذلك إلى أن بلغت مئة كاملة [4] .

وشرحها أيضاً الشيخ يوسف أفندى الأسير .

ثم ألف شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله المغربى الأصفهانى كتابه أطباق

---

(١) العروض : الجانب والناحية . وسمى هذا العلم بالعروض لأنه ناحية من نواحى العلم، أو باسم الجزء الأخير من أجزاء المصراع الأول، كما قيل لعلم المواريث علم الفرائض لقول الفرضيين فريضة الزواج كذا وفريضة الأم كذا ، وقيل العروض عمود البيت وقيل السعة التى فى وسطه، أخذ الخليل هذه الأسماء من بيت العرب وهى السبب والوتد والفاصلة والعروض والضرب لشبهها لبيت الشعر ببيت الشعر .

(٢) تفاعيل الشعر سبعة خماسيان وهما فعولن وفاعلن وخمسة سباعية وهى الأفاعيل والأركان والمضادات والمساطع والأوزان

(٣) أطواق الذهب ٩ (٤) قلائد الأدب فى شرح أطواق الذهب ٩

الذهب على غرار أطواق الذهب ، وقال إننى حذوت حذوه ، واقتفيت أثره وخطوه [1] .

ثم حاكاهما السيد توفيق البكرى فى كتابه صهاريج اللؤلؤ ، ثم أحمد شوقى فى كتابه أسواق الذهب ، مع اختلاف الموضوعات وتفاوت العبارات .

وهذه نماذج من أطواق الذهب :

١ — من عرف منهل الذل فعافه ، استعذب نقيع العز وذُعافه [2] ، ومن لم يصطل بجَرّ الهَيْجاء لم يصل إلى بَرّ المَغْنم ، ومن لم يصبر على براثن أُسْد اللقاء لم يصب أطرافا كالعنم ، [3] ومن لم يُقْضَ عليه عُسْرٌ يَقِذْه [4] ، لم يقيض له يُسْرٌ ينقذه [5] .

٢ — الدنيا أدوار ، والناس أطْوار ، فالبس كل يوم بحسب مافيه من الطوارق [6] ، وعاشر كل قوم بقدر مالهم من الطرائق [7] ، فالأيام لا تجرى على وفق مُرادك ، والأيام لا تَسْرِى على طِبْق تأويبك وإسْآدك [8] .... [9]

٣ — يابن آدم ، أصلك من صَلْصال كالفخار ، وفيك ما لايسعك من التِّيه والافتخار ، تارة بالأب والجَدّ ، وأخرى بالدولة والجَدّ ، ما أولاك بألا تصعِّر خَدَّيك ، ولا تفتخر بجَدَّيك . تبصر خليلى مِمَّ مَرْكبك ، وإلام منقلبك . فخفِّضْ من غُلَوائك ، وخَلِّ بعض خيلائك » [10] .

---

(١) أطباق الذهب ٧ (٢) الذعاف : السم الشديد

(٣) العنم : شجر لين الأغصان تشبه به بنان الحسان .

(٤) يقذه : يوجعه

(٥) أطواق الذهب ٤٢ (٦) الطوارق : الشئون والأحداث

(٧) الطرائق : المذاهب

(٨) التأويب : السير من أول النهار . الإسآد : سير لاإقامة فيه .

(٩) أطواق الذهب ٦١ (١٠) أطواق الذهب ١٢

٤ — العلماء السوء جمعوا عزائم الشرع ودَوَّنوها ، ثم رخَّصوا فيها لأمراء السوء وهونوها ، ليتهم إذ لم يراعوا شروطها لم يعوها ، وإذ لم يُسْمعوها كما هى لم يجمعوها [1] .

٥ — ذو الحقيقة لا يَغُرُّه ديباج الملوك ، ولا يعبأ إلا بعَباءة الصُّعلوك ، يقول : وراء الديباجة ليل دامس ، وتحت العباءة نهار شامس [2] .

(٤) النصائح الصغار والبوالغ الكبار

مجموعة من النصائح والحكم فى صور مقالات قصار عددها نحو التسعين . منها قوله :

١ — القاضى تعمل فيه الرشوة ، ما لا تعمل فى الشارب النَّشْوة ، إن أتته فسكران مَيْلاً وطرباً ، وإن فاتته فثكلان وَيْلاً وحَرَبا ، كأنه لم يسمع أن الرشوة من السُّحْت ، وأن السحت مأخوذ من السَّحْت [3] .

٢ — من لم يحفظ ما بين فَكَّيْه ، ظل يُقَلِّب كَفَّيْه ، وبات يتململ على دَفَّيْه [4] ، حزنا على ما فرّط فيه من التحفظ ، وأسفاً على ما فَرَط منه من التَّلَفُّظ ، ولو كان اللسان مخزوناً لم يكن الفؤاد محزوناً ، قلما يحرس مهجته من لم يحرس لهجته ، ولن نجد على السر أميناً ، إلا بكل أمانة قمينا .

(١) أطواق الذهب ٨١

(٢) شامس : مشرق . أطواق الذهب ١٤٥

(٣) السحت : بضم السين الحرام وفتحها الاستئصال

(٤) الدف : الجنب

(٥) ربيع الأبرار

وأما ربيع الأبرار فقد ألفه بعد نوابغ الكلم وبعد ديوان شعره وبعد ديوان المنثور [1] .

وموضوعه كما قال فى مقدمته « إجمام خواطر الناظرين فى الكشاف عن حقائق التنزيل ، وترويح قلوبهم المتعبة بإجالة الفكر فى استخراج ودائع علمه وخباياه ، والتنفيس عن أذهانهم المكدودة باستيضاح غوامضه وخفاياه » .

وقد عرض فيه لكثير من الموضوعات مثل الأوقات وذكر الدنيا والآخرة ، والسماء والكواكب ، وذكر العرش والكرسى ، والسحاب والمطر والثلج والرعد والبرق وما يتصل بذلك من ذكر الاستمطار وغيره ، والهواء والريح والنسيم والحر والبرد والظل ، والنار وأنواعها وأحوالها وذكر نار جهنم وأحوالها والسراج والشمعة ونحو ذلك ، والأرض والجبال والحجارة والحصى وجواهر الأرض والمفاوز وذكر الرجفة والخسف ، والماء والبحار والأودية والأنهار والعيون والآبار وما اتصل بذلك وناسبه من ذكر السفن والسباحة وغيرها ، والشجر والنبات والفواكه والرياض والبساتين وذكر الجنة ، والبلاد والديار والأبنية وما يتصل بها من ذكر العمارة والخراب وحب الوطن ، والجنون والحمق والسفه والغفلة والحزن والعجلة وترك الأناة والفضول ، والرسوم فى معاشرة الناس وعلاقاتهم ومصافحتهم ومجالستهم ومراسلاتهم وذكرهم وزيارتهم ، وذكر السلام والتحية وآداب النفس وما يتصل بذلك ، والقصاص وما ورد من حكاياتهم وملحهم ، والمتصوفة وما جاء فى أكلهم ورزقهم ، والمنطق وذكر

(١) ديوان الشعر ٢٣ ، ٢٤ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٧٠

الخطب والشعر والفصاحة والبلاغة والعى والإفحام والإيجاز وما اتصل بذلك ، والنساء ونكاحهن وطلاقهن وخطبتهن والإعراس بهن ومعاشرتهن وما يحمد ويذم منهن .

وهو يعتمد فى هذا الكتاب على النقل من بعض كتبه ، ومن الجاحظ ، وغيره ، ويذكر كثيراً من الأحداث والأخبار والأشعار ، وما روى عن السابقين فيها وفيما يتصل بها ، فنجد كثيراً من الأسماء تتردد مثل عمر بن الخطاب وابن عباس وعلى بن أبى طالب والخدرى والحسن وأنس بن مالك ووهب بن منبه وأحمد بن يوسف والصنوبرى والمأمول والفرزدق وابن مسعود وابن الرومى والأصمعى والحجاج وعبد الملك بن مروان وبديع الزمان الهمذانى وسهل بن هارون وأنوشروان الخ .

ومن هذا يتبين أن الكتاب مجموعة من المعارف والطرائف أكثره بعبارات غيره. وهذه نماذج منه .

١ — قال فى معاشرة الناس وملاقاتهم ومصافحتهم ومراسلتهم وذكرهم وزيارتهم [1] .

جابر رضى الله عن النبى صلى الله عليه وسلم: من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراأوا ، والمصافحة إذا تلاقوا ، والزائر فى الله حقٌّ على المزور إكرامه .

كان القعقاع بن ثور الهذلى إذا جالسه رجل جعل له نصيبا من ماله ، وأعانه على حوائجه ، وغدا إليه شاكرا .

عن محمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان قال : بعثنى أبى إلى المعتضد فى

(١) ربيع الأبرار ورقة ١٥١

شئ ، فقال لى : اجلس . فاستعظمت ذلك ، فقلت إنه لا يجوز ، فقال لى : يا محمد ، إن أدبك فى القبول منى خير من أدبك فى قيامك .

قال رجل لأبى خليفة الجمحى : ما أحسبك تنسبنى ، قال : وجهك يدل على علو نسبك ، والإكرام يمنع من مسألتك ، فأوجد السبيل إلى معرفتك .

قال أبو تمام :

يحميه لَألاؤه ولَوْذَعِيَّتُهُ   من أن يقال مَن أو ممَّن الرجلُ؟

وفى معناه

ارم بعينيك فى مفارقنا   فمَعْقِد التاج غير ملتثم

المعرى :

ولو كتموا أنسابهم لعرفتهم   وجوهٌ وفعلٌ شاهدٌ كل مشهد

ابن عباس : لجليسى علىَّ ثلاث : أن أرميه بطرفى إذا أقبل ، وأوسع له إذا جلس ، وأصغى إليه إذا حدث .

زار الخليل بعض تلامذته فقال له : إن زرتنا فبفضلك ، وإن زرناك فلفضلك ، فلك الفضل زائرا ومزورا .

أراد رجل أن يقبل يد هشام بن عبد الملك فقال : لا تفعل ، فإنما يفعله من العرب الطَّمِعُ ومن العجم الطبيعة .

قال رجل للمنصور : أعطنى يدك أقبلها ، قال: إنا نصونك عنها ، ونصونها عن غيرك .

سأل بعض أصحاب أبى حنيفة الشافعى عن مسألة ، فأجاب عنها ، فقال له : أخطأت . فقال : لو كنتُ مكانك ثم كلمتك بمثل ما كلمتنى لاحتجت إلى أدب .

كان أردشير إذا تمطى قام سُمّاره، وكان قباذ إذا رفع رأسه إلى السماء قاموا.

بهرام جور: إذا لم تصد قلوب الأحرار بالبشر والبر فبأى شيء تصيدها؟

معاوية: نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط، وأكلت الطعام حتى لا أجد ما أُمرئ به، وشربت الأشربة حتى رجعت إلى الماء، وركبت المطايا حتى اخترت نعلى، ولبست الثياب حتى اخترت البياض، فما بقى من اللذات ماتتوق إليه نفسى إلا محادثة أخ كريم.

لبيد:

ما عاتب المرء اللبيب كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح

٢ — وقال فى القُصّاص والمتصوفة(١):

خباب بن الأرتّ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن بنى إسرائيل لما قصوا هلكوا.

ابن عمر رضى الله عنه: لم يقص على عهد رسول الله ولا عهد أبى بكر ولا عهد عمر وعثمان، وإنما كانت القصص حين كانت الفتنة.

ابن المبارك: سألت الثورى: من الناس؟ قال: العلماء، قلت: من الأشراف؟ قال: المتقون، قلت: من الملوك؟ قال الزهاد، قلت: من الغوغاء؟ قال: القصاص الذين يأكلون أموال الناس بالكلام.

وهب رجل لقاص خاتما بلا فص، فقال: وهب الله لك فى الجنة غرفة بلا سقف.

قال ابن السمّاك للمتصوفة: إن كان لباسكم هذا موافقا لسرائركم لقد أحببتم أن يطلع الناس على سرائركم، ولئن كان مخالفا لسرائركم لقد هلكتم.

قال بعضهم: قلت لصوفى بعنى جبتك. فقال إذا باع الصياد شبكته فبأى شيء يصيد؟

(١) ربيع الأبرار ورقة ٢٨٩

٣ — وقال فى النساء ومعاشرتهن (١): —

عوتب الكسائى فى ترك الزواج فقال: مكابدة العفة عنهن أيسر من الاحتياج لمصلحتهن.

قيل لأعرابى يجمع بين ضرائر: كيف تقدر عليهن؟ قال: كان لنا شباب يطاوعهن علينا، ومال يَصُورهن إلينا، ثم قد بقى لنا خلق حسن، فنحن نتعاشر به.

خطب بنت دقيانوس غنى وفقير، فاختار الفقير، فسأله الإسكندر، فقال: كان الفتى جاهلا وكان يخاف عليه الفقر، والفقير عاقلا فكان يرجى له الغنى.

قال مصعب لسكينة: أنت مثل البغلة لا تلدين. قالت: لا والله ولكن أبى كرمى أن يقبل لؤمك.

الأحنف: لأفعى تحكك فى يدى أحب إلى من أيّم رددت عنها كفئا.

قال عمر رضى الله عنه لرجل هم بطلاق امرأته وزعم أنه لا يحبها: أو كل البيوت تبنى على الحب، فأين الرعاية والتذمم؟.

قال عبد الملك لابن الرقاع: كيف علمك بالنساء؟ قال: أنا والله أعلم بهن، وأنشأ يقول:

قُضاعيّةُ العينين كِنْديّةُ الحشا   خُزاعية الأطراف طائيّة الفم

لها حكم لقمان وصورة يوسف   ومنطق داود وعفة مريم

سئل المغيرة بن شعبة عن النساء، فقال: بنات العم أحسن مواساة، والغرائب أنجب، وما ضرب رءوس الأقران مثل ابن السوداء.

أبو عمرو بن العلاء عن رجل: لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدى منها. قيل: وكيف؟ قال: أنظر إلى أبيها وأمها فإنها تجيء بأحدهما.

(١) ربيع الأبرار ٣٥٨

الفصل العاشر

فى روضة الشعر

خلف الزمخشرى ديوان شعر فى ١١٩ ورقة[١]، جمع قصائده استجابة لمشورة ابن وَهّاس كما ذكر فى المقدمة .

فأما موضوعات هذا الديوان فأهمها :

١ — المدح ، ففيه مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم[٢] ، ومدائح لابن وهاس[٣] ، ولنظام الملك[٤] ، وللملك سنجر[٥] ، ولعبيد الله بن نظام الملك[٦] ، ولعبدالله[٧] ولمعين الدولة[٨] ، ولمجير الدولة[٩] ، ولفخر المعالى[١٠] ، وللوزير محمد[١١] ، وللموفق[١٢] ، ولمحمد خوارزمشاه[١٣] ، ولمحمد بن أبى الفتح السلجوقى[١٤] ، ولبنى زَرِير بهمدان فقد زارهم أيام إقامته بالحجاز[١٥] .

٢ — الشكوى من الزمان ومن الناس ومن معاندة الحظ .

٣ — الغزل .

---

(١) راجم مؤلفاته (٢) الديوان ٨٩

(٣) الديوان ٢٧ (٤) الديوان ٩٤

(٥) الديوان ٢٠

(٦) الديوان ٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ١٠٦

(٧) الديوان ١٤ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٩٩ ، ١٠٥

(٨) الديوان ١٥ (٩) الديوان ٢٢

(١٠) الدوان ٢٧ (١١) الديوان ٣٣

(١٢) الديوان ٧٤ (١٣) الديوان ٨٢ ، ١٠٦

(١٤) الديوان ٨٥ (١٥) الديوان ١١٠

٤ — الفخر .

٥ — الحكمة .

٦ — التزهيد .

٧ — المراسلات والرد على الإخوان والشوق إليهم .

٨ — الحنين إلى مكة .

٩ — الرثاء ، كرثائه لمحمد بن أرسلان[١] ولسراج الدولة[٢] ولابن سمعان[٣]

خصائص شعره

١ — أما الطابع العام[٤] لشعر الزمخشرى فإنه شعر عالم امتزجت نفسه بالحقائق العلمية وقضاياها ، وأخذ نفسه بجد الحياة وواقعها ، فكان ينبوع عواطفه وَشَلاً تارة وناضبا تارة ، وقلما تفجر دافقا فياضا ، فجاء خياله من القريب الذى لا يحلق فى الآفاق البعيدة ، وجاءت صوره تكريرا لما رسم سابقوه .

وأما أسلوبه فرصين جزل لا تحس فيه بضعف أو تهافت فى أية قصيدة من قصائده .

٢ — وهو يبدأ بعض مدائحه بغزل تمهيدى لا حرارة فيه ، على طريقة كثير من القدماء ، كقوله فى مدح الوزير مجير الدولة الأردستانى[٥] :

أيا حبذا سُعْدى وحُبٌّ مُقامُها ويا حبذا أين استقلَّ خيامها

حياتى وموتى قربُ سعدى وبُعْدُها وعزى وذلى وصْلُها وانصرامها

سلام عليها أين أمست وأصبحت وإن كان لا يُقرأ علىَّ سلامها

---

(١) الديوان ١٦ ، ٣٢ (٢) الديوان ٣٦

(٣) الديوان ٧٠

(٤) حينما كنت أقرأ مخطوطة الديوان لأكتب فى تفصيل عن شعر الزمخشرى عرض على أحد أبنائى من طلبة الدراسات العليا أن يعد رسالته عن الزمخشرى الشاعر وتحقيق ديوانه بإشراف ، فاكتفيت بهذه الإشارات .

(٥) إنباه الرواة ٣/٢٦٧ وقال أن الوزير خلع عليه وأعطاه فرسا وألف دينار

رعى الله سَرْحاً قدرعى فيه سرحُها ... ورَوَّضَ أرضاً سام فيها سَوامها[١]

إذا سَحَبَتْ سعدى بأرضٍ ذيولها ... فقد أرغمَ المسكَ الذكىَّ رَغامُها[٢]

وإن مايَسَتْ قضبانَ بانٍ رأيتها ... تنكَّسُ واستعلى عليها قوامهـا

ويمثل هذا الغزل بدأ مدحته لصدر الملك[٣] .

٣ — ويقدم لبعضها بالشكوى من سوء حاله ، والفخر بعلمه وأدبه ، والسخط على الدهر الذى جاد على الجهال ، وبخل على العلماء ، كقوله فى مِدْحة لنظام الملك[٤] :

خليلىَّ هـل تجدى علىَّ فضائلى ... إذا أنا لم أرْفَعْ على كل جاهل ؟

من الغبن ذو نقص يصيبُ منازلا ... أخو الفضل محقوقٌ بتلك الفضائل

ومن لى بحق بعد ما وَفَّرَتْ على ... أراذلهـا الدنيا حقوقَ الأماثل ؟

كذا الدهر كم شوهاء فى الحَلْىِ جيدها ... وكم جيـدِ حسناء المقلَّدِ عاطل

ومـمـا شجانى أن غُرَّمنا قبى ... تغنَّى بهـا الركبان بين القوافل

وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى ... وسـارت مسير النيِّرات رسائلى

ولى فى دقيق النحو والنقد منطقٌ ... إذا قلته لم أبْقِ قولا لقـائل

غنىٌّ من الآداب لكننى إذا ... نظرتُ فما فى الكف غيرُ الأنامل

فياليتنى أصبحتُ مستغنيا ولم أكنْ ... فخرَ خُورَزْمٍ ورأسَ الأفاضل

وياليتنى مُرْضٍ صديقى ومُسْخِطٌ ... عدوى وأنى فى فهاهة باقـل

(١) سرحها : إبلها وأنعامها . سام فيها سوامها : رعت فيها إبلها .

(٢) الرغام : التراب .

(٣) الديوان ١٢

(٤) الديوان ٩٤

فلستُ بفضـلى بالغـاً ولو اننى ... كقسِّ إيادٍ أو كسحبانِ وائل

ويصرح بطلب العطاء فى بعض المدائح ، كقوله لنظام الملك[١] :

وكم قلت ألقى فى وزارتك المُنَى ... وأدركُ وحدى ما ارتجى كلُّ آمل

ولم أدر أن الأرذلين يَرَوْنَ ما ... تمنَّوا وأنى لست أحظى بطائل

فوقِّعْ إلى هـذا الزمان فإنه ... غلامك يجعلنى كبعض الأراذل

وقوله فى مدح عبيد الله[٢] :

لقد طُفْتُ فى نجـد البلاد وغَوْرها ... فما كان إلا بالوزير مُعَرَّجى

وما أرتجى إلا عطيـة كفه ... وهل غير هذى الكف كهفٌ لمرتجى ؟

وقوله[٣] :

وابْذُلْ لأهل الفضل منك مودةً ... فابن الفضـائل لابنهن وَدُودُ

ومتى بذلت لهـم ودادا فليـكن ... متخصصا بزيادة محمـودُ

ونلاحظ أنه لم يقتصر على الطلب الصراح ، بل جهر بأن يؤثره وحده فى قوله : « وأدرك وحدى ما ارتجى كل آمل » .

وطالب بأن يكون أعظم نوالا من سواه فى قوله :

ومتى بذلتَ لهم ودادا فليـكن ... متخصصاً بزيادة محمـود

وهو فى هذا الطلب الصراح يشبه جريراً فى قوله لعبدالملك بن مروان[٤] :

أغثنـى يافـداك أبى وأمـى ... بسَيْبٍ منـك إنك ذو ارتياح

سأشكر إن رددتَ علىَّ ريشى ... وأنبتَّ القـوادمَ فى جناحـى

(١) الديوان ٩٤

(٢) الديوان ٣٢

(٣) الديوان ٣٥

(٤) الأغانى ٥/٦٥

وقوله لعمر بن عبد العزيز[١] :

إنى لآمل منك خيراً عاجلا — والنفس مولعة بحب العاجل

والله أنزل فى الكتاب فريضة — لابن السبيل وللفقير العائل

ويشبه المتنبي فى قوله لكافور[٢] :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله — فإنى أغنّى منذ حين وتشرب

وهبت على مقدار كفّى زماننا — ونفسى على مقدار كفيك تطلب

وقوله له[٣] :

أرى لى بقربى منك عينا قريرة — وإن كان قربا بالبعاد يُشاب

وهل نافعى أن تُرفع الحجب بيننا — ودون الذى أمّلت منك حجاب؟

وفى النفس حاجات وفيك فطانة — سكوتى بيان عندها وخطاب

٤ — ويبرع فى حسن التخلص من الغزل التمهيدى إلى المدح ، فيصور نفسه مهيض الجناح من كثرة ما صوب الدهر إليه سهامه ، ولكنه صار فى رعاية الأمير الذى يقيه سهام الدهر وخطوبه ، فيقول[٤] :

أزمعوا السير بُكرة واستقلوا — سقط الغيث حيث ساروا وحلّوا

استقلوا فكيف لى بحياة — ولقدمت قبل أن يستقلوا

استحلّوا دمى وفىّ صلاح — ودم الصالحين لا يُستحل

غلبتنى الدُّمى وهن ضعاف — ربما يغلب الأعز الأذل

واستنزلت سعاد منى رزينا — ثابت الحلم والحليم يذل

(١) ديوان جرير ٤١٥
(٢) ديوان المتنبي ١٢٦/١
(٣) ديوان المتنبي ١٣٩/١
(٤) الديوان ١٠٢

لا تروعنك كسرة بجناحى — إنما يمدح اليمانى الأفل

عجمت عودى النوائب قدماً — تلك آثارها علىّ تدل

وأنا اليوم إن عرتنى خطوب — فلّ أنيابها الأمير الأجل

إنما حضرة الأمير لمن يشكو صروف الزمان شمس وظل

كما يحسن التخلص من الشكوى إلى المدح ، فإنه فى قصيدته التى مدح بها نظام الملك[١] صور آلامه من تعاسة حالته ، وازدهى بثقافته وكفايته ، وعجب من التغاضى عنه ، والحنو على غيره ، وتخلص من هذا إلى المدح بقوله :

وما حق مثلى أن يكون مُضيّعا — وقد عظمت عند الوزير وسائلى

وأعظمها أنى نسيبُ نصابه — إذا عُرضت أنسابُ هذى القبائل

وقد كان يرعى الناس حق قبله — على عدم القربى وبُعد الوصائل

٥ — ويعنى بالمحسنات، كما ترى الطباق فى البيت الثانى من الغزل بين حياتى وموتى،وبين قرب وبعد ، وعز وذل، ووصل وانصرام ، وكما ترى فى البيت الثالث بين (سلام عليها) و (إن كان لا يقرا على سلامها) وبين أمست وأصبحت .

وتجد الجناس فى البيت الرابع بين (رعى الله) بمعنى حفظ من الرعاية و(رعى فيه سرحها) من الرعى والأكل ، وبين (سرحا) و (سرحها) وبين (روض) و (أرضا) و (سام) و (سوام) .

وهذا الكلف بالمحسنات واضح فى قوله يمدح بنى زرير[٢] :

كم قلت فى خُورَزم عند ترحّلى — لركائبى سيرى إلى همدانا

وإلى الكرام بنى زرير لم تزل — تجفو بنات غرير الأوطانا[٣]

(١) سبقت أبيات منها فى طريقته التى بدأ بها قصائد المدح .
(٢) الديوان ١١٠
(٣) بنات غرير : الطيور

وبنو زرير ما تُزَرُّ ثيابهم ... إلا على الهضبات من تَهْلانا

٦ — وهو حين يعبر عن عاطفة صادقة جياشة يتحرر من المحسنات المتصيدة ، لأنه يندمج مع الفكرة أو مع الشعور ، كقوله فى تصوير ضيقه بالإقامة فى خوارزم (١) :

أحبُّ بلاد الله شرقا ومغربا ... إلىَّ التى فيها غُذيت وليدا
ولكن تواسى بالكرامة غيرُها ... وهذى أرى فيها الهوان عتيدا
وما منزل الإذلال للحر منزلا ... وإن كان عيش الحر فيه رغيدا
سأرحل عنها ثم لست براجع ... وأضربُ مرمًى فى البلاد بعيدا
فلا كنت إن ضِمْتُ فيها ابنَ حرة ... ولا عشت بين الصالحين حميدا

وقوله وهو قاصد مكة عازم على الإقامة بها حتى الموت (٢) :

قامت لتمنعنى المسير تُماضرُ ... أنَّى لها وغِرارُ عزمى باترُ
سيرى تماضر حيث شئتِ وحدِّثى ... أنى إلى بطحاء مكة سائر
حتى أنيخ وبين أطمارى فتًى ... للكعبة البيت الحرام مجاور
سأقيم ثَمَّ وثَمَّ تُدْفَنُ أعظمى ... ولسوف يبعثنى هناك الحاشر

وقوله فى مدح ابنَ وهّاس (٣) :

فتًى هو حالٍ بالمعالى بأسرها ... وقد حَلِيَتْ منه المعالى بأوحدا
نجيبٌ نَمَتْهُ من ذُؤابة هاشم ... نقيّاتُ أعراقٍ أطابته مَوْلدا
ولو شاء لم يعتدَّ مَحْتِدَ هاشم ... نِصابا كفاه بالنبوة مَحْتِدا

---

(١) الديوان : ٣٧ .
(٢) الديوان : ٤٢ .
(٣) الديوان ٢٨

وتقرأ من سيماه فى قسماته ... شهادةَ حقٍّ أنه سِبطُ أحمدا
هو الحرُّ ما أصْدَى إلى بيض معشر ... فأبصِرُه إلا نقعْتُ به الصَّدى
ولى منه نُضْحُ الجَيْب والعُقدة التى ... أبَتْ أن يرى الراءون أوثق مَعْقِدا

٧ — وقد يلجأ إلى المبالغة الدالة على نضوب العاطفة ، كقوله فى مدح الملك سنجر (١) :

سمّاه كل الناسِ كعبةَ سؤددٍ ... أهلُ الحوائج منهمُ حُجّاجها
وكأنما السلطان سنجر كعبة ... للملك منتجبُ الملوك رِتاجها
رِكبَ السياسةَ وهى أصعب مركب ... فتطامنت لركوبه أنتاجها
ألِفَتْهُ دونهمُ فما إلجامها ... إلا على يده ولا إسراجها
لو أنه ركب النجومَ لما نبتْ ... أفرادها عنه ولا أزواجها
جَهْمُ المحيا للعدا طلقٌ إذا ... ضيفانه نزلتْ به أفواجها
يجرى إليهم سَيْبُهُ بأنامل ... مِثلَ البحار تلاطمتْ أمواجها
تبغى الحقيقةَ فى أمورك كلها ... إن الحقيقة واضحٌ منهاجها
لو أن عدلك شُبْتَه بمياهها ... لارْتَدَّ كالعذب الفُرات أُجاجها

والمبالغة المغرقة واضحة فى كثير من الأبيات وبخاصة البيت الخامس والتاسع.

٨ — وللزمخشرى حكم صاغها شعراً ، كما أن له حكماً كثيرة صاغها نثراً ، ولكن حكمه الشعرية لا ترقى إلى أوج حكم المتنبى وأبى العلاء ، لأنها لا تصور دخائل النفوس ، واصطراع العواطف ومشكلات الأفراد والجماعات ،

---

(١) الديوان ٢٠

والطب الناجع فى علاج هذه المشكلات ، وإنما هى أقرب إلى الوعظ المألوف والنصح المعتاد ، كقوله[١] :

ليسَ السيادةُ أكماماً مطرَّزَةً ... ولا مراكيب يجرى فوقها الذهب
وإنما هى أفعال مذهبـــةٌ ... ومكرماتٌ يليها العقل والأدب
وما أخو المجد إلا من بغى شرفاً ... يوماً فهان عليـــه النفس والنَّشَب
وأفضل الناس حرٌّ ليس يغلبه ... على الحِجا شهوة فيه ولا غضب

(١) الديوان ٨

خاتمة المطاف

أما بعد ، فقد آن للقلم أن يتوقف بعد تطواف طويل الشقة ، لكنه رغيب الجهد ، حبيب المشقة ، لنتبين المعالم البارزة من الرحلة فى صحبة الزمخشرى . فما هذه المعالم ؟ .

١ — لقد طالعتنا اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية وفروعها ناضرة ناضجة فى زمخشر مدينة وإقليما وفيما حولها ، وأشرقت علينا من سماء المنطقة كلها نجوم شع علمها وأدبها على الشرق وعلى الغرب من بخارى إلى قرطبة ، وما تزال أشعتها تنير الطرق للباحثين والدارسين .

٢ — ورأينا اللغة العربية والثقافة الإسلامية لم تنتشر هنالك فحسب ، بل استقرت استقراراً مطمئناً ، فصبغت مناطق واسعة شاسعة عدة قرون ، ثم صارت كلها أو أكثرها اليوم من الاتحاد السوفيتى ، فياحسرتا عليها . ومعنى هذا أن العرب لم يقوموا وحدهم بنشر لغتهم وثقافاتهم ودينهم ، بل إن سكان تلك الأقاليم شاركوهم إذ سارعوا إلى الإسلام فاعتنقوه ، وأقبلوا على علومه ، وبادروا إلى اللغة العربية فأداروا بها ألسنتهم ، وأجروا أقلامهم ، واصطفوها لغة لهم ، ثم اندمجوا فى آدابها وثقافتها فانتقلوا إلى العروبة انتقالا ، وإن شئت فقل إنهم استعربوا استعرابا ، حتى صاروا ينافسون العرب فى الإنتاج بالعربية ، والتأليف فيها ، والغوص إلى أسرارها . وكان كثير من الأمراء والوزراء كلفا بالعلوم العربية والإسلامية ، حفياً بالأدب والأدباء ، حتى لكأنهم بنو العباس فى عصرهم الذهبى ببغداد .

٣ — ورأينا الرحلة فى طلب العلم أجدى وسائل طلابه ، إذ كان العالم الحجة مقصد العطاش إلى المعرفة يؤمونه من بلاد نائية ، كما تنقل الزمخشرى من إقليم إلى آخر ، واستقى من مدينة بعد مدينة ، ودرس على هذا وسمع من ذاك ، ولم يأنف — وقد بلغ مرتبة المناظرة للعلماء — أن يجلس من أستاذ كبير جِلْسَةَ المتعلم المشوق إلى أن يجيزه أستاذه .

٤ — وتبين لنا أنه كان مشغوفا بالمعرفة ، يتزودها من الأساتذة تارة ومن الكتب تارة ، فتنوعت ثقافته ، وتميزت عقليته ، وتعددت مؤلفاته ، وكثر تلاميذه والمعجبون به ، فشغل معاصريه ومن بعدهم ، سواء فى ذلك موافقوه ومخالفوه ، ومازال بعض كتبه من المنابع الأصيلة للفكر العربى الإسلامى إلى اليوم ، كالكشاف وفنونه ، وأساس البلاغة وحقائقه ومجازاته ، والمفصل وشروحه .

٥ — وليس من التزيد فى شىء أن نصف الزمخشرى بأنه كان أبرع المعتزلة تأويلا للآيات القرآنية ، لتطابق مذهبهم . ومن حقه أن نشيد بأنه ما كان يريد من هذا التأويل الذى عَنَّى به نفسه إلا أن ينزه الخالق سبحانه وتعالى عن أية شبهة قد تتسرب منها المشابهة لمخلوقاته أو المماثلة ، فقد كان الرجل عريق التدين ، عميق الإيمان ، عظيم التقوى ، غيوراً على الإسلام أشد الغيرة .

٦ — كذلك كان الزمخشرى أول من فرق بين علوم البلاغة وقسمها إلى معان وبيان ، وجعل البديع تابعا لهما وحلية ، ثم جاراه فى هذا التقسيم السكاكى ومن بعده إلى اليوم .

٧ — وهو صاحب السبق إلى تأليف معجم لغوى مرتب على الحروف الهجائية ، هذا الترتيب الدقيق السهل الذى نجده فى أساس البلاغة ، كما نجد شبيها به فى كتابيه الآخرين الفائق والمستقصى .

٦ — على أنه قد كان — وهو فارسى الأصل — مغرما باللغة العربية يفضلها على سائر اللغات ، ومؤثرا للعرب يرفعهم إلى أسمى الدرجات ، لأنه ربط ربطا

وثيقاً بين العروبة والإسلام ، وبين حب العروبة والإسلام ، وكان يخشى من الشعوبية على البلاد التى أسلمت واستعربت ، لأن الذى ينعق على العرب اليوم سينعق على الإسلام فى الغد ، ولأن وحدة اللغة والثقافة والعقيدة والحضارة والتاريخ والوجدان المشترك كلها دعائم وطيدة فى حصن الإسلام ، يسند بعضها بعضا ، فلا بد من الحفاظ عليها موصولة متساندة ، وإلا تطرق الوهن إلى الصرح الأشم الذى يتربص به أعداء الاسلام أيما تربص .

٩ — وعلى الذين يتهمون اللغة العربية بالعقم والجمود أو النزارة أن يرجعوا إلى مؤلفات الزمخشرى ، ليعلموا أن العربية ثرية مرنة نَئُور ، اتسعت فى مؤلفاته للتعبير الدقيق عن قضايا التشريع وعلم الكلام والفلسفة والنحو والبلاغة ، وسلست لنثره الفنى وشعره ، كما وسعت العلوم التى مارسها سابقوه ومعاصروه ولاحقوه ، ولم تتعثر إلا حينما تعثر أهلوها ، وتخلفوا عن مسايرة الزمن ، لأن اللغات لا تحيا وحدها بمعزل عن المجتمع الذى يتكلم بها ويقرأ ويؤلف ويعبر .

١٠ — والخير لمن ينصرفون عن العلوم والآداب طموحا إلى متاع زائل أن يتأسوا بالزمخشرى ، إذ أنه قلق فى أول حياته ، ثم تغلب على مثل هذا الطموح ، فانصرف إلى الإنتاج ، لأنه وجد فيه المجد الذى لا يفنى ، والجاه الذى لا يحول ، والسعادة التى لا يرنقها شىء ، حتى لقد استعاض بمؤلفاته عن الزوجة والبنين ، بل فضلها عليهم تفضيلا .

١١ — وإنى لآمل أن تشرق علينا كتبه التى توارت ، فقد كان كتابه (المستقصى فى أمثال العرب) محتجبا لم يطبع إلا منذ ثلاث سنوات ، ولعل فيها أو فى عدد منها فيضا غزيرا يروى الظامئين .

وأرجو أن يطبع ديوانه ، فإن به شعرا كثيراً يتراوح بين التوسط والجودة ، وهو فى حاليه تصوير لبعض مظاهر المجتمع الذى عاصره ، ولبعض الأحداث التى مرت به ، وهو صورة لنفسه ، وأفنانٌ فى دوحة أدبه .

المراجع

١ — أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . شمس الدين المقدسى . ليدن سنة ١٩٠٢ .

٢ — أساس البلاغة . الزمخشرى . مطبعة دار الكتب بالقاهرة (١٣٤١ هـ — ١٩٢٢ م)

٣ — أطواق الذهب فى المواعظ والخطب . الزمخشرى . بشرح الشيخ يوسف الأسير . الطبعة الثالثه ببيروت سنة ١٣١٤ هـ

٤ — أعجب العجب فى شرح لامية العرب . الزمخشرى . الطبعة الثانية سنة ١٣٢٤ هـ .

٥ — الأعلام — الأستاذ خير الدين الزركلى . الطبعة الثانية .

٦ — أمالى المرتضى . السيد المرتضى . القاهرة سنة ١٩٠٧ .

٧ — إنباه الرواة على أنباء النحاة . القفطى. تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . مطبعة دار الكتب سنة ١٣٧٤ هـ . ١٩٥٥ م .

٨ — الأنموذج فى النحو . الزمخشرى . مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٩ هـ .

٩ — الانتصار أبو الحسين الخياط . القاهرة ١٩٢٥ م

١٠ — الانتصاف من الكشاف . أحمد بن المنير السكندرى . على هامش الكشاف .

١١ — الأنساب . السمعانى . نسخة مصورة سنة ١٩١٢ م

١٢ — إيران فى عهد الساسانيين . كريستنس . ترجمة الدكتور يحيى الخشاب . القاهرة ١٩٥٧ م

١٣ — البداية والنهاية فى التاريخ . ابن كثير . مطبعة السعادة بمصر .

١٤ — البصائر والذخائر . أبو حيان التوحيدى . بتحقيق الأستاذين . أحمد أمين والسيد طلبة صقر . مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٧٣ هـ . ١٩٥٣ م

١٥ — بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة . السيوطى . مطبعة السعادة . سنة ١٣٢٦ هـ .

١٦ — البلاغة العربية : تاريخ وتطور . الدكتور شوقى ضيف . دار المعارف سنة ١٩٦٥ . القاهرة

١٧ — البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٦٧ هـ . سنة ١٩٤٨ م

١٨ — تاريخ آدب اللغة العربية . جورجى زيدان . دار الهلال سنة ١٩٥٧ م .

١٩ — تاريخ آل سلجوق . العماد الأصفهانى . مطبعة دار التأليف بمصر .

٢٠ — تاريخ أبى الفدا . المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٢٥ هـ .

٢١ — تاريخ الأدب فى إيران . برون . ترجمة الدكتور أمين الشواربى . مطبعة السعادة . سنة ١٣٧٣ هـ . سنة ١٩٥٤ م .

٢٢ — تاريخ الحضارة الإسلامية . ف . بارتولد . ترجمة الأستاذ حمزة طاهر . مطبعة دار المعارف .

٢٣ — تاريخ الرسل والملوك . الطبرى . المطبعة الحسينية بمصر .

٢٤ — تاريخ الفلسفة فى الإسلام . دى بور . ترجمة الدكتور محمد أبو ريده . القاهرة سنة ١٩٢٣ م

٢٥ — ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن . مطبعة دار المعارف .

٢٦ — ثلاث رسائل للجاحظ . نشرها يوشع فنكل

٢٧ — الجبال والأمكنة والمياه . الزمخشرى . ليدن سنة ١٨٥٥ م

٢٨ — الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية . فون كريمر . ترجمة الدكتور مصطفى بدر .

٢٩ — الحيوان . للجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

٣٠ — الدولة الخوارزمية والمغول . الأستاذ حافظ حمدى . مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٩ م

٣١ — الدولة العباسية . الأستاذ حسن خليفة . الطبعة الأولى .

٣٢ — ديوان جرير . مطبعة الصاوى بالقاهرة .

٣٣ — ديوان الزمخشرى . مخطوط بدار الكتب . أدب ٥٢٩ .

٣٤ — ديوان المتنبى . بشرح البرقوقى . المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م

٣٥ — ربيع الأبرار ونصوص الأخبار . الزمخشرى . مخطوط بدار الكتب ١٥٥ أدب .

٣٦ — الرحلة المغربية . محمد العبدرى البلنسى . تحقيق الأستاذ أحمد بن جدو . نشر كلية الآداب الجزائرية

٣٧ — الرسالة القشيرية . القشيرى

٣٨ — زرادشت الحكيم . الأستاذ حامد عبد القادر . مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٦ م .

٣٩ — سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون . ابن نباتة . تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

٤٠ — سلاجقة إيران والعراق . الدكتور عبد المنعم حسنين . القاهرة سنة ١٩٥٩ م

٤١ — سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى . محمد بن أحمد النسوى ، تحقيق الأستاذ حافظ حمدى مطبعة دار الفكر العربى سنة ١٩٥٣ .

٤٢ — شرح أدب الكاتب . الجواليقى . مطبعة القدسى سنة ١٣٥٠ هـ .

٤٣ — شرح المفصل . موافق الدين يعيش بن على بن يعيش . إدارة الطباعة المنيرية بمصر .

٤٤ — ضحى الإسلام . الأستاذ أحمد أمين . مطبعة دار التأليف سنة ١٣٥٥ هـ . ١٩٣٦ م .

٤٥ — طبقات الشافعية الكبرى . السبكى . المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٥٤ .

٤٦ — طبقات المفسرين . السيوطى . طبعة أوروبا .

٤٧ — الطراز يحيى بن حمزة العلوى . مطبعة المقتطف سنة ١٣٣٣ هـ سنة ١٩١٤ م .

٤٨ — ظهر الإسلام . الأستاذ أحمد أمين . مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٦٤هـ ١٩٤٥م .

٤٩ — عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح . بهاء الدين السبكى . من شروح التلخيص . القاهرة ١٣٤٢ هـ .

٥٠ — علم الأخلاق لأرسطو . ترجمة الدكتور أحمد لطفى السيد .

٥١ — عيون الأخبار . ابن قتيبة . مطبعة دار الكتب بالقاهرة .

٥٢ — الفائق فى غريب الحديث . الزمخشرى . تحقيق الأستاذين على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم

٥٣ ـ الفرق بين الفرق . البغدادى . مطبعة الحلبى ١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م

٥٤ ـ فى علم النفس . الأستاذ حامد عبدالقادر و الأستاذ محمد عطية الإبراشى

٥٥ ـ القاموس المحيط . الفيروزابادى

٥٦ ـ قلائد الأدب فى شرح أطواق الذهب . للميرزا يوسف خان . مطبعة التمدن بمصر سنة ١٣٢١ هـ

٥٧ ـ الكامل فى التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية .

٥٨ ـ الكشاف . الزمخشرى. الطبعة الأولى بالمطبعه البهية المصرية ١٣٤٣ هـ

٥٩ ـ كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . حاجى خليفة . الطبعة الأولى سنة ١٣١١ هـ

٦٠ ـ لسان الميزان . ابن حجر العسقلانى . الطبعة الأولى بالهند سنة ١٣٣١ هـ

٦١ ـ مجموعة رسائل للجاحظ . طبعة ساسى

٦٢ ـ محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية . محمد الخضرى . الطبعة الرابعة سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤ م

٦٣ ـ مختصر تاريخ العرب . سيد أمير على . مطبعة لجنة التأليف ١٩٣٨ م

٦٤ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان . أبو محمد عبدالله بن أسعد اليافعى . الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣٣٨ هـ .

٦٥ ـ المستقصى فى أمثال العرب . الزمخشرى . مطبعة حيدر آباد الدكن سنة ١٣٨١ هـ ـ سنة ١٩٦٢ م

٦٦ ـ معجم الأدباء . ياقوت . طبعة الدكتور فريد رفاعى

٦٧ ـ معجم البلدن . ياقوت . مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م

٦٨ ـ مفاتيح الغيب . الفخر الرازى . المطبعة الأميرية ١٢٨٩ هـ

٦٩ ـ مفتاح العلوم ـ السكاكى .

٧٠ ـ مقامات الزمخشرى . بشرح الزمخشرى . الطبعة الثانية بمصر ١٣٢٥ هـ

٧١ ـ مقدمة الأدب . الزمخشرى . القسم الأول والثانى . مطبعة ليبسيك ١٨٤٣ م والقسم الثانى إلى الخامس مخطوط بدار الكتب ٢٧٢ لغة .

٧٢ ـ مقدمة ابن خلدون . تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى . مطبعة لجنة البيان العربى بمصر

٧٣ ـ الملل والنحل . الشهرستانى . طبعة الجمعية الفلسفية بمصر .

٧٤ ـ منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن . الدكتور مصطفى الجوينى . دار المعارف

٧٥ ـ المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل . المرتضى . مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣١٦ هـ

٧٦ ـ مهذب رحلة ابن بطوطة . الأستاذ أحمد العوامرى والأستاذ محمد أحمد جاد المولى . المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٣٩ م

٧٧ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . المقريزى . القاهرة ١٣٢٦ هـ

٨٧ ـ ميزان الاعتدال فى معرفة الرجال . شمس الدين الذهبى . مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ هـ

٧٩ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . ابن تغرى بردى . مطبعة دار الكتب سنة ١٣٥٣ هـ ـ سنة ١٩٣٥ م

٨٠ ـ نزهة الألباء فى طبقات الأدباء . ابن الأنبارى . طبعة مصر سنة ١٢٩٤ هـ

٨١ ـ نقد العلم والعلماء . ابن الجوزى . مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٠ هـ

٨٢ ـ نوابغ الكلم . الزمخشري . الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٢ هـ — سنة ١٩١٤ م

٨٣ ـ وفيات الأعيان . ابن خلكان . تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٤٨ م

٨٤ ـ يتيمة الدهر . الثعالبي . المطبعة الحنفية بدمشق سنة ١٣٠٠ هـ

الفهرس

تأويله لقوله تعالى : « ومَن يقتل مُؤمناً متعمّداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها (١٥٧) تعليق ابن المنير (١٥٧) .

تأويله لقوله تعالى : « واتقوا يوماً لاتجزى نفسٌ عن نفس شيئاً ولا يُقبل منها شفاعة .... » (١٥٨) تعليق ابن المنير (١٥٨) .

تأويله لقوله تعالى : « يومَ يقوم الرّوحُ والملائكةُ صفاً لايتكلمون إلا مَن أذِن له الرحمنُ وقال صوابا » (١٥٩) تعليق ابن المنير (١٥٩) .

(٥) المنزلة بين المنزلتين

منشأ الخلاف فى الحكم على مرتكب الكبيرة (١٥٩) الآراء فى ذلك (١٦٠) دليل المعتزلة (١٦٠) تأويل الزمخشرى لقوله تعالى : « الذين يُؤمنون بالغيب ويُقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » (١٦١) تعليق ابن المنير (١٦١) .

تأويله لقوله تعالى : « الذين قال لهم الناسُ إنّ الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبُنا الله ونعم الوكيل » (١٦١) .

تأويله لقوله تعالى : « وبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً .... » (١٦٢) .

تأويله لقوله تعالى : «ذلك الكتابُ لاريب فيه هُدًى للمتقين» (١٦٢) تعليق ابن المنير(١٦٣) .

تأويله لقوله تعالى : « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم .... » (١٦٣) تعليق ابن المنير (١٦٤) .

تأويله لقوله تعالى : « قل ياعبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً (١٦٤) .

تأويله لقوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائرَ ما تُنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم » (١٦٥) .

تأويله لقوله تعالى : « الذين يجتنبون كبائرَ الإثم والفواحشَ إلا اللممَ، إن ربك واسعُ المغفرة » (١٦٥) .

(٦) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

مراحلهما (١٦٥) رأى الزمخشرى (١٦٦)

ثانياً — مذاهب فقهية

لم يقتصر الزمخشرى على مذهبه الحنفى (١٦٧) أمثلة من عرضه للأحكام الفقهيه :

فى قوله تعالى : « فمن تمتّع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيامُ ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم» (١٦٧) .

فى قوله تعالى: « واذكروا الله فى أيام معدودات فمن تعجّل فى يومين فلا إثمَ عليه » (١٦٧)

فى قوله تعالى : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذًى فاعتزلوا النساء فى المحيض » (١٦٨)

فى قوله تعالى : « والوالداتُ يُرضعنَ أولادهُنّ حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرّضاعه....» (١٦٨)

فى قوله تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » (١٦٨)

فى قوله تعالى : « ولله على الناس حِج البيتِ من استطاع إليه سبيلا» (١٦٩).

فى قوله تعالى : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » (١٦٩)

ثالثا — قراءات

مفاضلة بين القراءات

استبعاد القراءات الشاذة وإنكارها

رابعا — آراء نحوية

فى قوله تعالى : « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض » (١٨٥)

فى قوله تعالى : « وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ... » (١٨٥)

فى قوله تعالى : « هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا » (١٨٦)

فى قوله تعالى : « لا أقسم بيوم القيامة » (١٨٧)

خامسا — مسائل لغوية

حرصه على تجلية بعض الدلالات الدقيقة (١٨٩) .

فى قوله تعالى : « والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » (١٨٩) .

فى قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » (١٩٠)

فى قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » (١٩٠)

فى قوله تعالى : « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » (١٩١)

فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه .... » (١٩١)

فى قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها ... » (١٩٢)

فى قوله تعالى : « ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا عينا فيها تسمى سلسبيلا » (١٩٣)

فى قوله تعالى : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا .... » (١٩٤)

فى قوله تعالى : « وكذبوا بآياتنا كذابا » (١٩٤)

سادسا — نصوص شعرية

استشاده بالشعر كما استشهد سابقوه (١٩٥) لم يحرم الإسلام الشعر كله (١٩٥) أمثلة من استشهاده بالشعر فى تفسيره :

فى قوله تعالى : « والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم » (١٩٦)

فى قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » (١٩٧)

فى قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » (١٩٧)

فى قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا » (١٩٨)

فى قوله تعالى : « يطاف عليهم بكأس من معين » (١٩٩)

فى قوله تعالى : « وإنه لحب الخير لشديد » (١٩٩)

فى قوله تعالى : « إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » (١٩٩)

سابعا — بلاغة ونقد

تمهيد (٢٠٠) كثرة البلغاء والأدباء والفلاسفة من المعتزلة (٢٠٠) عنايتهم بالكشف عن وجوه الإعجاز البلاغى (٢٠١) انتفاع الزمخشرى بدراسات المعتزلة والأشعرية وعبد القاهر الجرجانى (٢٠١) تفرقة الزمخشرى بين علمى البيان والمعانى (٢٠٢) ، رأيه أن علم البديع تابع لهما (٢٠٣) تأثر السكاكى بالزمخشرى (٢٠٣) تأثر يحيى بن حمزة العلوى به (٢٠٤)

أمثلة مما ذكره من علم البيان :

١ — التشبيه .

فى قوله تعالى : « إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر » (٢٠٥)

٢ — تشبيه التمثيل :

فى قوله تعالى : « أولئك الذين اشترَوُا الضلالةَ بالهدى فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً . . . . » (٢٠٦)

٣ — الاستعارة :

فى الآية السابقة

فى قوله تعالى : « ثم جعلناكم خلائف فى الأرضِ من بعدهم لننظر كيف تعملون » (٢٠٩)

فى قوله تعالى : « وما يُضِلُّ به إلاّ الفاسقين الذين ينقضون عهدَ اللهِ من بعد ميثاقه » (٢١٠)

الاستعارة المرشحة فى قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروُا الضلالةَ بالهدى فما ربحت تجارتهم » (٢١١)

فى قوله تعالى : « مثلهم كمثلِ الذى استوقدَ ناراً فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم » (٢١١)

٤ — الكناية ، تفرقته بينها وبين التعريض (٢١٢) أمثلة لها :

فى قوله تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خِطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم » (٢١٢)

فى قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (٢١٣)

فى قوله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ... »(٢١٣)

فى قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إله مِنْ حَبْلِ الوريد » (٢١٤)

فى قوله تعالى : « إذا زُلزلتِ الأ ضُ زِلزالها . . . . . . » (٢١٤)

فى قوله تعالى : « قالوا أضغاثُ أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » (٢١٤)

٥ — المجاز المرسل ، حقيقته ، أمثلة له:

فى قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها . . . » (٢١٥)

فى قوله تعالى : « كل شيء هالكٌ إلا وجهه » (٢١٦)

فى قوله تعالى : « ويبقى وجهُ ربِّك ذوالجلال والإكرام » (٢١٦)

٦ — المجاز العقلى ، معناه ، أمثلة له :

فى قوله تعالى :« يُضِلُّ به كثيراً ويَهدى به كثيرا » [٢١٦]

فى قوله : « أولئك الذين اشتروُا الضلالةَ بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مُهتدين » [٢١٧]

فى قوله تعالى:« اللهُ يعلمُ ماتحمل كلُّ أنثى وما تغيضُ الأرحامُ وماتزداد» (٢١٧)

أمثلة من علم المعانى

١ — القصر ، أمثلة له :

فى قوله تعالى : « وإذا قيل لهم لا تُفسدوا فى الأرضِ قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (٢١٨)

فى قوله تعالى : « إياك نعبدُ وإياك نستعين » [٢١٨]

فى قوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » [٢١٨]

فى قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » [٢١٩]

آيات أخرى [٢١٩]

٢ — الفصل والوصل ، أمثلة لهما :

فى قوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (٢١٩)

فى قوله تعالى : « قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » (٢٢٠)

فى قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون

بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ...» (٢٢٠)

٣ — التوكيد

في قوله تعالى : « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون...» (٢٢١)

٤ — التقديم والتأخير، أمثلة :

في قوله تعالى : « قل أغير الله أتخذ وليا » (٢٢١)

في قوله تعالى : « أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » (٢٢٢)

في قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » (٢٢٢)

في قوله تعالى : « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله» (٢٢٢)

٥ — الحذف :

في قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » (٢٢٣)

في قوله تعالى : «والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى»(٢٢٣)

٦ — الالتفات . هو في رأيه من علم البيان وفي رأي البلاغيين بعده من علم المعاني .

في قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » (٢٢٣)

تأثر السكاكي بالزمخشري

٧ — التعبير بالمضارع عن الماضي

في قوله تعالى : « والله الذي أرسل السلاح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت » (٢٢٥)

٨ — التعبير بالماضي عن المستقبل .

في قوله تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » (٢٢٦)

في قوله تعالى : « ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله » (٢٢٦)

٩ — الجملة الاسمية والجملة الفعلية . دلالة كل منهما

في قوله تعالى : «واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا » (٢٢٧)

في قوله تعالى : « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم » (٢٢٧)

أمثلة من علم البديع

١ — الجناس :

في قوله تعالى : « وجئتك من سبإ بنبإ يقين » (٢٢٨)

في قوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي » (٢٢٨)

٢ — الطباق :

في قوله تعالى : « ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ».(٢٢٨)

٣ — تأكيد المدح بما يشبه الذم :

في قوله تعالى : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد »(٢٢٩)

٤ — اللف والنشر . معناه .

في قوله تعالى : «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ....» (٢٢٩)

٥ — المشاكلة، معناها .

في قوله تعالى : « إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » (٢٣٠)

في قوله تعالى « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » (٢٣٠)

ثامنا — تعليل وتمحيص

قيمة الكشاف وأثره

الفصل السابع ٢٤٥ — ٢٦٧

في بحر اللغة

(١) أساس البلاغة

(٢) المستقصى فى أمثال العرب

(٣) الفائق فى غريب الحديث

(٤) أعجب العجب فى شرح لامية العرب

كتب للمؤلف

١ — وحى النسيب فى شعر شوقى :

دراسة لغزل شوقى من حيث بواعثه وخصائصه

٢ — وطنية شوقى :

دراسة مفصلة للوطنية فى شعره ، ومظاهرها المختلفة ، معتمدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقى ، وموازنات بينه وبين غيره من شعراء العصر الحديث ، وتوضيح لموقفه من الخلافة الإسلامية وأنه لا يتعارض مع وطنيته

٣ — الإسلام فى شعر شوقى :

دراسة لتدينه ومظاهره فى شعره من إيمانه بالله ، ومدائحه للنبى ، وإشادته بخصائص الإسلام ، ودفاعه عنه ، ودراسة فنية لهذا الشعر الدينى .

٤ — الفكاهة فى الأدب :

يتناول الفكاهة وأصولها وتقسيمها إلى أنواع طبقا للبواعث النفسية ، ويعرض فى تفصيل لدلالات الفكاهة الاجتماعية والسياسية واللغوية .

٥ — البطولة والأبطال :

يعرض للبطولة وأسسها وأنواعها ، ولصور من أبطال العرب فى الجاهلية والإسلام ، وبعض أبطال مصر الحديثة ، مع التحليل .

٦ — أبو حيان التوحيدى .

دراسة لعصره السياسى والعلمى والأدبى ، وعرض لحياته ، ولثقافته ولصلاته بوزراء عصره ، وتحليل لشخصيته ، وتعريف بكتبه ، وتحليل لأسلوبه ، وموازنات بينه وبين معاصريه ، وبينه وبين الجاحظ .

٧ — سماحة الإسلام :

تحليل منصف لسماحة الإسلام فى نواح شتى فى السلم والحرب ، معتمد على التشريع والنصوص والتطبيق ، مع موازنات بين الإسلام وغيره من الأديان والشرائع والقوانين والفلسفات .

٨ — أدب السياسة فى العصر الأموى :

يتناول الأحزاب السياسية ونشأتها ومذاهبها ، ويعرض نماذج من أدبها شعرا وخطابة وحوارا وكتابة ، مع تحليل لهذا الأدب ، ودراسة لخصائصه ، وموازنات بين بعضه وبعض . وعرض للعصبية القبلية والجنسية وآثارهما فى الشعر والسياسة .

وبه ترجمة لبعض الأدباء الساسة .

٩ — سوسن :

قصة مصرية سامية العرض ، نبيلة الغرض .

١٠ — مع ابن خلدون :

عرض لآرائه فى التربية وعلم الاجتماع التى لم يعرض لها الدارسون من قبل ، ودراسة لأدبه من نثر وشعر .

١١ — الغزل فى العصر الجاهلى :

دراسة للغزل فى الجاهلية من حيث أصوله ، وبواعثه ، وأنواعه ، ونشأة كل منها وعلاقته بالبيئة ، مع موازنة بين الغزل فى الجاهلية والإسلام

نال به المؤلف درجة الماجستير من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى .

١٢ — المرأة فى الشعر الجاهلى :

دراسة مفصلة للمرأة فى العصر الجاهلى من الشعر ، من حيث مكانتها فى الأسرة والقبيلة والمجتمع ، أمًّا وزوجة وبنتاً وأختاً وقريبة . ودراسة للمرأة فى

الحياة العامة فى السلم والحرب ، ولثقافتها وصناعتها . ودراسة للمرأة فى الحياة الفنية ، من حيث أثرها فى الغناء ، ومن حيث روايتها للشعر ، ونقدها له ، ولشاعريتها،وأنواع شعرها وخصائصه، مع موازنات بينها وبين النساء المعاصرات لها فى العالم القديم .

نال به المؤلف درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز .

١٣ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى

بحوث تمهيدية ، وتوثيق للشعر الجاهلى ، ودراسة له من حيث تصويره لألوان الحياة الاجتماعية والدينية وللعادات والمعتقدات ، ولصلات العرب بغيرهم من الأمم .

١٤ — أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى

عرض وتحليل لصور الطبيعة فى الشعر الجاهلى من حيوان ونبات وجماد وظواهر فى الأرض والجو ، واستنباط الخصائص العامة فى تناول الشعراء للطبيعة،ودراسة لأصداء البيئة فى موضوعات الشعر وأخيلة الشعراء وفهمهم .

١٥ — تيارات أدبية بين العرب والفرس :

يتناول صلات العرب والفرس فى الجاهلية والإسلام ، وأثرها فى كل من الشعبين فى العقائد والنظم والعادات واللغة والأدب .. الخ .

١٦ — المثل السائر لابن الأثير :

تقديم وتحقيق وتعليق

١٧ — الطبرى

دراسة لعصره ، وبيئته ، وحياته ، ومصادر ثقافته وألوانها ، وعرض لتلاميذه ، ولمؤلفاته ، ودراسة لشخصيته ، ولمناهجه فى التفسير والتاريخ والفقه .

١٨ — فن الخطابة :

دراسة للخطيب ، وعدته ، وصفاته ، وعوامل نجاحه ، ودراسة للخطابة ، وأنواعها ، وأصولها ، وأساليبها ، وتصور الأمم لها ، وتعقيب بدراسة مفصلة للخطابة السياسية فى العصر الأموى .

١٩ — بطولة وبطل :

دراسة للبطولة ، وتحليل لبطولة الرئيس جمال عبد الناصر من خلال حياته وأعماله وأقواله .

٢٠ — الجاحظ :

دراسة لعصره ، وحياته ، ومعالم شخصيته . ومؤلفاته ، وخصائصه الفنية ، مع تحليل بعض كتبه .

٢١ — تحت راية الإسلام :

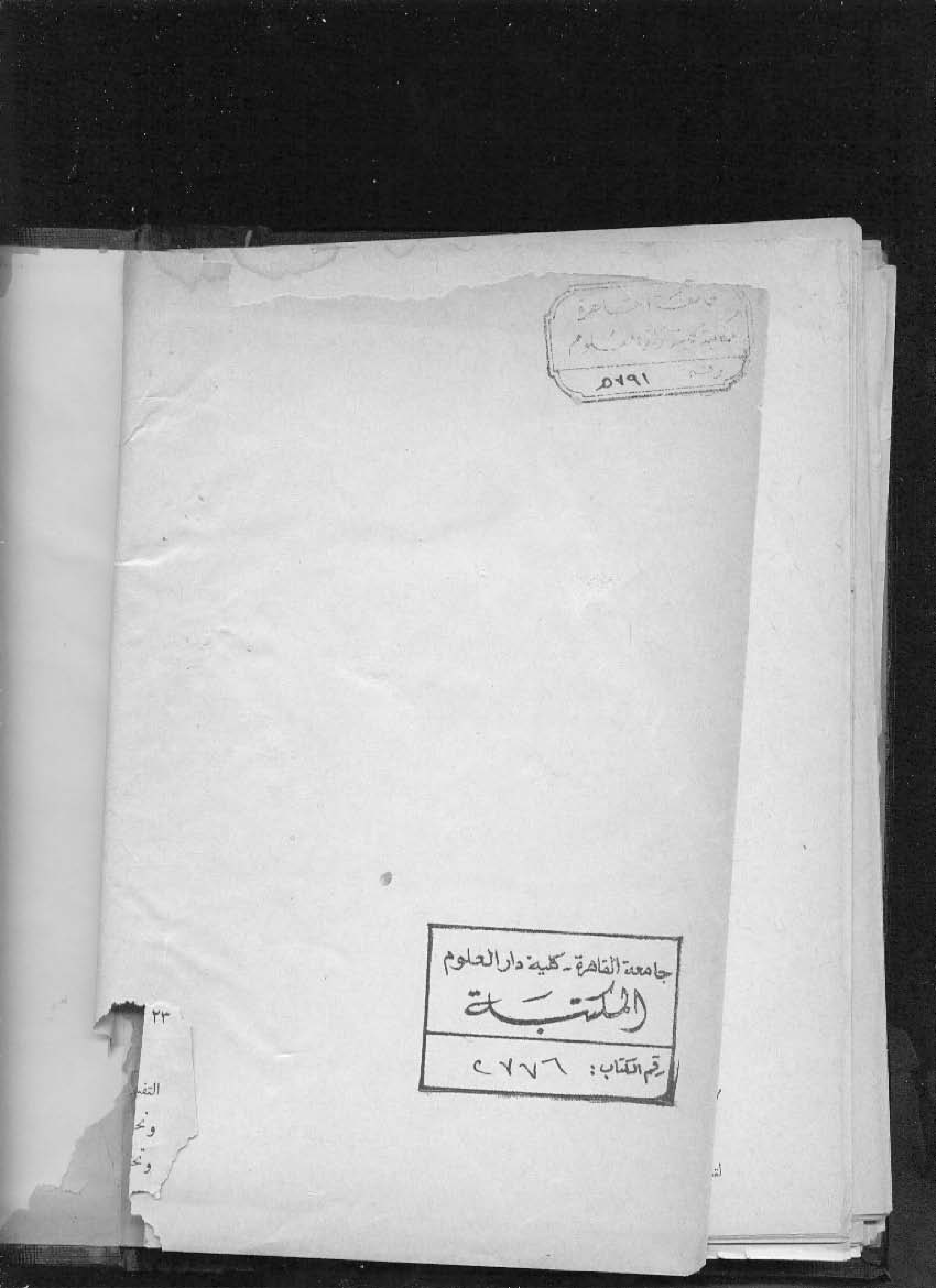
بحوث شتى فى الدفاع عن الإسلام ، وفى الكشف عن ألوان من الثقافة الإسلامية .

٢٢ — القومية العربية فى الشعر الحديث :

دراسة لدعائم القومية العربية فى تفصيل، وعرض للشعر الذى أثر فيها وتأثر بها من الخليج إلى المحيط ، ودراسة فنية لهذا الشعر، وتوضيح لجهود مصر قديما وحديثا فى مجال القومية العربية .

٢٣ — الزمخشرى :

دراسة لعصره ، وحياته ، وأساتذته ، وتلاميذه ومؤلفاته ، ومنهجه فى التفسير ، وما تضمنه من تأييد مذهب المعتزلة ، وماشتمل عليه من آراء فقهية ونحوية وبلاغية الخ . ودراسة لجهود الزمخشرى فى ميادين اللغة وغيرها ، وتحليل لنثره وشعره .


جامعة القاهرة - كلية دار العلوم
المكتبة
رقم الكتاب: ٢٧٧٦